محاضرات إسلامية

د. عماد الدين خليل

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات إسلامية

إهـــــــــــــــداء

إلى فلّذات كبدي ...

ابني وبناتي : محمد ومها وعلا

جزاء وفائكم مع الله ...

وبرّكم معي ...

تقديم

هذه جملة من المحاضرات التي ألقيت عبر مدن شتى من عالم الإسلام على مدى يقارب العشرين عاماً (١٩٩٣-٢٠١٠م) في المساجد والجامعات والندوات والمؤتمرات والجمعيات والمعاهد والأحزاب والمجالس العلمية. انتقيتها من بين كم كبير من التي ضاعت أوراقها أو رؤوس موضوعاتها عبر الزمن ، أو تلك التي لم يعد موضوعها في تماس مباشر مع هموم المثقف المعاصر.

تعالج هذه المحاضرات التي يجدها القارئ بين يديه عدداً من الموضوعات ذات التأثير المؤكد في ديننا وعقيدتنا وفكرنا وسلوكنا ونشاطنا الفردي والاجتماعي ... تؤشر على مكامن الداء وتسعى لأن تقدّم الدواء ، وسبل الخروج من الأزمات التي نعانيها صباح مساء ... تستعرض التحديات وتحاول أن ترسم الخطط والاستجابات الناجحة لها من أجل أن تستعيد هذه الأمة دورها القيادي الضائع ، وتمارس بالجدّ المطلوب مشروعها الحضاري الأصيل ...

سيشاركنا القارئ الكريم في الاستماع إلى هذه المحاضرات التي تعالج الموضوعات التالية : تأملات في الايمان والتوحيد ، حول التصوّر الإسلامي للعمل ، قراءة في الكتابين المسطور والمنظور ، ماذا يراد لنا : قراءة في كتاب التنصير ، نماذج من العمل القيادي الإسلامي ، تأشيرات حول التعامل مع الشاشة الصغيرة ، المرأة المسلمة والعمل السياسي ، هوامش على ملف العمل الخيري ، عدالة المشروع الحضاري الإسلامي ، مرئيات حول العولمة والنظام العالمي الجديد ، ازدواجية التعليم الجامعي : مرئيات للخروج من الأزمة ، مفهوم الإعمار وعلاقته بالنهضة في ضوء القرآن الكريم ، مفارقة الإنسان والتقدم : رؤية مقارنة ...

والمحاضرات جميعاً تدور في سياق الفكر الإسلامي ، ولهذا جاء الكتاب يحمل العنوان نفسه ...

فعسى أن أكون قد وفقت في اختيار الموضوعات التي تهمّ المثقف المعاصر ، وتمسّ ما يكتوي بناره ، وينتظر من يشير بكلتا يديه إلى معالم الطريق ...

ودائماً نقول بأن المقاربة والتسديد هي من فضل الله وحده ... وأما القصور والأخطاء فممّا صنعته أيدينا ، منتظرين من قرّائنا الأحبة تصويب الخطأ والإرشاد إلى الصواب ...

وإلى الله وحده نتوجه بالكلمات والأعمال ...

أ.د. عماد الدين خليل

الموصل في ٢٠١٣/٧/٣٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في الايمان والتوحيد

" محاضرة ألقيت في الموسم الثقافي
لجامع الرحمة بالموصل في
رمضان ١٩٩٣م "

أيها الشيوخ الكرام والأخوة الأحبة والأخوات الفضليات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

رحلتنا هذه الليلة ستكون مع الايمان والتوحيد ... سيتم التأشير على الخصائص الأساسية للايمان الإسلامي التي تفرّقه عن كل أنماط الايمان في المذاهب والأديان المحرّفة ... ذلك أنه الايمان المنبثق عن آخر الأديان وخاتم الرسالات ... عن هذا الدين المكتمل ، كما يؤكد كتاب الله ﴿ ... اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ... ﴾ سورة المائدة ،(الآية ٣) ، بمعنى أن مواصفات الايمان المرتبطة بهذا الدين، والمؤسسة له ، تمثل السقف العالي الذي لا يأتيه الباطل من بيد يديه ولا من خلفه.

ابتداء فان الايمان الإسلامي وحدة لا تتجزأ ... لا في الزمن ولا في المكان ... بمعنى أنه يجري في عروق المسلم لحظة بلحظة وخطوة بخطوة ... لا ينفصل عن وجدانه وعقله وضميره لأي سبب من الأسباب ... يمضي لكي يغطي الحياة بكل تفاصيلها ومفرداتها ومنحنياتها ... ينسرب في الشرايين ليل نهار وحيثما وضع المسلم خطاه ... ينبض مع دقات القلب وخفقان الروح ، وتأملات العقل ، وومضات الفؤاد ... لا ينفصل أو يكف لحظة واحدة ... إنه المسافر الوحيد الذي يرافق الإنسان في الحياة الدنيا ، منذ لحظة تفتحه على الحياة وحتى يغيّب في التراب.

بدون ما " ايمان " يتجرّد الإنسان المسلم عن اسلامه ... يقف عارياً لا يستره شيء ... تنتزع من دمه وأعصابه وخلاياه ... من عقله وفؤاده ... من روحه ووجدانه ... القناعات التي تمنح اسلامه المعنى والمغزى ... الايمان خبرة موغلة متوحدة مع الإنسان لا يمكن فصلها لأي سبب من الأسباب ، وإلاّ خرج هذا الإنسان عن الطريق وضل عن الصراط ... ولهذا كلّه تظل تتردّد في كتاب الله هذه اللازمة **(يا أيها الذين آمنوا ...) (يا أيها الذين آمنوا ...) (يا أيها الذين آمنوا ...).**

الايمان الإسلامي كل لا يتجزأ ... لا في الزمن ولا في المكان ... فليس عندنا أيام محدودة في الأسبوع (كالسبت عند اليهود والأحد عند النصارى) لكي نمارس طقوسنا الايمانية فيها ... الأسبوع كلّه مفتوح للتحقق بالايمان ... بدءً من الشعائر المحددة التي تغطي الليل والنهار ... مروراً بالذكر الذي لا وقت يأسره عن الخفقان في قلب المؤمن وروحه وعقله ... وصولاً إلى مرتبة الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك !!

ليس عندنا مكان محدّد لأداء مراسم الايمان وطقوسه وشعائره ، كما هو الحال عند اليهود في البيع وعند النصارى في الكنائس ... نحن في مساجدنا نؤدي الحدود الدنيا الملزمة

من مطالب الايمان ، ويبقى بعدها الفضاء المكاني مفتوحاً للمزيد من التحقق بقيمه ومعانيه وحلاوته ... الفضاء المفتوح الذي لا يأسره قيد ولا يحدّه شيء في هذه الدنيا ... ولقد قالها رسول الله (عليه أفضل الصلاة والسلام) (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ...) ...

هم بعد أيام السبت والأحد ، وخارج المعابد والكنائس يفعلون ما يشاءون : يشربون ... يزنون ... يرقصون ، يغنون ، يسرقون ، يغتصبون ... كأنهم قد حصلوا على رخصة أو إجازة إلهية بأن يفعلوا ما يشاءون خارج مؤسساتهم الدينية ... بل ان هذه هي الأخرى اخترقت بالعفن والتفكك والرذيلة والفساد إلى الحدّ الذي صرنا نسمع فيه عن الفضائح الجنسية بين القسس والرهبان أنفسهم ... وإلى دعوات موجهة من أرباب الكنائس لعقد الزواج النمطي في باحاتها من أجل كسب جماهير العباد والمرتادين ... أية مفارقة هي هذه ؟!

فنحن نجد أنفسنا ملزمين بمطالب الايمان عبر كل الأيام ... لا يستثنى يوم دون آخر ... ولا مكان دون مكان ... نحن في كل الأزمنة والأماكن متوحدين مع أنفسنا ، ملتزمين بمطالب الايمان ...

ثم أن الايمان الإسلامي يجيء متوافقاً بشكل مدهش مع الحقيقة الكونية التي خضعت نواميسها لكلمة الله ، وانطلقت في مساراتها مستجيبة لأمر الله ... وخفقت في مداراتها الكبرى والصغرى مسبحة بحمد الله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (سورة فصلت ، (الآية ١١) ، ﴿ ... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (سورة الإسراء ، (الآية ٤٤) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ ﴾ (سورة النور ، (الآية ٤١).

لقد أريد للإيمان الإسلامي أن يكون متوافقاً مع حركة السدم والنجوم والكواكب والمجرات في مداراتها الكبرى ... مع حركة النيوترونات والبروتونات في مداراتها الصغرى ، من أجل أن يمضي الإنسان إلى أهدافه الكبرى في تساوق وانسجام مع الحركة الكونية ، فيما يمنحه توحداً أكبر مع ذاته ، ويمكنه من التحقق بإنجاز أكثر خصباً وعطاءً على المستوى الحضاري ... لقد أريد للإيمان الإسلامي أن يكون العدسة اللامة التي تجمع الأشعة وتمكنها من الإضاءة والإحراق ... إضاءة معالم الطريق للمدلجين في مسالك العالم ، وإحراق الدنس والصغار ... ولكن الإنسان بتميّزه عن الكائنات الأخرى ، منح حرّية الاختيار بعد وضعه قبالة الصراط ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (سورة الإنسان ، (الآية ٣) ، ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ

الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . . . ﴾(سورة البقرة ، (الآية ٢٥٦) ... لم يفرض الايمان عليه فرضاً تقديراً لآدميته المتميزة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(سورة الإسراء ، (الآية ٧٠) ، وترك حراً في اختيار الطريق الذي يشاء ... وهي كلها – فما عدا الصراط – طرق معوّجة ملتوية ، تنطوي على ايمان زائف منقوص يقود أصحابه إلى التعاسة والشقاء ، وخسارة الدنيا والآخرة ، كالذي نشهده لدى عشرات الشرائح الدينية الضالة التي ساقها اختيارها الحرّ إلى الطرق المسدودة ...

وهو ايمان يتوافق مع الفطرة البشرية ﴿ . . . فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . . . ﴾(سورة الروم ، (الآية ٣٠) ... التوافق المدهش الذي تؤكده الدراسات والبحوث الميدانية يوماً بيوم ... ذلك أن هذا الايمان يمنح النفس البشرية سويتها الموزونة في حدودها القصوى ... يهبها المغزى لحياتها الدنيا ... يؤملّها بيوم الحساب الذي لا تندّ عنه صغيرة ولا كبيرة مما فعله الإنسان في دنياه ... هنالك حيث يتلقى المحسنون الجائزة الكبرى ، فيما يمنح حياتهم على الأرض السعادة والرضا والاطمئنان ، ما دام ثمة حساب في نهاية الأمر على الجهد البشري المبذول في الحياة الدنيا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۞ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (سورة الأنبياء ، (الآيات ١٠١-١٠٣).

نقارن هذا بمقولات الوجوديين والملاحدة والعبثيين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، حيث يجمعون على رؤية سوداوية معتمة لحياة لا معنى لها ولا مغزى ... إذ ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى ، كما يقول (البير كامي) أحد زعماء الوجودية الملحدة ... وأن الموت هو بمثابة رياضيات دامية تقف في مواجهة الحياة والاستمرار ... ويظل هؤلاء يرفعون نداءهم المشؤوم بمواجهة ما يؤمنون به من عبث الحياة والعالم والكون : " ثم ماذا بعد ؟ ماذا لو ملكنا الدنيا ... ثم ماذا بعد ؟ " !!

إن توافق الايمان الإسلامي مع الفطرة البشرية يمضي حتى باتجاه السويّة الصحية للإنسان ... فانه ما من محرّم الا وتنعكس ممارسته ضرراً على هذه السوية ، وما من حلال أو مندوب أو مباح الا وينعكس إيجاباً عليها ... ونحن نرى – على سبيل المثال – كيف أن الصلاة الإسلامية تحقق أقصى درجات الوفاق بين العقل والروح والجسد ، وتنعكس على السوية

الصحية بالمزيد من المنافع والمزايا التي لا يتسع مجال هذه المحاضرة لسردها ولكني أقف لحظات عند واحدة منها فقط ... إن (ديل كارنيجي) المربي المعروف يؤكد في كتابه ذائع الصيت (دع القلق وابدأ الحياة) على أن الإنسان الذي يجلس وراء مكتبه الساعات الطوال ، قد يقوده الجهد المتواصل ليس فقط إلى تناقص أدائه ، وانما ينعكس على وضعه الصحي والنفسي ، وأن خير علاج لذلك هو أن يتوقف بين الحين والحين عن العمل ... ويسترخي ويرتاح ، لخمس دقائق فحسب ، ثم يعود إلى عمله وقد استعاد وضعه النفسي والصحي السليم ... فأية معجزة في الصلاة الإسلامية التي تلزمنا بالتوقف عن العمل خمس مرات في اليوم ، لدقائق معدودات ... ومن أجل ذلك كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخاطب بلالاً بقوله : (ارحنا بها يا بلال) !!

والايمان الإسلامي يحقق أقصى درجات الوفاق مع العقل ... لا أقول يتصالح معه ، وانما يتعاشق معه ، ويدفعه دفعاً إلى المزيد من التدفق والإبداع والعطاء ... حيث لا صراع ولا ظل من صراع على الاطلاق ... بل هما اليدان اللتان تتحركان لقطف الثمار الحلوة في أرجاء السماوات والأرض.

لقد كان الأيمان الإسلامي دائماً في تعامل إيجابي مبدع مع العقل ، يدفعه دفعاً إلى البحث والتنقيب والاكتشاف ... إلى التأشير على إبداعية الله جل في علاه ... في العالم والطبيعة والكون والحياة ... فيزداد المؤمن ايماناً وهو يرى بأم عينيه نتاج هذا الجهد الذي يؤكد وحدانية الله القادر ، القاهر ، المبدع ، الخالق ، المدبّر ، المريد ...

وبينما كانت أوربا القرون الوسطى تقاتل العلماء والمكتشفين ، لأن فراعنتها من القساوسة والرهبان كانوا يخشون على قدسية معطيات العهدين القديم والجديد ، المترعة بالخرافات والأباطيل ، أن تمسّ أو يشكك بمصداقيتها ، أو تلغى من الحساب ... بينما كانت تلاحقهم وتضطهدهم وتعذبهم وتحرقهم (كما فعلت على سبيل المثال بغاليليه وكوبر نيكوس وبرونو وغيرهم كثيرون) ... كان العالم المسلم الذي يقدّم كشفاً جديداً يتلقى وكشفه بالترحاب ، لأن كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) لا تنطويان على أية نسبة من الخطأ ، وحاشاهما، فيما قدّماه من الحقائق العلمية والمعرفية التي يجيء الكشف دائماً لكي يؤكدها. وكما يقول الباحث الإنكليزي المعاصر (روم لاندو) في كتابه (العرب والإسلام) : " ... بتحرير العلم في القرون الوسطى من سلطان الكنيسة ، لم يفصل الغرب العلم عن العقائد الدينية فحسب ، بل فصله عن مفاهيم الايمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضاً. أما العلم الإسلامي فلم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود ، لإقامة الدليل على (الألوهية) وتمجيدها. ومن

هنا فليس عجيباً أن يكون العلم الإسلامي لم يجرّد في أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية – كما حدث في الغرب – ولكنه كان دائماً في خدمة الإنسان " ... ثم ما يلبث لاندو أن يخلص إلى النتيجة التالية : " في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقاً معاكسة : لا. والواقع أن الأول كان باعثاً من البواعث الرئيسية للثاني ... إن الحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفقوا ، طوال خمسة قرون كاملة ، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه ، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وانجاح ، لا عامل تعويق وإحباط ".

وكما يقول (موريس بوكاي) المفكر الفرنسي المعروف في كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) : " ان الإسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزء لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية ، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة الأوربي ".

والايمان الإسلامي ايمان منفتح على الخبرات الإيجابية الأصيلة لمعطيات النبوات السابقة ... يحترمها ويتقبلها ، ويبني عليها ... ويمضي بها قدماً إلى الأمام ... لأنها جميعاً تنطلق من مصدر واحد وتمضي إلى الهدف الواحد ، معززة الايمان في العالم ، بمواجهة كل قوى الضلال والتخريب والتفكيك : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ١٣٦) ، ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ٢٨٥) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (سورة النساء ، (الآيتان ١٥٠–١٥١).

وهو ايمان تحريري ، يعبر عنه الشعار الذي رفعه الفاتحون في مواجهة طاغوتيات كسرى وهرقل : (الله ابتعثنا لكي نخرج العباد من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده) ... إنه كسر للقيود والأغلال التي

طوّقت بها الأهواء البشرية والدينية المحرفة عنق الإنسان ويديه : ﴿ ... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾(سورة الأعراف ، (الآية ١٥٧) ... إنه ثورة دائمة ضد كل صيغ الابتزاز والاستلاب والقهر التي يمارسها الطواغيت والأرباب من أجل تعبيد الناس لأنفسهم ، وتحرير الإنسان من قبضتهم وتركه حرّاً طليقاً في اختيار العقيدة التي يشاء.

بل إنه التحرير حتى على مستوى الحاجات البيولوجية للإنسان المسلم : مسكناً وملبساً ، وطعاماً ، وإشباعاً جنسياً ... ها هنا حيث يضع الإسلام الخطط والبرامج التي تستهدف إشباع هذه الحاجات الأساسية دون إفراط أو تفريط ... إنه الحدّ الوسط الذي يمكن الإنسان من التحقق بأقصى درجات الوفاق مع وضعه النفسي والجسدي على السواء ... فيحرره من شد الضرورات ، ويدفعه للإنجاز والإبداع ...

وهو ايمان ذو فضاء واسع ... يملك عمقاً روحياً خصباً ، وينطوي على مشروع مفتوح للصعود الدائم إلى فوق عبر محطات التقوى والإحسان ... ليس ثمة حدّ يقف عنده ... يمضي صوب الأهداف البعيدة متحققاً بها ، ومتجاوزاً إياها صوب ما هو أبعد وأشد نأياً ... وهو يرد بذلك على شبهات اللاهوتيين والمستشرقين الذين يدينون الإسلام – بالمقارنة مع النصرانية – بفقره الروحي ... أي فقر هذا أيها المشككون وها هي ذي شهادات المتصوفة الكبار ... ورجالات الخبرة الروحية الذين أوغلوا في مرافئ الصعود ، تؤكد أنه ما من دين أو مذهب في العالم يفتح الطريق لاكتساب الخبرة الروحية والتحقق بها كهذا الدين ... إنه الخروج من ضيق الدنيا وحصار الحسّ والشهوات إلى سماء الله الكبيرة ... الانطلاق في الزمن والمكان إلى حيث الحرية التي تجعل الإنسان كائناً فريداً بحق ، يعلو على الضرورات ... يتحرر منها ... يضع اغراءات الحياة الدنيا تحت قدميه ... ويركز بصره ... وروحه ... ووجدانه ... في هدف واحد هو الله ... مخلصاً له المحبة ، مستجيباً لندائه التأسيسي الكبير الذي خلقت من أجله السماوات والأرض : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (سورة الذاريات ، (الآيتان ٥٦-٥٧).

وها هي ذي بعض شهادات رجالات الخبرة الروحية في تاريخنا تحسم الأمر وتردّ كلام الخاطئين إلى أفواه قائليه ...

الكيلاني :

(١) لا تهربوا من خشونة كلامي فما رباني إلا الخشن في دين الله عزّ وجل.

(٢) دين محمد تتداعى حيطانه ويتناثر أساسه ، هلمّوا يا أهل الأرض نشيد ما انهدم ونقيم ما وقع ...

(٣) لا تخف أحداً سوى الله عزّ وجل ، ولا تبرح أحداً سوى الله عزّ وجل ، وكل الحوائج إلى الله (عزّ وجل). التوحيد التوحيد إجماع الكل.

النفرّي :

(١) يا عبد أنت لا تملك إلا ما ملكتك. لا تملك نفسك فأنا خالقها. ولا تملك جسدك فأنا سوّيته. أنت بي تقوم وبكلمتي جئت إلى الدنيا. يا عبد قل لا إله إلا الله ثم استقم. فلا إله إلا أنا ولا وجود حق إلا لي. وكل ما سواي مني ، من صنع يدي ، ومن نفخة روحي. يا عبد كل شيء لي فلا تنازعني مالي. أردد كل شيء إليّ أثمرّه بيدي وأزيد فيه بكرمي. اسلم لي كل شيء تسلم من كل شيء !!

(٢) الأسماء لا فعل لها بذاتها وانما هي تفعل بذات الله ...

(٣) أنا الله لا تحيط بي الحروف ولا تستوعبني الكلمات ...

(٤) إذا استيقظت فاستيقظ في التوكل علي ، وإذا أكلت فمن يدي ، وإذا شربت فمن يدي ...

(٥) إذا رأيت سواي فافتتنت فقل يا رب هذا بلاؤك فأرحمك !!

(٦) أتدري كيف تلقاني وحدك ؟ أن ترى هدايتي لك بفضلي ، لا أن ترى عملك. وأن ترى عفوي لا أن ترى علمك. ردّ علي علمك وعملك آخذه بيدي وأزيد فيه بكرمي.

(٧) يا عبد كن لي في كل حال أرسل عليك يوم الروع علامة تثبتك فلا تروعك الأرواح ولا تفزعك الأفزاع ...

(٨) الواقف بين يدي يداه فوق متون السماء والأرض ، وفوق الجنة والنار ، لا يلتفت إلى كل هذا فأنا حسبه.

(٩) يا عبد لا تطمئن إلى سواي ، ثم تعود فتقبل علي أرددك إليه !!

(١٠) علم يدل علي هو السبيل إليّ. علم لا يدل علي هو الحجاب الفاتن !!

(١١) يا عبد كل شيء لي فلا تنازعي مالي ...

(١٢) يا عبد خلقت لك الأشياء كلها وأنا خير لك من كل شيء لأني صاحب الفضل ، فولّ الأشياء ظهرك وولّني وجهك ...

(١٣) يا عبد إذا قمت إلى الصلاة فأجعل الدنيا كلها تحت قدميك ...

ثم ان الايمان الإسلامي يعكس قضية تأسيسية من أكثر القضايا خطورة في هذا الدين ... إذ عليها سيقدّر للمشروع السياسي أن يقوم ... للتشريع الذي سيجيب على مطالب الناس في شتى مناحي الحياة ... الدولة التي ستأخذ على عاتقها مهمة تلقّي التشريع ، وتنفيذه ، وحمايته من التآكل والعدوان ... إذ كيف سيتقبل المسلمون الالتزامات الصعبة التي تصل بهم إلى الاستشهاد في سبيل الله ... إن لم تكن قدر أرسيت في نفوسهم مفاهيم الايمان التي تجعلهم يسلّمون أمرهم لله ، فينفذون كل ما يأمرهم به ويطلبه منهم جلّ في علاه ؟

من أجل ذلك سهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) السنين الطوال ... بل إنه أمضى العصر المكي كلّه مؤكداً على (العقيدة) و(الإيمان) في نفوس أصحابه الذين سيقدّر لهم أن يقيموا بنيان الدولة ، ويتلقوا تشريعاتها من السماء ... ومن أجل ذلك جاءت سور العصر المكي مؤكدة هذا التوجّه ، مؤسسة لقواعد الايمان في عقول ووجدان الصحابة الكرام (رضي الله عنهم).

أيها الأخوة الأحبة :

إن المرتكز الأساس للإيمان الإسلامي هو التوحيد الذي ما بلغت المذاهب والأديان الأخرى عشر معشاره ... إنه الجوهرة الثمينة التي أهداها هذا الدين للمنتمين إليه ... التوحيد المطلق لذات الله الواحد الأحد ، ولصفاته وأفعاله .. لأسماء الله الحسنى التي أريد للإنسان التحقق بالنسبة الموازية منها لحجم دوره في العالم ... التوحيد الذي يمثل انقلاباً شاملاً ، وواحدة من أوسع النقلات وأعمقها وأشدها تأثيراً في الوجدان البشري بمجرد مقارنتها بما كان يشهده العالم القديم : اليونان والرومان والمصريين والهنود ، والفرس والعرب واليهود والنصارى ... الخ ... من شرك كان يأخذ على أيديهم ألف صيغة وصيغة ، تبدأ بعبادة الأحجار والأشجار ، والكواكب والنجوم ... وتمضي لعبادة الطواغيت والأرباب ...

التوحيد الذي يحرّر المسلم من الخضوع والانحناء للصنميات ، والربوبيات الزائفة ، والزعامات الطاغية ... من ضرورات الكتلة ، وشدّ المطالب الجسدية ... من حتميات الاقتصاد والتكاثر والجنس والنزوع الشوفيني والعقل الجمعي ... من الظنون والمصالح والأهواء ... ويدفعه لأداء دوره الحضاري الفاعل ، خفيفاً ، متجرداً ، رشيقاً ... لا يثقله شيء في هذه الدنيا ... حتى أحزان الموت والتآكل والفناء ...

تتمحور ايمانية الحضارة الإسلامية ، كما هو شأن كل ممارسة إسلامية عند (التوحيد) وتنطلق منه ، منداحة دائرتها باستمرار لكي تغطي كل مفردة في حياة المسلمين المعرفية والسلوكية على السواء ... إنه نقطة الجذب والإشعاع معاً ... القلب الذي يعطي ويأخذ ، يضخ ويتلقى ...

بما أن التوحيد الذي ينبثق عن الشهادة التأسيسية الكبرى **(لا إله إلا الله)** هو المرتكز والهدف ، فانه سيدخل منذ اللحظة الأولى في الزمن ، وسيمتد في المكان إلى كل جزئية من جزئيات النشاط الحضاري لكي يطبعه بهذا التقابل المؤثر الفعال مع الله الواحد جلّ في علاه ، ويصبغه بكلمة الله التي يأخذ عنها المسلم منهاج العمل ، ويتوجه إليها في الصيرورة والمصير.

ولسوف تتأكد هذه الخصيصة المحورية لدى مقارنة الحضارة الإسلامية بأية حضارة أخرى ، دينية محرّفة أو وضعية. اننا هنا بإزاء عودة إلى الجذور إلى الحقيقة الكبرى في أقصى درجات وضوحها وفاعليتها وتألقها ... إن الحضارة الإسلامية سيقدّر لها أن تمنح الفعل البشري وهو يعمل ، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصيلة خليفة في هذا العالم ، مستعمراً فيه ...

في التاريخ ، في الجغرافيا ، في النفس ، في المجتمع ، في الفلك ، في الطب ، في الهندسة ، يعبّر التوحيد الإسلامي عن نفسه ... في المعادلات الكيميائية والجيولوجية واللوغاريتمات ... في المنائر الواثقة المتفردة الصاعدة إلى السماء ، وفي القباب المتكورة على الخشوع والتسليم ... في كلمات الشعراء ولمسات المعماريين يتجلى التوحيد كما لم يتجلّ في أية معرفة أخرى.

لقد منح التوحيد نشاطنا الحضاري عبر التاريخ وحدته المتماثلة وشخصيته المتفردة ... شدّ جزئياته وتفاريقه في أنساق واحدة تتجه خيوطها جميعاً صوب الهدف الواحد ، وتنبثق عنه ، لكي ما يلبث النسيج في نهاية الأمر أن يجيء معبراً بلسان الحال عن صنع يدي نسّاج واحد.

على مستوى الدافع يضع التوحيد العالم المسلم قبالة الله (سبحانه وتعالى) مسؤولاً عن قدراته التي أودعه الله إياها ساعياً لأن يستثمرها حتى حدودها القصوى ... على مستوى الهدف تصاغ معطيات هذا السعي المعرفي لكي تكون متوافقة مع كلمة الله ، متجاوزة ما وسعها الجهد أيما قدر من الثنائية أو الازدواج.

وفي كل الأحوال فان التوحيد يصير دافعاً لمزيد من العطاء ، ومعاملاً لوحدة هذا العطاء ومنحه سماته الأصيلة المتفردة.

في التوحيد يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهيمن المبدئ المعيد ، ويتحرر العالم المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان الأخرى ، فعرقلت انطلاقه الحرّ للكشف عن السنن والطاقات والنواميس ... إن التوحيد

يضع العالم المسلم حراً في مواجهة الكتلة ، فاعلاً مريداً ... يضعه فوق هذه الكتلة سيدا على الخلائق ، ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة ، للاستزادة منها ، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة ... والتقرّب أكثر إلى الله.

ودائماً كان التوحيد هو صمّام الأمان عبر تعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى ، فلا تأخذ في الأعم الأغلب ، إلاّ ما ينسجم وإياه ، ولا تمرر إلاّ ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية ... وها هنا أيضاً أعطى التوحيد الفرصة لهذه الحضارة بأن نتحقق أكثر بوحدتها وخصوصيتها ، سيما إذا تذكرنا أن الحضارات الأخرى ، كانت تنبض في ايقاعها ، في كثير من الأحيان ، أصوات الآلهة والصنميات والثنائيات والأضداد ... بإيجاز ، حيث لا تسمح محاضرة كهذه بالاستفاضة في موضوع يحتمل المزيد ، فان التوحيد كما يقول الدكتور إسماعيل الفاروقي (رحمه الله) " هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها ، هو الذي يربط بين أجزائها ، هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهرها ، فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها. قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد ، وذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى ، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية ... التوحيد هو الشهادة عن ايمان بأن **(لا إله إلا الله)** ، هذه الشهادة السلبية في مظهرها ، والمختصرة اختصاراً لا اختصار بعده ، تحمل اسمى المعاني واجلّها. فإذا أمكن التعبير عن حضارة برمتّها بكلمة واحدة ، إذا أمكن صبّ كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام – وهو أقصره طولاً وأكثره دلالة – كان هذا في **(لا إله إلا الله)** عنواناً للتوحيد وبالتالي للحضارة الإسلامية ".

وكما يقول غارودي ، القادم من نسيج حضارة الغرب التعددية : " **لا إله إلا الله** ، هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي " وهو يعرف جيداً ما الذين يعنيه هذا الإثبات على مستوى المستقبل ، وما الذي يعنيه ، بالمقابل ، على مستوى التاريخ ...

ينعكس التوحيد في معالجة هذا الدين للثنائيات التي تفرّقت بها السبل ولمّها الإسلام ... والتي اصطرعت وتقاتلت هناك ، وتوحّدت والتأمت في حضارة الإسلام ، مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...** ﴾(سورة البقرة ، (الآية ١٤٣) ... انها في بدء التحليل ونهايته " الوسطية " التي يتميز بها هذا الدين ، والتي يمكن أن تعتمد معياراً ومنهجاً نتعامل بموجبه مع سائر الظواهر والخبرات ... والوسطية هنا ليست موقعاً جغرافياً ، ولكنها موقف عقدي ، واستراتيجية عمل ،

ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم ... انها القدرة الدائمة على التحقّق بالتوازن ، وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال. ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس ، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور ، والذي تلتقي فيه سائر الثنائيات وتتصالح : الوحي والوجود ، الايمان والعقل ، الظاهر والباطن ، الحضور والغياب ، المادة والروح ، القدر والاختيار ، الضرورة والجمال ، الطبيعة وما وراءها ، التراب والحركة ، المنفعة والقيمة ، الفردية والجماعية ، العدل والحرية ، اليقين والتجريب ، الإشباع والتزّهد ، المتعة والانضباط ، الثبات والتطور ، الدنيا والآخرة ، الأرض والسماء ، الفناء والخلود ، الوحدة والتنوع.

وهي في تصالحها هذا تمنح الفاعلية الحضارية ديناميتها التي تمضي بها قدماً إلى الأمام ...

إن التوحيد هو هويتنا إلى العالم من أجل أن نكون بحجم التحدي ، قديرين على الاستجابة له وصياغة حضارة متميزة بين الحضارات ...

شكراً جزيلاً لإصغائكم ... وحضوركم ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

حول التصوّر الإسلامي للعمل

" محاضرة ألقيت في جامعة إفريقيا
العالمية في الخرطوم بالسودان
في شباط عام ١٩٩٣م وفي
مقر الحزب الإسلامي بالموصل
في صيف ٢٠٠٣م ".

أيها الحضور الكرام ... أيها الأخوة الأحبة ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

ها هنا أيضاً يتحتم أن نرفض مبدأ (إما هذا أو ذاك) ... إما المؤثرات الوراثية وإما مكونات البيئة والخبرة ، وأن نأخذ بمبدأ (هذا وذاك) ... الاثنين معاً إذا أردنا أن نضع أيدينا على عصب الدافعية للإنجاز ، الذي ينطوي بدرجة أو أخرى على الإبداع ...

ومن ناحية أخرى فان المسألة أو الظاهرة التي بين أيدينا ، ليست فردية صرفة ولكنها تنسحب بالضرورة على الجماعة فتأخذ – بالتالي – بعداً حضارياً ...

والحق أن المكون الأساسي لأية حضارة من الحضارات هو الإنجاز في امتداديه الأفقي والعمودي ، وفي بعديه النوعي والكمي.

إنك إذا أردت أن توقف حضارة ما عن العمل ... عن الصيرورة ... عن مواصلة التنامي ، فان عليك أن توقف (الإنجاز) حيث يبدأ الأمر بتناقص في الأداء ، وبالتالي بشلل في الفاعلية ، ومن ثم الضمور والتدهور والسقوط.

وكلما زاد عدد المبدعين من ذوي الإنجاز المتدفق كالسيل ، قدرت الحضارة على مواصلة صعودها المنحنى الصعب ، والعكس صحيح ...

ويجيء دور العقيدة بمثابة قدح للزناد ، وتحفيز على العمل والإنجاز ، باعتبارها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى.

وليس ثمة عقيدة في العالم ، وعبر التاريخ البشري ، ارتبط فيها الإنجاز بالايمان كعقيدة الإسلام ... فعبر جدلية العمل والايمان هذه تدفقت إنجازات الناس وقدرت في زمن قياسي على أن تنشئ وتنمّي حضارة متميزة ذات عطاء سخي ، قدّمت للبشرية الكثير الكثير ... ومن ثم لابدّ من وقفة قصيرة عند المنظور الإسلامي للإنجاز باعتباره عصب العبادة بمفهومها الشمولي الذي يتجاوز الطقوسية والشعائرية ويمضي لكي يبني الحياة بمفاصلها كافة كي تكون بيئة صالحة لعبادة الله ، والتوجّه إليه في المسير والمصير ، وتلقي كلماته ، أو شريعته التي يراد لها أن تقود الحياة.

نقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الشاملة للعمل : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة التوبة ، (الآية ١٠٥). ونستمع إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ينادينا : (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر) ... فنعرف جيداً كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي

الأولى وحتى ساعة الحساب !! ونعلم تماماً كيف أن الحياة الإسلامية انما هي فعل إبداعي مستمر.

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم على عين الله وتوجيهه ، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة ، فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً ، وهي كلها تشير – سلباً وإيجاباً – إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان – فرداً وجماعة – على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياساً عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو موقف ينسجم تماماً مع مبادئ (التسخير) و(الاستخلاف) و(الاستعمار) الأرضي التي طالما اكد عليها القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً انما جاءت لابتلاء بني آدم أيهم أحسن عملاً : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (سورة الملك ، (الآية ٢). كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين (الايمان والعمل الصالح) ... ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الإيجابي الفعال في قلب العالم : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة آل عمران ، (الآيتان ١٠٤-١٠٥). وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ... ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ١١٠).

إن الايمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة " معامل حضاري " يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ، ويوجهها في مسالكها الصحيحة ، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها ، فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقاً ، كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان ليبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، ويدفعه إلى سباق زمني موصول لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجّر طاقاته ، ويعبّر عن قدراته التي منحه الله إياها على طريق القيم التي يؤمن بها ، والأهداف التي يسعى لبلوغها ، فيما يعتبر جميعاً في نظر الإسلام ، عبادة

شاملة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، وتجيء مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات ، (الآية ٥٦).

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا السياق الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم ﴿ ... يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (سورة المؤمنون ، (الآية ٦١). وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة الزمن ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات ، ما تلبث ان ترتقي – بمقاييس الكم والنوع – بمجرد أن يتجاوز المسلم مرحلة الايمان إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا عنها القرآن الكريم في أماكن عديدة : (التقوى) و(الإحسان). وهكذا تجيء التجربة الايمانية لا لكي تمنح الحضارة وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها ، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار فحسب ، وانما لكي ترفدها بهذين البعدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ٨٣) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ٨٥). ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق تفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم ، ويعانون يقظة ضمائرهم ، ويسابقون الزمن في عطائهم ، لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر و ﴿ ... لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة القصص ، (الآية ٨٣).

والآن فان انبعاث أمتنا وعودتها إلى التاريخ مرة أخرى ، بعدما أصابها من انكسار حضاري ، يتطلب قدراً كبيراً من الجهد الذي سيكون محوره الأساس ودافعه الفاعل هو العمل والإنجاز.

لقد تفوّق الغربيون علينا بقدرتهم المدهشة على الإنجاز وآن لنا أن نتعلم منهم ، إذا أردنا أن يكون لنا مكان بين الأمم ومساحة في خرائط العالم.

اننا أيها الأخوة مغلوبون حضارياً ، ما في هذا شك ، والفارق بيننا وبين الغرب المتفوق يزداد بحسابات الكم والنوع ، سنة بعد أخرى وعقداً بعد عقد ... واللحاق بالخصم ، أو مقاربته في الأقل ، ليس بالأماني والأحلام ، وانما هو في جوهره جهد مكثف ، وإنجاز متواصل ، وسعي جاد يعرف كيف يتعامل مع الزمن وكيف يمزج الليل بالنهار !!

وما لم نتحقق بهذه الوتائر العالية من الإنجاز الذي ينطوي على الإحسان والاتقان والإبداع ، فان ألف سنة من التعبّد المنفصل عن الحياة ، المجرد عن الفاعلية والدفع والإنجاز ... ألف احتفال بهذه المناسبة أو تلك ...ألف ندوة أو محاضرة أو مؤتمر يعقد هنا أو هناك ، لن تتقدم بنا خطوة واحدة باتجاه تقليص المسافة بيننا وبين الخصوم : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ . . . ﴾ (سورة النساء ، (الآية ١٢٣) ، ﴿ . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ . . . ﴾ (سورة الرعد ، (الآية ١١).

إن أرنولد توينبي المؤرخ والفيلسوف البريطاني المعروف يتحدث في كتابه (دراسة في التاريخ) كيف أنه من بين ست وعشرين حضارة شهدها التاريخ البشري ، لم يتبق سوى سبع ، ست منها ، بما فيها الحضارة الإسلامية ، تدور اليوم في فلك الحضارة الغربية ، وقد تؤول في يوم ما إلى التفكك والتلاشي في نسيج هذه الحضارة الغالبة.

كيف نتجاوز هذا المصير ؟ ها هنا ونحن نتلقى التعاليم من ديننا وعقيدتنا ، وسيرة نبيّنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، يمكن أن نجد الجواب ، كما هو الحال بالنسبة لكل المعضلات الأخرى : انها الفاعلية والإنجاز.

لقد علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف يكون عمر الإنسان المحدود فرصة للإنجاز ... كيف يمزج الليل بالنهار ، وكيف يجعل من البضعة والعشرين عاماً التي أمضاها في دائرة النبوة مجالاً حيوياً لواحدة من أكثر التجارب البشرية في التاريخ فاعلية وعطاءً ... بل أكثرها على الاطلاق ...

إن مايكل هارث ، الباحث الأمريكي أمضى السنوات الطوال في تأليف كتابه (المائة الأوائل) بحثاً عن أكثر مائة شخصية عالمية تأثيراً في التاريخ ، أي فاعلية وإنجازاً ، وقد خلص من خلال اعتماده معياراً صارماً في انتقاء شخصياته يقوم على مقدار العمل والإنجاز ... ثم مضى خطوة أخرى لاختيار أعظمها على الاطلاق بالمعيار نفسه فما وجد غير شخصية الرسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فوضعه في قمة هؤلاء المائة ، ممثلاً المركز الأول دون منافس على الاطلاق !!

ذلك أنه إذا كان الآخرون قد حققوا إنجازاً كبيراً ، فانما كان ذلك محصوراً في جانب محدود من جوانب الحياة ، أما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد مضى لكي يجعل إنجازه يغطي مساحات الحياة جميعاً ، ديّنيها ودنيويها ، فيما لم يقدر عليه ولن يقدر إنسان ما في هذا العالم ...

أيها الأخوة الأحبة ... لا ريب أن الكثيرين منكم دخلوا بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم يقرأون السيرة أو يتدارسونها ، ووجدوا كيف أنه كان يخطف النومة واللقمة خطفاً ، لكي ما يلبث أن يستأنف جهده الموصول من أجل مزيد من التعبد والعطاء ...

ما الذي يمكن أن نقوله ونحن نجده يرفض أن ينام كما ينام الناس ... ويأكل ما يأكل الناس ؟ ما الذي يمكن أن نقوله ونحن نراه يتجاوز الفراش الوثير واللقمة الطيبة ، ويمرّ عليه الشهر والشهران فلا توقد في بيته نار لطعام ، كما تحدثنا زوجته البرّة عائشة (رضي الله عنها) ... سوى أنه ما كان يريد أن تأسره ملذّات الدنيا ، حتى في أدنى مستوياتها ، من أجل ان يظل متحرراً من الضرورات ، قديراً على مواصلة العمل والإنجاز حتى آخر لحظة ؟!

أليس هو القائل : (من تساوى يوماه فهو مغبون) ، وأنه لا يريد لواحد من اتباعه أن يظل يومين متتالين على ما هو عليه ... أن يتحرك ويتغيّر ، ويوظف عامل الزمن من أجل التحقق بالمزيد من الإنجاز ؟!

أليس هو الذي علمنا أن نواصل السعي في الأرض ... وبناءها ... وإعمارها ، حتى ونحن نستمع إلى نفير الصور : (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر) !!

العمل والانجاز ... حتى اللحظة الأخيرة ... وهما ليس فقط صدقات تدفع أو صلوات تؤدى ، ولكنهما كل فاعلية ... كل جهد يبتغي وجه الله وحده ...

ألم يحدثنا كتاب الله كيف أن الأرض والسماء سخرت بنواميسها ، وكنوزها ، وطاقاتها الظاهرة والمخبوءة لكي يتعامل معها الإنسان ، فيزيد الحياة رفاهية ، وتطوراً ، وعمراناً ؟ ألم تحدثنا آية كريمة في سورة الحديد ، ولننتبه إلى دلالة التسمية ، كيف أن الله سبحانه أنزل الحديد ليكون طاقة للبناء السلمي والإعداد العسكري على السواء ، أي لتنمية الحياة وحمايتها من التخريب والإفساد في الوقت نفسه : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحديد ، (الآية ٢٥).

ألم يصب القرآن سخطه على أولئك القاعدين المتثاقلين الكسالى ، ويتوعدهم بأشد العقاب : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ

الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة التوبة ، الآيتان ٣٨-٣٩).

ألا يكفي أن نتذكر كيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو يتهّيأ للرحيل عن الدنيا كان يجهز جيش أسامة بن زيد (رضي الله عنه) ويبعث به إلى فلسطين ؟ أتراه كان يريد أن يقول بأن على اتباعه أن يواصلوا المسيرة الصعبة دون أي توقف ، وبمواجهة كل التحديات ... وأنهم بدون ذاك لن يكونوا ... أو يكون لهم موطئ قدم في هذا العالم ؟

انكم تعرفون أيها الأخوة كيف يرتبط الايمان عبر النسيج القرآني كلّه بالعمل ... فالايمان وحده لا يكفي ... ولابدّ أن ينعكس في مفردات العمل ... ولقد كانت خطيئة (الارجائية) تكمن ها هنا : انها فكت الارتباط بين القطبين اللذين ربطهما كتاب الله ربطاً محكماً ... وبهذا جرّدت الايمان من فاعليته في الأرض ... من قدرته على التحقّق في واقع الحياة ، ومفردات السلوك ... وكانت إحدى السكاكين الحادّة التي ساهمت في ذبح فاعليتنا الحضارية ... ذلك أن الحضارات لا تشكلها الأماني والأحلام ، ولا يصنعها الايمان الذي لا يدفع إلى العمل الموصول ...

وأي عمل هذا هو المطلوب منا ؟ إنه ذلك الذي يتوخى الاحسان والاتقان فيما أمرنا به رسولنا (صلى الله عليه وسلم) : (ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) و(كتب الله الإحسان في كل شيء) ... في كل شيء على الاطلاق ... إن الغربيين يتفوقون علينا في جملة أمور ، إحداها أنهم إذا عملوا عملاً بذلوا في إنجازه جهداً مضاعفاً من أجل إخراجه بأقصى درجات الاتقان والإحسان ... ولهذا نهرع لدى مشترياتنا إلى بضائعهم ونتوجس خيفة من البضائع المصنوعة في الديار الإسلامية ، تلك التي لم يبذل فيها الجهد إلا في حدوده الدنيا ، فخرجت على الناس بأقصى درجات السوء في الشكل والمضمون ... فضلاً عن عطبها السريع ...

إن علينا أن نحسن توظيف الزمن باعتصار ساعاته حتى الثمالة ، أسوةً بما يفعله الغربيون ... بدلاً من هدره ... وربما قتله ، كما نسمع من العديد من الذاهبين باسترخاء إلى المقاهي في ديارنا عندما يسأل أحدهم : إلى أين أنت ذاهب ؟ فيجيب : إلى المقهى لقتل الوقت !! لكأننا خلقنا في حالة خصام مع الزمن ، نسعى دائماً إلى سحقه وقتله ، بدلاً من توظيفه بما ينفع الناس ، ويرفد الحضارة بالمزيد ...

لقد أريد لنا في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن نكون أمة من العدّائين ، تهرع إلى أهدافها ركضاً من أجل أن تسبق الآخرين وتحصد الميداليات الذهبية ...

ولكننا بمرور الوقت تناسينا مهمتنا هذه ، وملنا إلى القعود والكسل ، ورفضنا الذهاب اليومي للتدريب ، فانتهزها الخصوم فرصة لكي يسبقونا ويحصدوا هم ميداليات الفوز الكبير ...

وثمة مسألتان يجب أن نضعهما في الحسبان ونحن نتحدث عن التصور الإسلامي للعمل والإنجاز ... أولاهما أن حصاد العمل لا يقتصر على الحياة الدنيا ، وليس شرطاً أن يجنى فيها ... فهناك فيما وراء هذه الحياة المنصرمة الفانية ، حياة أخرى كتب لها البقاء والخلود ... وحساب عادل عما صنعته أيدي الناس في دنياهم ... حساب لا يغفل عن مثقال ذرة من خير أو شرّ ... ولسوف يكون الجزاء مقدّراً وفق ما قدّمه الإنسان من عمل في حياته الدنيا ... إن هذا التصوّر يحصّن أجيال الدعاة والعاملين ضد الإحباط ، واليأس ، والإحساس المرير باللاجدوى ... ذلك الذي ينتاب أولئك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... ولا يدينون بعقيدة تعدهم بحياة أخرى غير هذه الحياة ... إن عليهم أن يعملوا ، سواء قبضوا ثمن عملهم في الحياة أم لم يقبضوه ... فالمهم أنه مسحوب لهم ، مدخّر في حسابهم المفتوح عبر جدول الحسنات والسيئات ... حتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليه أن يسلّم بهذا وألا ينتظر نتيجة سعيه في هذه الحياة : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ... ﴾(سورة يونس ، (الآية ٤٦) ، ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾(سورة الرعد ، (الآية ٤٠) ، ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(سورة غافر ، (الآية ٧٧) ... إن عليه أن يمارس التبليغ ، وأن يبذل جهده في حدوده القصوى في هذا الميدان ، ويترك الباقي على الله ... فالدنيا في المنظور الإسلامي ليست هي الهدف النهائي من الخليقة ... انما هي مرحلة عابرة ... فرصة منصرمة للاختبار ، والحياة الحقيقية هي هناك : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة العنكبوت ، (الآية ٦٤).

وأما المسألة الأخرى فهي أن العمل الجاد هو الذي يحقق مبدأ تواصل الأجيال ويجعله أمراً واقعاً وحقيقة منظورة ، حيث يصير الجسر الذي تعبر عليه منجزات الآباء إلى الأبناء ، والأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة من أجل مواصلة الإنجاز ، وإلاّ فهو الانقطاع الذي يكسر العمود الفقري للفاعلية الحضارية ويقودها إلى الشلل والضمور.

إن دلالة الآية الكريمة : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ . . . ﴾(سورة آل عمران ، (الآية ١١٠) تختصر الأمر كلّه ... فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فضائهما الواسع وسمائهما الكبيرة هما فاعلية متواصلة لبناء الخير والإطاحة بالشرّ ... في ظلال الايمان وثوابته وتعاليمه ... وإلاّ فهو الخسران المبين.

نكون أو لا نكون ... تلك هي القضية ... كما يحدثنا أحد أبطال مسرحية (هاملت) لشكسبير ... وقضيتنا اليوم إزاء التحديات الحضارية الراهنة تتمركز في العمل الموصول بمواصفاته التي أشرنا عليها بإيجاز في محاضرتنا هذه ... وليس ثمة حد وسط بين الطرفين ... فاما أن نكون ... أو لا نكون ... وذلك لا قدّر الله هو الخسران المبين ...

فلنكف إذن عن التباكي على حظوظنا وتخلفنا ... لنكف عن تعليق أخطائنا وهزائمنا على مشاجب الآخرين ولنتذكر كيف أن المسلمين الروّاد من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هزموا في أحد وتساءلوا : لماذا ؟ كان جواب القرآن قاطعاً حاسماً لا ريب فيه : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ١٦٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

قراءة في الكتابين المسطور والمنظور

" محاضرة ألقيت في افتتاح جمعية الآداب بالموصل في أيلول عام ١٩٩٤م ، وفي الموسم الثقافي لجامع أحمد الاسماعيل بالموصل في كانون الثاني عام ١٩٩٩م، وفي الموسم الثقافي لجامع ذياب العراقي بالموصل في كانون الثاني عام ١٩٩٩م، وفي الموسم الثقافي لكلية علوم الحاسبات بجامعة الموصل في مايس ٢٠٠٤ م ".

أيها الشيوخ والأساتذة الكرام ... أبنائي الأحبة ... الأخوات الفاضلات ...
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته ...

ونحن نعيش ذكرى إنزال القرآن الكريم في الوتر من العشر الأواخر من هذا الشهر الكريم ، يمكننا أن نتحدث في أشد المواضيع إلحاحاً : طبيعة العلاقة بين كتابي الله سبحانه وتعالى المسطور والمنظور ... القرآن والكون ... الوحي والوجود ... ما الذي حدث في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ البشرية ؟

كانت الكلمة الأولى في غار حراء هي **(اقرأ)** ، وكان محمد أمياً لا يحسن القراءة في المسطور ، رغم أن المطلوب قراءة صحيفة من الديباج ... فلعلها القراءة في الكتاب المنظور ... معجزة خلق الإنسان من علق وتمكينه من المعرفة التي تلّم بخصائص الأشياء ... ذلك أن القراءتين تقودان إلى الله **!!**

كان (عليه الصلاة والسلام) قد بدأ رحلة القراءة في الكتاب المنظور منذ شهور ... وقد توّج تحنثّه ليلة الوحي بكلمة **(اقرأ)** التي هي أساس الفاعلية الحضارية في كل زمن ومكان ...

بعدها وعلى مدى بضعة وعشرين عاماً من التنزيل منح القرآن مساحات واسعة للحقائق الكونية والإنسانية باعتبارها أشد صيغ الخطاب القرآني تأثيراً في العقل والوجدان ...

لابدّ من التذكير ها هنا إلى أن المساحات الأوسع في القرآن محّضت لاتجاهات ثلاثة : الكون (أي المكان) ، التاريخ (أي الزمان) ، والآخرة (أي المصير) ... ولقد تحقق في عصر التنزيل التحام مدهش ما شهده دين من الأديان ، أو عقيدة من العقائد ، بين الكتابين المسطور والمنظور ... القرآن والكون ...

وكان الجسر الذي يربط بين القطبين هو العلم والمعرفة بآلياتهما الحسّية والعقلية ، من أجل إدراك أعمق لمعطيات الكتابين ، والتحقق من ثم بإيمان أشد عمقاً وتأثيراً ...

وهكذا ، وعبر معادلة فريدة من نوعها وضع القرآن الكريم الإنسان قبالة بانوراما الطبيعة والكون والحياة ، وقال له : اقرأ لكي تعرفني ، وتشهد بوحدانيتي ، أنا الخالق المبدع القادر الذي **لا إله إلا هو** ... ونحن نقرأ في كتاب الله نجد أنفسنا قبالة الشمس والقمر ، الليل والنهار ، البحار والأنهار ، الكواكب والنجوم ، الأرض والسماء ... الأجنة وهي تتخلّق في الأرحام ... وعوالم الحيوان والنبات ... نجد أنفسنا بإزاء منظومة خصبة من الحقائق العلمية عن الكتاب المنظور ...

ولقد كان الخطاب القرآني يعتمد اثنتين لتحقيق هدفه هذا ... اولاهما معاينة إبداعية الله المعجزة في الكون والخليقة من خلال إدراك دقة الصنع وإحكامه : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (سورة الملك ، (الآيتان ٣-٤) ، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة ياسين ، (الآيات ٣٨-٤٠) ، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ۞ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً ۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ (سورة النبأ ، (الآيات ٦-١٦) ، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ۞ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ۞ وَعِنَباً وَقَضْباً ۞ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ۞ وَحَدَائِقَ غُلْباً ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ۞ مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (سورة عبس ، (الآيات ٢٤-٣٢) ، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (سورة الغاشية ، (الآيات ١٧-٢٠) ، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل ، (الآية ٨٨) ، ﴿وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۞ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۞ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (سورة الطارق ، (الآيات ١-٧) ، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۞ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ (سورة الانشقاق ، (الآيات ١٦-١٩) ، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (سورة التكوير ، (الآيات ١٥-١٨).

دعونا نقدّم بعض الإحصائيات لمفردات من الكتاب المنظور وردت في شقيقه الكتاب المسطور : الأرض ٤٦٢ مرة ، السماء ٣١١ مرة ، الليل والنهار ١٤٩ مرة ، الأنهار والبحار ٩٥ مرة ، الشمس والقمر ٦٠ مرة ، الجبال ٤٠ مرة.

ودعونا نتأمل الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (سورة القمر ، (الآية ٤٩) ونحيلها على التوازنات الكونية المحكمة ... فلو كانت الشمس – على سبيل المثال – أبعد قليلاً عن كرتنا الأرضية لتجمدت الحياة ، ولو كانت أقرب قليلاً لاحترقت الحياة ... لو كانت الجاذبية أخف قليلاً لسبحنا في الهواء ولما قدرنا على أداء دورنا الحضاري فيها ، ولو كانت أثقل قليلاً لجعلت حركتنا بطيئة بطيئة ولعرقلة مهمتنا في العالم. لو كانت مكونات الغلاف الغازي أقل أو أكثر لما استمرت الحياة على الأرض أكثر من دقائق معدودات ...

أما ظاهرة الإمطار المدهشة التي يدعونا القرآن إلى التأمل فيها في أكثر من ثلاثمائة آية ، فهي تنبني على ثمانية موافقات يعقب بعضها بعضاً ، فيما يغيب معه مفهوم الصدفة ، ويتأكد رياضياً وفيزيائياً مفهوم الغائية ، بما لا يقبل مجالاً للشك على الاطلاق في وجود إرادة فوقية عليا تسوق الحالات الثمانية بتوافق وتكامل مدهشين ، من أجل إيصال القطرة العذبة إلى أفواه الإنسان والضرع والزرع واستمرار الحياة على الأرض : التخزين ، التسكين ، التمليح ، التبخير ، التوزيع ، التلقيح ، الإنزال ، التوزيع العادل للماء النازل من السماء وفق ثلاث حالات كي لا يذهب هدراً ... فيما لا يتسع المجال للدخول عبر محاضرة كهذه في تفاصيله ، ولعله يكون مجالاً لمحاضرة مستقلة عن معجزة الإمطار.

أما الأسلوب الثاني لكتاب الله في التعامل مع الكتاب المنظور ، فهو معاينة الإعجاز القرآني نفسه من خلال تطابقه المدهش مع الحقائق الكونية والحيوية التي سيقدّر للعلم ، بعد قرون وقرون ، من كشف النقاب عن جانب منها مصداقاً للآيتين الكريمتين : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت ، (الآية ٥٣) ، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾ (سورة يونس ، (الآية ٣٩).

وإليكم بعض الشواهد : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (سورة الواقعة ، (الآيتان ٧٥-٧٦) حول الأبعاد المذهلة لمواقع النجوم والسدم والمجرات بحسابات السنين الضوئية ، والتي لم يكشف النقاب عنها إلا عبر العصور الأخيرة : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ

﴿ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۞ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ۞ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ۞ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (سورة المعارج ، (الآيات ٤-٧) حول نسبية الزمن والفارق الهائل بين زمننا الأرضي والزمن الكوني ، فيما كشف عنه النقاب عالم الفيزياء المعروف اينشتاين في عشرينيات القرن الماضي. والخمسون ألف سنة تساوي ١٨.٢٥٠.٠٠٠ يوماً أرضياً !! ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾(سورة المؤمنون ، (الآية ١٨) ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾(سورة الملك ، (الآية ٣٠) ، ﴿ . . . فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾(سورة الحجر ، (الآية ٢٢) حول تخزين المياه الجوفية في الأرض للإفادة منها في إدامة حياة الإنسان وزرعه وضرعه ، حيث تم أخيراً اكتشاف جدار ثالث للمخازن المائية داخل الأرض غير مسامي لا تنفذ منه قطرة واحدة من ماء !! ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ (سورة النازعات ، (الآيتين ٣٠-٣١) حول كروية الأرض التي قيل بأن ماجلان هو الذي أكدها باكتشافه الجغرافي المعروف ... ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(سورة الأنبياء ، (الآية ٣٠) حول الانفجار الكوني العظيم الـ Big Bang في بدايات الخلق ، والذي أكدته أحدث الكشوف الكوزمولوجية ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(سورة الذاريات ، (الآية ٤٧) والتي أكدتها بحوث اينشتاين الذي أطلق عليها نظرية الكون المتمدّد أو المتّسع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . . ﴾(سورة الحج ، (الآية ٥) حول بناء الجنين في رحم الأم بنوعين من الأنسجة بعضها يحمل في جيناته صفات وخصائص الكائن الجديد ، وبعضها الآخر محيّد لا يحمل أية صفة وانما يعتمد لأغراض البناء فقط ، فيما لم يكتشف إلا على يد عالم الحياة المعروف (مندل) عبر العصور الأخيرة. ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً . . . ﴾(سورة الأنعام ، (الآية ٩٩) حول التمثيل الكلوروفيلي الذي يشكل البذور والأثمار ، والذي تشترك فيه المادة البنائية الخضراء وثاني أوكسيد الكاربون وأشعة الشمس ...

ولنتمعن في الآية المذكورة كيف وردت كلمة (الخضر) قبل الحب المتراكب ؟ لأنه بدونها لن يكون هناك حب ولا ثمر ... ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النمل ، (الآية ٨٨) حول المنظور الفوقي لرؤية الطائر View of Bird التي ترى الجبال في انسيابية حركتها مع حركة الكرة الأرضية التي تدور حول نفسها. ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت ، الآية ٤١) حول الدمار الأسري للعائلة العنكبوتية التي تأكل فيها الإناث ذكورها. ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل ، (الآيتان ٦٨-٦٩) حول مئات البحوث والمؤلفات والموسوعات العلمية بخصوص فوائد عسل النحل وتدرّج أصنافه بين عسل الجبال ، والغابات ، والحدائق المحلية ، فيما لم يكتشف إلا في العصور الأخيرة. ﴿ وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ (سورة الطارق ، (الآيات ١-٣) حول الاكتشاف الأخير في عام (٢٠٠٧م) بخصوص وجود نجوم طوارق تسبح في الكون وتثقب كل ما يمرّ بها من أجرام. ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ (سورة التكوير ، (الآيتان ١٥-١٦) حول الكشف الآخر في عام (٢٠٠٧م) بخصوص النجوم الكوانس التي تسبح في الكون بهدوء وتكنس كل ما يمرّ بها من أجرام.

وهناك غير هذه عشرات الشواهد القرآنية ومئاتها ، مما لم يتأكد مغزاها الحقيقي إلاّ عبر كشوف القرنين الأخيرين.

ألا يقودنا هذا إلى قيمة النشاط العلمي والمعرفي كجسر يربط بين الكتابين المسطور والمنظور ؟ إن كتاب الله يبدأ منذ الكلمة الأولى بفعل معرفي : **(اقرأ)** ... بل إن هذا الفعل يمتد إلى لحظة خلق آدم عندما علّم الأسماء كلها ، أي مفاتيح التعامل المعرفي مع الظواهر والأشياء : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلآئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ

أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سورة البقرة ، (الآيات ٣١-٣٣) ... بعدها دعانا كتاب الله إلى الالتحام بالكتاب المنظور من أجل اكتشاف سرّ الأشياء ، والتنقيب عن السنن والنواميس ، والتعرّف على قوانين الكتلة ، واختراق فيزياء العالم الذي سخرّ للإنسان ابتداء من أجل تنفيذ مهمته الاستخلافية العمرانية في الأرض.

سيل جارف من المفردات التي يرفعها الخطاب القرآني في مواجهة العقل البشري لكي يتحرك ويشتغل ويمضي بالحضارة قدماً إلى الأمام : اسمعوا ، انظروا ، ابصروا ، سيروا ، تفكروا ، تدبّروا ، تفقهوا ، اعلموا ...

إن كلمة العلم بمشتقاتها العديدة ، ترد في كتاب الله سبحانه وتعالى سبعمائة وخمسين مرة ، جنباً إلى جنب مع الدعوة الملّحة لاعتماد العقل والحواس في التعامل مع الظواهر والأشياء : ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (سورة الإسراء ، (الآية ٣٦) ... واعتماد المنهج والبرهان والدليل العلمي : ﴿ . . . قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(سورة البقرة ، (الآية ١١١) قبالة حملة متواصلة على الخرافات والأساطير والظنون والأهواء : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾(سورة النجم ، (الآية ٢٣).

والقرآن الكريم يعلنها صراحة : ﴿ . . . إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء . . . ﴾(سورة فاطر ، (الآية ٢٨) وهو بصدد الدعوة للنظر في إبداعية الخلق الإلهي في عالم الطبيعة والإنسان كي لا يتصور أحد أن الذين يخشون ربهم هم فقط علماء الإسلاميات !!

إننا نتذكر هنا الفارق الكبير بين موقف الكنيسة وموقف الإسلام من العلم ... ففي الكنيسة كان العلماء الذين يكتشفون حقيقة جديدة في الكون يساقون إلى التعذيب ، والامتهان ، والمحاكمات الطويلة ، ثم الحرق في نهاية الأمر ، كالذي تمّ بالنسبة لعلماء كبار كغاليليه وكوبرنيكوس وبرونو وغيرهم ، لا لشيء إلاّ لأنهم كشفوا عن جانب من بنية الكون تخالف ما ذهبت إليه الأناجيل المحرّفة. أما في الإسلام فكان الكشف ، والنشاط العلمي عموماً فرصة مؤكدة للتقرّب أكثر من الله سبحانه وتعالى ، وتعزيز مفاهيم الايمان بسبب من التطابق المدهش

بين أي كشف علمي أو معرفي وبين معطيات القرآن. وكما يقول الباحث الإنكليزي المعاصر (روم لاندو) في كتابه (العرب والإسلام) : " في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر – كما حصل في الغرب على أيدي الكنيسة – ويتخذ طريقاً معاكسة. لا. والواقع أن الأوّل كان باعثاً من البواعث الرئيسية للثاني ... إن الحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفقوا ، طوال خمسة قرون كاملة ، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه ، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وانجاح لا عامل تعويق وإحباط ".

فمن هم العلميون في هذا العالم ؟ نحن أم هم ؟

بل إننا نجد في الكتاب المسطور سورة بكاملها تحمل اسم (القلم) وأخرى تحمل اسم الحديد ، وتنتهي في مقاطعها الأخيرة بهذه الآية : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(سورة الحديد ، (الآية ٢٥) ... فهي إذن الدعوة المؤكدة لضرورة الالتحام بالأرض ... بفيزياء العالم ... بالكتلة ، لاكتشاف سننها ونواميسها ، وتوظيف طاقاتها لشيئين : الحرب والسلم ... فبالأولى سنعرف كيف ندافع عن وجودنا ومقدّراتنا ضد القوى التي تريد تدميرنا ... وفي الثانية سنوظف خام الحديد للأغراض الخدمية التي تيّسر الحياة وتمضي بها قدماً نحو الأمام ... وعندما يقول القرآن الحديد ن فانه يقصد كل خامات الأرض ، بما في ذلك النفط ، تلك الطاقة المهدورة ، التي لم نعرف كيف نكتشفها ونستثمرها ، وتركنا للخصوم فرصة الكشف والاستثمار فسامونا بها سوء العذاب.

إن هذه الآية الكريمة تؤكد أن الموازين العادلة التي جاءت بها الأديان السماوية ، وخاتمها الإسلام ، لكي تحكم بها العالم ، لن يمكن لها في الأرض ، ويحميها من التآكل والابتزاز ، إلا اليد المؤمنة القديرة التي تعرف كيف تستخرج الحديد وتوظفه ، ولهذا تنتهي هذه الآية باثنتين من صفات الله (سبحانه وتعالى) : القوة والعزة اللتين لن نتحقق بهما ، نحن المستخلفون في الأرض ، بالنسبة المطلوبة ، إلا بالكشف عن السنن والنواميس.

إن كتاب الله المسطور يؤكد على أن بنية الكون تقوم على طبقتين من الأداء الذي يؤكد الحضور الإلهي الفاعل فيهما : وهما الكينونة والصيرورة.

فالله جلّ في علاه لا يكتفي بأن يقول للأشياء والموجودات كوني فتكون ... ثم وحاشاه ، وكما تدّعي بعض النظريات الغربية البائدة ، يسحب يده بعد ذلك ، ولكنه يمضي جلّ جلاله لكي

يحوّلها ويصيّرها من حال إلى حال. فهو في الأولى يقول : ﴿ . . . فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (سورة فصلت ، (الآيتان ١١-١٢) ، وهو في الثانية يؤكد فعل الصيرورة والحركة والتغيير : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾(سورة النمل ، (الآية ٨٨) ، ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(سورة الذاريات ، (الآية ٤٧) ، ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (سورة ياسين ، (الآيات ٣٨-٤٠) ، ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(سورة الأنبياء ، الآية ١٠٤).

ولن يتأتى إدراك هذا البعد الكوني في الخلق إلاّ بالعلم والمعرفة والقدرة المتواصلة على الكشف والابتكار ... ليس هذا فحسب ، بل إن المثلث القرآني المعروف : التسخير ، الاستخلاف ، والاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية) ﴿ . . . هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾(سورة هود ، (الآية ٦١) لن يعمل عمله ، ويؤتي ثماره إلا بالعلم والمعرفة ... وإلاّ فكيف يكون توظيف العالم المسخّر لنا ابتداء ، وكيف يكون استخلافنا العمراني – الحضاري عليه ، وكيف تكون شهادتنا على مسير البشرية ومصيرها ، وكيف يكون إعمار العالم وجعله البيئة المناسبة لعبادة الله ، حيث يتحرر الإنسان من العوائق ، وقوى الشدّ ، ويتجرد للهدف الأساس من خلقه : وهو عبادة الله ، ليس بالمفهوم الشعائري الطقوسي ، كما هو الحال في الأديان المحرفة الأخرى ، وانما بالمفهوم الحضاري حيث يصير كل فعل وإنجاز عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ...

عندما التزم الأجداد بهذه المفاهيم كلها قدروا على إبداع حضارتهم المتألقة ، التي احتلت الحركة العلمية والمعرفية في نسيجها مكاناً كبيراً ، فأصبحوا على مدى قرون من الزمن سادة العالم ومعلميه الكبار ... ومنهم اقتبست أوربا الغارقة في الظلمات الكثير الكثير ... بما في ذلك منهج البحث الحسّي التجريبي الذي كان الأساس في بناء حضارتها الغربية الراهنة ، والتي

يعترف كبار مؤرخيها ، من مثل الدومييلي الفرنسي وجورج سارتون الأمريكي بأنهم أخذوه عن حضارة الإسلام.

لقد تفوّق الأجداد عندما قرأوا شفرة العلاقة الحميمية بين الكتابين المسطور والمنظور ، والتحموا بمطالب الخطاب القرآني الذي حتّم عليهم أن يكونوا أمة من العلماء ... لكنهم عندما تجاوزوا التعامل مع فيزياء العالم ، مع (الفيزيقا) وعبروها للتعامل مع وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) وقعوا في الخطأ ، وإن ظلت فئات منهم تعمل في قلب الطبيعة ... ولكن وبمرور الزمن بدأت الأيدي ترتخي عن الإمساك بالكتلة والتعامل معها ... الأمر الذي أتاح للخصوم أن يأخذوا زمام المبادرة في العالم ... فكان هذا الذي كان والذي لا زلنا نتجرع مراراته حتى اللحظات الراهنة ... والقرآن الكريم يقولها بصراحة : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾(سورة الإسراء ، (الآية ٢٠). فالذي يملك الدنيا هو الأكثر شطارة ، والأشد قدرة على إدراك دور العلم في الكشف عن سننها وطاقاتها المذخورة ... وليس الأكثر إيماناً بحال من الأحوال !!

بعد هذا كله هل ثمة ما يمنع من الإفادة من الكشوف العلمية الحديثة لتحقيق مقاربة ، ولا أقول مطابقة ، للمعطى القرآني عن الكون ؟ للمسطور عن المنظور ؟

العلمانيون يقولون : نعم ، ثمة ما يمنع ، من حيث أن القرآن كتاب مقدّس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكيف نحكم فيه العلم المترع بالمتغيرات التي يلغي بعضها بعضاً ، ويبدّل في نسبها وحقائقها النسبية ... كيف نحكم النسبي بالمطلق ؟

وهي إذا أردنا الصواب كلمة حق يراد بها باطل ... ذلك أن مهمة العلماني في عالمنا هو أن يبعد الإسلام ، وكتابه العظيم عن أية مداخلة في شؤون الحياة ، فيقول بأن الدين لا علاقة له بالسياسة ، باعتبارها أداة مكيافيلية لا أخلاقية لا تنسجم ومقدسات الدين ... ويقول بأن الدين لا علاقة له بالاقتصاد لأن هذا الأخير يقوم على أساس ربوي يرفضه الدين ... ويقول بأن الدين لا علاقة له بالعلم ... وهكذا تسحب يد الدين – بخبث – حتى يضطر أخيراً إلى أن يتحول إلى دين طقوسي وشعائري وينحصر في أروقة المساجد وباحات الزوايا والتكايا ، وتترك الساحة للعلمانيين يصولون فيها ويجولون !!

إنها لعبة مكشوفة بكل تأكيد ، فلنضرب بها عرض الحائط ، ولنشح عنها صفحاً ، لمواصلة حديثنا عن العلاقة الحميمية بين الكتابين المسطور والمنظور ... وعن الجسر الذي يربط بينهما ... وهو العلم ...

صحيح أن العلم ليس يقينياً ، وانما هو – فيما كشفت عنه البحوث الكوزمولوجية والفيزيائية والرياضية الأكثر حداثة – مسألة احتمالية ، وأنه يتعامل مع تأثير الظواهر ولا يدرك الكنه والماهية ، لكنه يقرّبنا كآلية توصيل أو علم مساعد ، يعين مفسّري القرآن على عملهم ، ويحقق التواصل بين الكتابين المسطور والمنظور.

ليس هذا فحسب بل إن العلم الفيزيائي والكوزمولوجي أعلنا ، منذ كشوف اينشتاين وهايزنبرغ وبور رفضهم للمنطوق الإلحادي للعلم ، ذلك الذي دعمه في فترة سابقة كل من دارون في نظريتي (النشوء والارتقاء) و (الاصطفاء الطبيعي) ، وماركس وانغلز في ماديتيهما الديالكتيكية والتاريخية ، وفرويد في نظرية التحليل النفسي ، والتي جاءت الكشوف الأكثر حداثة لكي تخلخل بنيانها ، وتخرجها من دائرة التسليم المطلق ، بتأكيدها على مفاهيم الغائية ، والجمالية ، والاحتمالية ، التي وجهت ضربات قاصمة للصنميات الإلحادية ، ثم جاءت فلسفة العلم لكي تمضي قدماً باتجاه التصالح بين العلم والدين ، وإعادة العلم إلى حظيرة الايمان ... وها هو الكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول) وأغروس وستانسيو في (العلم في منظوره الجديد) ، وسوليفان في (حدود العلم) و(طبيعة العقل) و(قيمة العلم) و(الكون المتسع) يؤكدون هذا التوجّه الجديد للعلم ، ويوجهون ضرباتهم القاسية لرؤيته الإلحادية التي لم تقم على أساس سليم من المعطيات العلمية والاستقراء المحكم ... حيث يخلص سوليفان إلى القول : " إنه ليس في نظريات علم النفس كافة شيء من شأنه أن يغيّر جدياً من قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن ، وللمعارف الأخرى أيضاً ، مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك ، بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية. والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي ، أما مقولاته في المواضيع الأخرى فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلجلجة ". وهي النتيجة نفسها التي ينتهي إليها (الكسيس كاريل) في (الإنسان ذلك المجهول) : ان السيطرة على عينة من العالم المادي لغرض فهمها ممكنة إلى حدّ ما ، أما السيطرة على عينة يدخل فيها الإنسان ، والعقل ، والحياة ، طرفا ، فتكاد تكون مستحيلة ، والنتيجة التي نصل إليها في هذا المجال " ضعيفة ومتجلجلة ".

لقد حاول العالم البريطاني الشهير السير فريد هويل ، يعاونه بروفيسور هندي ، في جامعة كارديف في بريطانيا في بداية ثمانينيات القرن الماضي اختبار امكان تخليق الحياة من الوحل الأولى Primeval Soup بعيداً عن أية مداخلة فوقية ، فيما اسمياه التخلّق من الفضاء Evolution From Space وبعد سنوات طوال من البحث والمعاناة أعلنا عجزهما عن تحقيق المطلوب ، وانهيا كتابهما – رغم رؤيتهما الإلحادية – بفصل يحمل عنوان (الله : God) باعتباره جلّ جلاله هو الحلّ لهذه المعضلة العسيرة. وبموازاة هذا بذل علماء الأحياء في الاتحاد

السوفياتي ، بتوجيه من الدولة ، جهوداً متواصلة على مدى خمسين عاماً لتحقيق الهدف نفسه : نخلّق الحياة بعيداً عن إرادة فوقية ، أو قصدية مسبقة ، ولكنهم هم الآخرون أعلنوا عن عجزهم وكفوا عن المحاولة.

ومنذ منتصف القرن الماضي صدرت جملة من الكتب التي أكدت هذه العودة المنتظرة للعلم إلى حظيرة الايمان ، من مثل كتاب (العلم يدعو للإيمان) لكريسي موريسون ، وكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي أشرف على تحريره العالم الأمريكي (هوتسما) وهو ينطوي على بضعة وثلاثين بحثاً لكبار العلماء الذين حصل بعضهم على جائزة نوبل في ميدان تخصصه في علوم الطبيعة ، أو الحياة ، أو الإنسان ، أو الجغرافيا ... الخ ... والكتاب القيّم الذي يحمل عنوان (عقائد المفكرين في القرن العشرين) للعقاد (رحمه الله) ... ثم جاء جيل من الباحثين من الدائرة الإسلامية لكي يرفدوا هذا التوجّه بمؤلفاتهم وبحوثهم القيمة ، نذكر منهم – على سبيل المثال لا الحصر – الدكتور عبد الرزاق نوفل ، والدكتور مصطفى محمود ، والدكتور عبد المجيد الزنداني ، والدكتور زغلول زغب النجار ، والدكتور أسامة الباز ، والدكتور خليل كنجو ، والمهندس عبد الدايم الكحيل ... وغيرهم كثيرون ...

دعونا أيها الأخوة نتابع الآن عدداً من الاستنتاجات المهمة بصدد ايمانية العلم الحديث وتهافت المنطوق الإلحادي العتيق.

تقول مقدمة كتاب (العلم في منظوره الجديد) لاغروس وستانسيو ، أن الكتاب يستعرض النظرة العلمية العتيقة التي انتهت إلى الإلحاد والاستهتار بكل القيم الأخلاقية والروحية ، وفسّرت السلوك تفسيراً غريزياً فسيولوجياً ، ثم ينتقل إلى النظرة التي ظهرت في مطلع القرن العشرين ، وهي نظرة علمية منافسة ، كان من ألمع روّادها اينشتاين وهايزنبرغ وبور وغيرهم ، وقد أجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية والكوزمولوجيا في هذا القرن على أن المادة ليست أزلية ، وأن الكون في تطوّر وتمدّد مستمرين ، فدعوا إلى الأيمان بعقل أزلي الوجود يدبر هذا الكون ويرعى شؤونه ...

ثم جاء جيل آخر من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب أمثال شرنغتون واكلس وسبري ، فخلصوا بعد بحوث مضنية إلى أن الإنسان مكوّن من عنصرين جوهريين : جسد فان وروح باقية لا ينالها الفناء ، وأن الإدراك والتفكير ليسا من صنع المادة بل يؤثران تأثيراً مباشراً في العمليات الفسيولوجية ذاتها.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ظهرت حركة جديدة في علم النفس اعترف روّادها بالعقل ، ورفضوا تفسير السلوك البشري بلغة الدوافع والغرائز الحيوانية ، وآمنوا – بدلاً من ذلك – بالقيم الأخلاقية والجمالية والجوانب الروحية والفكرية والنفسية.

ويقول سوليفان في (حدود العلم) : " ... لقد أصبح الآن واضحاً أن معرفة طبيعة الأجسام التي نتحدث عنها لم تعد مطلباً لازماً بالنسبة للفيزياء ، بل تكفي معرفة بنيتها الرياضية ، وهذا بحق هو كل معرفتنا حولها ... إن اقتناعنا بأننا نعرف هذه الأجسام بصورة قريبة ، ما هو إلاّ مجرد وهم ".

ونقرأ في كتاب (عقائد المفكرين في القرن العشرين) للعقاد : " إن العلماء التجريبيين عادوا إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا أن لها قانوناً واحداً هو الخطأ والاحتمال ".

ويؤكد الكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول) على أن العلم البشري إذا كان قد قطع في دراسته للكون مسافة واسعة ، فانه عجز في دراسته للإنسان عن تجاوز عتبة الواحد بالمائة !! " اننا بتعلمنا سرّ تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر البسيطة ، فيما عدا أنفسنا ... ان علم الكائنات الحية بصفة عامة ، والإنسان بصفة خاصة ، لم يصب مثل هذا التقدم ... انه لا يزال في المرحلة الوضعية ، فالإنسان كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد ".

ويعود سوليفان لكي يؤكد " أن دوافعنا الدينية لا يمكن أن يقنعها أي شيء اقل من الاعتقاد بأن للحياة مغزى خارقاً ، وهذا الاعتقاد هو بالضبط ما جعلته الفلسفة القديمة أمراً مستحيلاً. وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الأهمية الحقيقية للتغيرات التي حصلت في العلوم الحديثة ليست في قدرتها المتزايدة على دفع عجلة تقدّم الإنسان ، بل في تغيّر الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها ".

" إن الكشوف العلمية الحديثة جاءت ، كما يقول وسليفان ، لكي تقطع الطريق على تلك المناقشات التي قامت لتثبت أن أياً من التفسيرات الدينية ما هو إلا مجرد وهم. لقد فعلت هذا عندما أظهرت أن العلم لا يعالج إلا ناحية جزئية من الحقيقة ، وأنه لا يوجد أدنى سبب يبرّر الافتراض بأن كل ما يجهله العلم ، ويتجاهله هو أقل حقيقة مما يعرفه ... إن بعض العلماء يرون أن الموجات الالكترونية التي تشكل بنية المادة ، كما هو معروف حتى الآن ، يمكن أن تكون موجات احتمالية من غير وجود مادي مهما كان نوع هذا الوجود. ويتفق علماء آخرون مثل ادينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية للكون هي طبيعة عقلية ... ويذهب جينز مسافة أبعد فيعتبر العلم كله طبيعة عقلية كاملة ، بل يجعله فكرة في ذهن الله " !!

وأحدث النظريات التي طرحها عدد من كبار العلماء في مطلع السبعينيات من القرن الماضي ونشرت خطوطها العريضة مجلة (العلم والحياة) الفرنسية ، تقول بالمقابل أو المعادل اللامادي للتراكيب المادية في البنية السديمية والذرية على السواء. ومعنى هذا أن أكثر النظريات

الفيزيائية حداثة تقدّم تأكيداً أشد على تهافت المادية وتشير إلى نوع من التواجد الروحي في قلب الكون وفي صميم الذّرات !!

الا يذكرنا هذا بتسبيح الكون والأشياء والذرات للخالق العظيم ، بلسان الحال أو بلسان المقال ، فيما يؤكده القرآن في أكثر من آية : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الحديد ، (الآية ١) ، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الصف ، (الآية ١) ، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (سورة الإسراء ، (الآية ٤٤) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ . . . ﴾ (سورة النور ، (الآية ٤١) ، ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (سورة ص ، (الآية ١٨) ؟

يعود العلم ، بعد رحلة ضلال طويلة ، أرغم فيها على نفي الإيمان والاصطراع معه ، لكي يذعن للحقيقة الدينية ، فالحياة لا تستحق أن تعاش بدون بطانة روحية أو دينية ... وفلسفة العلم تستند إلى الكشوف الأكثر حداثة وبخاصة في مجال الطبيعة والذرة وطريقة عمل الدماغ البشري لتأكيد البعد الديني في الحياة البشرية مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾ (سورة فصلت ، (الآية ٥٣).

لقد أراد كتاب الله المسطور أن يضعنا في قلب العالم ... أن يدفعنا للالتحام بفيزيائه ... يدعونا للتنقيب في سننه ونواميسه ، من أجل أن نكون سادة العالم ، وألا نسمح للآخر بأن يضع أقدامه على رؤوسنا ، ولكننا اخترنا أن ننفي أنفسنا من الملكوت ... فكان تيه الاربعمائة سنة ، وكانت هزيمتنا وتفوق الآخر علينا ... وكان هذا الذي كان حيث عطاء الله سبحانه في كتابه المنظور مفتوح على مصراعيه لليد التي تعرف كيف تتعامل معه : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (سورة الإسراء ، (الآية ٢٠).

إن علاقة الكتابين المسطور بالمنظور تقود بالضرورة ، إذا أحسن التعامل معها ، إلى مشروع حضاري ايماني يلتقي فيه الوحي بالوجود ، وينعم العالم في ظلاله بالأمن والطمأنينة والسلام ، ويجعل الحياة البشرية بمنح ظاهرها المادي عمقه الروحي جديرة بأن تعاش !!

ونحن لا زلنا نتجادل : هل يجوز التفسير العلمي للقرآن أم لا يجوز ؟!

إن التعامل مع العلم ومحاولة اكتشاف طبيعة علاقته بالقرآن ، أو بالعكس ، ليست خياراً ، ذلك أن هناك تداخلاً صميماً بين النصّ القرآني والوجود الكوني ... بين الكتابين المسطور والمنظور ... وهنالك دعوة مؤكدة في القرآن لاكتشاف العالم والتعرّف عليه ... وهنالك مبادئ قرآنية تأسيسية لن تتحقق ما لم يستدع العلم للإعانة عليها : التسخير ، الاستخلاف ، الاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية) ... وهنالك مشروع حضاري أسّس له هذا الدين لن يقوم إلاّ بالعلم.

إن الظاهرة العلمية حاضرة في نسيج القرآن الذي يغطي جوانب الظاهرة الأربعة : الأهداف ، المنهج ، الحقائق ، والتطبيقات ... هذا الحضور الدائم في قلب الكون والعالم والحياة وسننها ونواميسها ، لتأكيد الإبداع الإلهي في الخلق ، ووحدانية الخالق جلّ في علاه ... ومن ثم يكون بديهياً هذا اللقاء الحميم بين الظاهرتين القرآنية والعلمية لأنهما من صنع الله سبحانه وتعالى ...

والعلم الإلهي يقدّم الحقائق اليقينية والماهيات ، بينما يقدم العلم البشري النظريات والاحتمالات والصفات ... وهو يقترب ، كلما أوغلت كشوفه في البحث والتنقيب ، من الحقائق اليقينية والماهيات ، وهذا هو بيت القصيد في توظيف المعرفة العلمية لتأكيد منطوق الايمان اليقيني الثابت في عقول ووجدان المشككين ، وليس العكس على الاطلاق ...

إن محدودية العلوم المساعدة لمفسّرينا القدامى ، وتفاسيرهم ليست ملزمة بصدد الظواهر ، العلمية ... وثمة فارق كبير بين تلك التفاسير التي وجدت نفسها مضطرة لاعتماد الإسرائيليات ، وبين محاولة علمية كتلك التي مارسها موريس بوكاي في كتابه القيّم (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة) والتي أكد فيها بعد عشرين عاماً من الجهد المتواصل مصداقية المعرفة العلمية القرآنية بنسبة (١٠ من ١٠) بينما هي في التوراة والإنجيل تتعرض للنفي بنسبة (٩ من ١٠) أو لا يمر سوى العشر ، فيما يؤكد أن محمداً بن عبد الله تلقى كتابه من مصدر فوقي هو الله (جلّ جلاله) ، بشكل قطعي. وإلا كيف قدر على استبعاد تسعة أعشار ما ورد في العهدين القديم والجديد في ضوء معرفة علمية لم تتشكل إلا بعد أربعة عشر قرناً ؟ وكيف ثبّت في القرآن معرفة مطلقة في صحتها في ضوء تلك المعرفة ؟

إننا أيها الأخوة في عصر العلم ... والتقدم العلمي ... فان لم نستخدم هذه الأداة وسيلة لإعادة شبابنا الضائعين إلى ساحة الايمان ، نكون قد فرطنا بفرصة ذهبية في نشاطنا الدعوي ... وخطابنا الفكري ...

وأخيراً ، لابدّ في أية محاولة لتفسير علمي للقرآن من اعتماد ضوابط التفسير ، وآليات العلوم الموصلة للحقيقة القرآنية ، والإفادة القصوى من التفسير البياني والدراسات الدلالية وتفسير القرآن بالقرآن ، واعتماد المؤشرات اللغوية حكماً فصلاً ... وإلاّ جنحت بالمفسرين الجوائح وذهبت بهم يميناً وشمالاً ، فيما لا يمكن التسليم بمعطياتهم بأية حالة من الأحوال ...

شكراً جزيلاً لحضوركم ولإصغائكم الجميل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا يراد لنا ؟

قراءة في كتاب (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي)

" يجب أن نقدم قوة روح المسيح بديلاً نصرانياً لتأثير الشيطان في حياة النساء المسلمات "

(فاليري هوفمان)

[١]

وسط دخان ما يسمى بحوار الأديان ، وفي معمعان الأفعال وردودها السريعة في قضية الرسوم المسيئة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإزاء تحديات الإنجيلية الجديدة وتشنجاتها ، وعبر الجدل القائم حول ثنائية صراع الحضارات وحوار الحضارات ... يجب ألاّ نغفل – لحظة – عن أن هناك في مراكز القرار الغربي خططاً وبرامج وستراتيجيات بعيدة المدى تعمل بهدوء ، وبنفس طويل ، وتنضج معطياتها على نار هادئة من أجل أن تخرج بنتائج أكثر فاعلية وأقدر على مواصلة الطريق الذي يستهدف تدمير بنية المقاومة الإسلامية لحركة التنصير ، وفتح المجال أمامها على مداه في معركة فتنة المسلمين عن دينهم ، وتحويلهم إلى النصرانية.

وهو ليس كلاماً يقال ، ولا انسياقاً وراء ما يسمى بالتفسير التآمري للتاريخ ، ولكنه الأمر الواقع الذي تؤكده أنشطة القوم هناك ، والذي يتمخض دائماً عن جملة من البرامج والخطط والتوصيات التي تعمل على طريقة المثل الإنكليزي المعروف : " بطيء ولكنه أكيد المفعول ".

صحيح أن للبيت ربّاً يحميه ، وأن هذا الدين مكتوب له في قدر الله سبحانه وتعالى أن يخرج منتصراً في معركة الصراع بين الأيديولوجيات والأديان ، ولكن ليس قبل الأخذ بالأسباب ، ومن بين هذه الأسباب – كما علمنا كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) – أن نأخذ حذرنا ، وأن نعرف كيف نمكر بخصمنا ، وقبل هذا وذاك أن نخترق عقل هذا الخصم لكي نخبر جيداً طريقته في التفكير ، وما الذي يريد أن يعمل.

[٢]

بين يدي كتاب خطير يحمل عنوان : (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي) ويتضمن الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة (١٩٧٨م) ونشرته دار MARC للنشر بعنوان :

The Gospel and Islam: A 1978 Compendium

صحيح أن المؤتمر المذكور مضى على انعقاده ثلاثون عاماً ... ولكن كم من المسلمين أتيح لهم أن يطلعوا على مقرراته ؟ بل كم من النخب في ديارنا الإسلامية وحاملي هموم الأمة ، أولت المؤتمر الاهتمام الذي يستحقه ؟!

وما دام أن معظم المؤتمرات التنصيرية (ولا أقول التبشيرية) التي سبقته وأعقبته ، خلصت إلى الخطط والتوصيات ذاتها ... فان بالإمكان اعتباره فاعلية نمطية يمكن الوقوف عندها لمعرفة ما الذي يريدونه منا ؟

شارك في المؤتمر المذكور الذي عقد في (١٩٧٨/٥/١٥م) مائة وخمسون شخصاً ، وهم كما تشير مقدمة الكتاب " نوعية خاصة ومتميزة من الأشخاص ، ولا ريب أن هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يجتمع فيها هذا العدد الكبير والذي يمثل مختلف الدوائر والهيئات وأنواع رجال الدين من أجل توحيد جهودهم وامكانياتهم والاستفادة من بعضهم بعضاً في عملية تنصير المسلمين " (المقدمة ص ٤).

وتمضي المقدمة إلى القول بأن " ردود الفعل الشجاعة والخلاقة تجاه موضوعات الأبحاث الأساسية " شكلت " منطلقاً لمجابهة المشاكل بشكل مباشر من أجل تقييم تجارب الماضي وجهود الحاضر بصدق وأمانة ، وساعد وجود قطاعات مختلفة من المشاركين – بينهم منصرّين ومدراء إرساليات تنصيرية ومتخصصين في علم الأجناس البشرية والدراسات الإسلامية ، ومستشارين في شؤون العالم الثالث – على إجراء مناقشة متزنة وواقعية لاستراتيجيات وخطط جديدة " (المقدمة ص ٤).

وتوضح تقارير المنصّرين بجلاء " أن تنصير المسلمين لا يمكن أن يكون عملاً آلياً أو مشروعاً مدروساً فقط ، بل هو أيضاً خدمة يستلهمها المنصّر من الروح القدس الذي يمده بالقوة والقدرة على العطاء ، ومن المؤمل أن تكون هذه الخلاصة التي خرج بها المؤتمر إحدى الأدوات التي تساعد على إنارة الدرب الصحيح في عملية تنصير المسلمين. لقد برزت من خلال المداولات الحاجة الماسة لإقامة جهاز مركزي يكون بمثابة معهد للأبحاث والتدريب على تنصير المسلمين ، وتم إنشاء هذا المعهد بالفعل في جنوب كاليفورنيا واطلق عليه اسم : معهد صاموئيل زويمر ، واختير دون ماكري مديراً له ". (المقدمة ص ٤).

وتخلص المقدمة إلى القول بأن المؤتمر انتهى " بعد أن ملأ المؤتمرين بروح الأمل وشجعهم على السير قدماً نحو هدفهم الكبير وهو العمل على تنصير الـ ٧٢٠ مليون مسلم ، وبث في المؤتمرين عزماً جديداً لتجميع طاقاتهم وتنسيق جهودهم للوصول إلى هذه الغاية. وأكدت مناقشات المؤتمر أن المسلمين الذين تم تنصيرهم يمكنهم إقامة كنائس خاصة تلائم أوضاعهم ، والأهم من كل هذا بروز تأكيد جديد على أن (الرب : الذي هو مخلص الناس جميعاً) (ثيموثاوس الأولى ٤ : ١٠) شاء علينا تخليص وتنصير الألوف المؤلفة من المسلمين وأن نجعلهم يؤمنون أن المسيح هو رب الجميع ". (المقدمة ، ص ٤-٥).

إذن فإن " هدفهم الكبير " كما يعبرون عنه ، هو العمل على تنصير الـ ٧٢٠ مليون مسلم (وقد زاد عددهم عبر الثلاثين سنة الأخيرة فأصبحوا ما يقارب المليار ونصف المليار).

وبالتأكيد فان هدفاً كهذا لن يقدّر له التحقيق لأسباب شتى يعرفها الجميع ، منها عدم التكافؤ في قوة العقيدة ، وقدرتها على الإقناع ، ومصداقيتها ، وعقلانيتها (إذا صحّ التعبير) بين الإسلام والنصرانية ، أو بين الدين الحق وبين الخرافة ... ومنها وعد الله سبحانه وتعالى بالتمكين لدينه في الأرض ، وغلبته على الدين كلّه ، وضعياً كان أم دينياً محرّفاً ... ومنها شهادة الواقع نفسه الذي وقف – على ضعف الأمة الإسلامية وانكساراتها السياسية والحضارية – سدّاً صلباً أمام الاختراق التنصيري.

ونحن في هذا العرض الموجز للكتاب المذكور لا تهمنا النتائج المتحققة على الأرض والتي يتحتم ألاّ ننكر تحقق جانب منها بالفعل ، انما " النيّات " التي تكمن في العقل الغربي النصراني ، والخطط المحكمة والمتواصلة التي يعتمدها سدنته لبلوغ ما يعتقدونه ممكناً.

وعلى أية حال ، وكما يقول (مايلز كوبلاند) في (لعبة الأمم) : " إذا لم تربح اللعبة فغيّر اللاعبين ". ولطالما قامت المؤسسات التنصيرية ، وقد عجزت عن اختراق الأمة والشعوب والجماعات الإسلامية ، باعتماد لاعبين جدد ، قد يكونون النخب العلمانية ، وأحياناً الملحدة ، التي بذلت ولا تزال جهداً محموماً لتدمير البنية الإسلامية للأمة ، وفتح الطريق لعمل المنصّرين ، سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه.

[٣]

ونمضي مع الكتاب الذي بين أيدينا والذي يتضمن أعمال المؤتمر " التبشيري " المذكور ، فنجد " التصدير " يشير إلى أن مؤتمرات عديدة تبودل فيها الرأي وأعلنت القرارات ، ثم انفضّ المؤتمرون لكي ما تلبث مجهوداتهم أن تصبح " حبراً على ورق " إلاّ أن مؤتمر عام

(١٩٧٨م) هو – على العكس – " من المؤتمرات القادرة على تغيير مجرى التاريخ " كيف ؟ يقول التصدير : " يرجع السبب في نجاح هذا المؤتمر إلى أن الـ ١٥٠ مؤتمراً الذين وفدوا من شتى أنحاء المعمورة والذين يمثلون العديد من الشعوب ، والتقاليد الكنسية المختلفة ، والتجارب الواسعة ، قد اجتمعوا على صعيد واحد يربطهم هدف واحد وهو البحث عن أنجع السبل لتنصير الـ ٧٢٠ مليون مسلم. وانفضّ المؤتمرون وقد ملأتهم روح من التوبة والوحدة ، حاملين نظرة ثاقبة جديدة ، ومؤمنين أن الرب يحرك عملاً جديداً في صفوف المسلمين ، وأن على الكنيسة أن تتحرك بسرعة إذا أرادت أن تكون أداة مخلصة في يديه.

" تشرح الأبحاث الأساسية للمؤتمر ، وكلمات الخطباء وتقارير التنصير العالمية فضلاً عن تقرير المؤتمر ، حاجات المسلمين وتقصير الكنيسة والفرص المثيرة للتنصير التي تواجه الكنائس وإرساليات التنصير في الوقت الحاضر. فالعالم الإسلامي يمر اليوم بحالة من التمزق الاجتماعي والسياسي (!!) ولذلك يوجد لدى المسلمين اليوم استعداد قلبي وعقلي لتقبل رسالة المسيح (!!) كما توجد هنالك بعض الشعوب الإسلامية التي يصعب الوصول إليها ، ولذلك يجب على الكنيسة أن تبتعد عن الأساليب غير المثمرة وتسلك طرقاً ثقافية ملائمة من أجل تقديم عيسى المسيح بكل إخلاص وقوة إلى المسلمين ، ان الأعمال التي يجب على الكنيسة القيام بها متعددة :

١- لابد أن يجد الإنجيل طريقه إلى الملايين من المسلمين.
٢- يجب على القائمين على التنصير أن يتخلوا عن الإحساس المتبلّد واللامبالاة والتعصب للتقاليد البالية وسبل التنصير الفاشلة.
٣- يجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.
٤- يجب على المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية ، وإرساليات التنصير الأجنبية ، العمل معاً بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك ، (التصدير ، ص ٦-٧).

ويمضي التصدير إلى القول بأن المؤتمر " كشف لنا بعض ما يحمله المستقبل لعملية تنصير المسلمين ، ويجري الآن التخطيط لمعهد متعدد الأهداف ومركز للأبحاث من أجل المساعدة في تنسيق الجهود والاستفادة التامة من المعلومات المتوفرة. كما سوف يعبر هذا المعهد الذي سمي عن جدارة واستحقاق باسم صاموئيل زويمر عن كلمات هذا المنصّر والذي يعتبر من أشهر العاملين في صفوف المسلمين حينما أكد بأن الكنيسة في تحركها باتجاه

المسلمين (عليها أن تقوم بدراسة المشكلة إضافة إلى إعداد أكثر شمولاً لمنصرين وايمان أرسخ بالرب). (التصدير ، ص ٧).

ويختتم التصدير بالإشارة إلى أن المؤتمر " أوصى بدراسة المشاكل اللاهوتية التي تؤثر على تنصير المسلمين ونشر كافة الدراسات التي تساعد النصراني العامل في هذا المجال. وتم شرح برامج تشجع على التدريب ونموّ الكنيسة كي تعمل على تنصير المسلمين في أرجاء العالم بما في ذلك أمريكا الشمالية " (التصدير ، ص ٧).

ويخلص التصدير إلى عرض " جانب بسيط فقط من النتائج المثيرة التي تمخض عنها هذا الاجتماع التاريخي :

- لقد كشف المؤتمر عن تصوّر وأمل جديد للتنصير يجب على الكنيسة الاستجابة لهما.
- لقد حان الوقت لتوقّع حصاد وافر بين المسلمين.
- لقد حان الوقت للعمل الجاد والالتزام المالي.
- لقد حان الوقت للصلاة المؤمنة والتفاني المخلص والشجاعة والشهادة لرسالة المسيح.
- لقد حان الوقت لأن نؤمن أن الرب سوف يجلب مجده للعالم الإسلامي كله.
- لقد حان الوقت لخلاص العالم الإسلامي ، ونضج الحصاد ، ورب الحصاد ينادينا فأين هم الحاصدون ؟ يجب على الكنيسة ألاّ تتأخر أكثر من ذلك ".

رئيس منظمة التصور العالمي الدولية

و. ستانلي مونيهام (التصدير ، ص ٧-٨)

[٤]

البحوث الموسعة التي تضمنها الكتاب الذي بين أيدينا تكشف عن الخطط والنوايا والأهداف ، وتنطوي – في الوقت نفسه – على قدر من النقد الذاتي الذي يحاول تشخيص أخطاء الماضي والعمل على تلافيها مستقبلاً ... وقد شارك في هذه البحوث كبار الباحثين من رجالات كنائس وجمعيات ومؤسسات شتى في العالم. وبمقدور القارىء ، وهو يتابع عناوين هذه البحوث ، أن يتلّمس بوضوح ماذا يراد بنا كأمة ، وما الذي يسعى خصومنا لتحقيقه في ساحاتنا التي أصبحت – للأسف – مكشوفة بأكثر مما يجب. وإليكم عناوين هذه البحوث :

- حان الوقت المناسب لمنطلقات جديدة : دون ماكري.
- الخطاب الرئيسي : و . ستانلي مونيهام.

- تقرير المؤتمر : آرثر . ف . كلاسر.
- الكتاب المقدس والثقافة : بول . ج . هايبرت.
- بلاغ الكتاب المقدس إلى المسلمين في بيئات ثقافية مختلفة : دونالد لارسون.
- استمالة المسلم عن طريق تجسيد شمائل وسلوك المسيح : بشير عبد المسيح.
- المسلم المتنصّر وثقافته : هارفي . م . كون.
- كنائس ملائمة للمتنصّرين الجدد في المجتمع الإسلامي : تشارلس كرافت.
- صراع القوى في عملية تنصير المؤمنين : آرثر . ف . كلاسر.
- الظرفية والتحول والتأصيل : شارلي . ر . تيبر.
- منطلقات لاهوتية جديدة في عملية تنصير المسلمين : بروس . ج . نيكولز.
- تطبيق " مقياس اينكل " في عملية تنصير المسلمين : ديفيد . أ . فريزر.
- تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة : دون . م . ماكري.
- اللاهوت الإسلامي : الحدود والجسور : كينيث . أ . كراج.
- إسلام العامة (أو الإسلام الشعبي) : بل مسك.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في الغرب : د. ماكس كيرشو.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في وسط وجنوب إفريقيا : جيرالد . أو . سوانك.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في شمال إفريقية : كريكوري . م . لفنكستون.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في الشرق الأوسط : نورمامن هورنر.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في تركيا : محمد إسكندر.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في إيران : ديفيد كاشن.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في شبه القارة الهندية : ريتشارد بيلي.
- مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في جنوب شرق آسيا : فرانك . ل . كولي ، بيتر . ج . كونك ، الكس . ج . سميث ، ورن مايرز.
- المقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في روسيا والصين : ج . روبرت أوفير برودك.
- الوضع الحالي للمطبوعات ووسائل الإعلام الأخرى الموجهة للمسلمين : ريموند جويس.
- الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين : وليام . د. رابيرن.
- الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين : فريد . د. أكورود.
- نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين : جورج بيترز.
- مراجع مختارة للمنصرين العاملين بين المسلمين : وارين . و . ويبستر.
- الدعوة إلى التجدّد الروحي : ج . ايدون أور.

- تطوير وسائل جديدة لتساعد في تنصير المسلمين : دونالد . ر . ريكاردر.
- مستويات وأشكال ومواقع البرامج التدريبية : فيفيان سيتسبي.
- بناء شبكة من مراكز الأبحاث : رونالد إي ميلر.
- قيمة ومنهجية التخطيط الاستراتيجي : إدوارد دايتون.
- مهام تنصيرية يقوم بها منصرون غير متفرغين (أصحاب الخيام) إلى جانب عملهم في دولة إسلامية : ج . كريستي ويلسون.
- الحاجة إلى مركز للقيادة في أمريكا الشمالية : رالف دي ونتر.
- الحوار بين النصارى والمسلمين وصلته الوثيقة بالتنصير : دانيل آربروستر.
- روابط أمريكا الشمالية مع إرساليات العالم الثالث التنصيرية العاملة بين المسلمين : والدرون سكوت.
- الحاجة إلى مجلة جديدة خاصة بالإرساليات التنصيرية الموجهة نحو المسلمين س . جورج فراي.
- الغذاء والصحة وسائل لتنصير المسلمين : روبرت بتكبت ، رفينول ماكاكبا.
- دور الكنائس المحلية في خطة الرب لخلاص المسلمين : فرانك . س . خير الله.
- المداخل النصرانية للمرأة المسلمة وأسرتها : فاليري هوفمان.
- الوصول إلى الذين لم يتم الوصول إليهم : مجموعة العمل الاستراتيجي (١٩٧٨م).

القرآن الكريم حسم الموقف كله بكلمات قلائل : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ١٢٠).

والكتاب الذي بين أيدينا حلقة من عشرات الحلقات التي تعكس جهداً محموماً لردّ المسلمين عن دينهم وسحبهم إلى الوراء بحركة رجعية تستهدف تغليب الأدنى على الأعلى ، والهوى على العلم ، والظن على اليقين ، وهي مسألة مستحيلة بكل الحسابات ...

ومع ذلك فالسؤال يظل قائماً : هل سيتمكن المنصّرون فعلاً من تنصير المليار ونصف المليار مسلم ، وجعلهم يؤمنون أن " المسيح " – كما يقول المؤتمرون – وليس الله (وحاشاه) " هو ربّ الجميع " ؟!

ترى هل بمقدور مسلم يملك ذرة من ايمان أن يتنازل عن عبادة الله إلى عبادة عبد من عباده ؟

مرةً أخرى ... وثالثة ... وعاشرة ... ومائة ألف ... مستحيل ...

تلك هي القاعدة التي لا يقاس عليها الاستثناء الذي يؤكدها ولا ينفيها بشهادة التاريخ ، وتحفظات المنصرّين أنفسهم : ﴿ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة يوسف ، (الآية ٢١).

بسم الله الرحمن الرحيم

نماذج من العمل القيادي الإسلامي

" محاضرة موجزة ألقيت في الموسم
الثقافي لكلية الدراسات الإسلامية
والعربية في دبيّ في تشرين الأول
عام ٢٠٠٠م "

أبنائي الطلبة ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شهد التاريخ الإسلامي خبرات قيادية متميزة وفاعلة ، مارست دوراً خطيراً عبر المفاصل الحسّاسة من مسيرته الطويلة. ولن يتسع المجال في مساحة زمنية محدودة كهذه لاستعراض وتحليل هذه الخبرات ولذا سأكتفي بالوقوف عند واحدة فحسب ، بسبب مما تتميز به من خصب في العطاء ، واستجابة مدهشة لمطالب اللحظة التاريخية فيما يقدم إضاءات ضرورية للقيادات الإسلامية في اللحظات الراهنة ، قد تعينها على تبيّن معالم الطريق بأقل قدر ممكن من العثرات والأخطاء.

تلك هي قضية المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ...

مبدأ تنامي الجهد التاريخي

فما بين عامي (٤٩١هـ) حيث دخل الصليبيون الغزاة بيت المقدس ونفذوا فيه مذبحتهم المعروفة التي ذهب ضحيتها سبعون ألفاً من النساء والأطفال والشيوخ ، والتي قال عنها أحد شهود العيان الصليبيين أنفسهم ، صاحب وثيقة الجشتا : إن قوائم خيولهم كانت ، وهي تجتاز دروب القدس ، تغوص في برك دماء المسلمين.

وعام (٥٨٣هـ) حيث دخل الناصر صلاح الدين بيت المقدس فاتحاً محرّراً ، محترماً دم الخصم من الهدر ، وحرّيته من الابتزاز ، وطفولة مقاتليه من الخوف والأذى والضياع ، كما تحدثنا المصادر التي عاصرت الحدث الكبير.

ما بين العامين ، مدى زمني يقرب من القرن ، تعاقبت عبره الأحداث لكي تؤميء باليوم الموعود.

لقد تحقّق عبر هذا المدى ما يمكن أن نطلق عليه مبدأ " تنامي الجهد " الذي قاد بحلقاته المتتابعة ، إلى تحرير مساحات واسعة من فلسطين وزهرة مدائنها من قبضة المستوطنين الغزاة.

البداية في عام (٥١٨هـ) حيث تعرّضت مدينة حلب لحصار قاسٍ من القوات الصليبية التي أصرّت هذه المرة على دخول المدينة بأي ثمن ، ومعنى ذلك عزل القوى الجهادية الإسلامية عن بعضها في العراق والجزيرة الفراتية والشام ، والحدّ من ضغطها المتواصل على الوجود الصليبي في فلسطين.

كان أمراء حلب عاجزين تماماً عن مجابهة الموقف فتولّى أمر المقاومة والدفاع القاضي أبو بكر بن الخشاب واستطاع أن يصمد بجماهير حلب في وجه العدوان لحين وصول النجدة

التي طلبها من والي الموصل السلجوقي أق سنقر البرسقي الذي قدم بنفسه لفك الحصار في العام نفسه ، ودخول حلب وسط ترحيب شديد من أهاليها ، ومن ثم توحيد مدينتي الموصل وحلب ومنح أولاهما عمقاً استراتيجياً في بلاد الشام يمكن قادتها من ولاة السلاجقة من فاعلية أكثر ضد العدو في الشام وفلسطين.

كانت تلك هي النواة التي انبنت عليها عبر العقود التالية كل الحلقات التي أمسك بعضها برقاب بعض ، والتي حققت تنامياً مطرداً للجهد الإسلامي في مقاومة العدو ، والوصول في نهاية الأمر إلى آخر الشوط وتحرير القدس على يد الناصر صلاح الدين.

تمكن عماد الدين زنكي الذي تولى إمارة الموصل (٥٢١-٥٤١هـ) بعد اغتيال البرسقي من توسيع النواة ، وتحويل الإمارة إلى دولة كبيرة تمتد من حافات العراق الجبلية شمالاً وشرقاً ، وحتى أواسط العراق جنوباً ، وسواحل البحر المتوسط غرباً. ولقد حاول مراراً دخول دمشق لكنها استعصت عليه بسبب من عدم إدراك أمرائها للهدف المركزي الذي كان زنكي يتوخّاه.

بعد اغتيال زنكي عام (٥٤١هـ) تولّى الجناح الشامي من إمارته ابنه المعروف نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ) الذي تمكن برؤيته الإسلامية الأصيلة من إضافة بعد جديد لحركة التوحيد والتحرير التي بدأها أبوه وأسّس لها البرسقي ، والمضيّ بها قدماً وتنمية الجهد القتالي بالتالي وجعله أكثر قدرة على التعامل مع العدوّ الصليبي في الساحة الفلسطينية بالذات.

لقد سعى الرجل ، برؤيته المتميزة ، وقدراته المدهشة ، وشخصيته الفاعلة ، إلى إقامة الدولة التي تحكم بما أنزل الله ، والأمة المجاهدة التي تملك القدرة المتواصلة على مجابهة العدو والتضييق عليه حتى يأذن الله سبحانه وتعالى بالنصر الموعود.

القطاف الموعود

فلما جاء الناصر صلاح الدين (٥٦٧-٥٨٩هـ) لم يكن أمامه سوى لمّ ما تبقى من طاقات إسلامية معطّلة في المنطقة ، وإقناع أمرائها الذين عزلوا أنفسهم خارج ساحات الجهاد ، في حشد طاقاتهم البشرية والمادية لتنمية الجهد القتالي وجعله أكثر قدرة على تحقيق المطلوب. ورأى الناصر أن الإبقاء على هؤلاء في مواقعهم شرط أن يمدّوه بالمال والرجال هو الحلّ المناسب في لحظات تاريخية كهذه ، فأضاف بذلك بعداً لمبدأ تنامي الجهد ، وهو – إذا جازت التسميات – البعد الاتحادي (الفيدرالي) الذي يتمتع من خلاله كل أمير باستقلاليته ، ويشارك في الأهداف والسياسات العامة للدولة الأم التي يتزّعمها الناصر صلاح الدين.

وعندما حلّ عام (٥٨٣هـ) كان كل شيء يؤذن بالحسم ... بالمعركة الفاصلة التي هيئت لها الأسباب ... في حطين حيث تم سحق العمود الفقري للقوات الصليبية ، وانفتح الطريق لتحرير معظم المدن الفلسطينية ، ودخول زهرة مدائنها : بيت المقدس.

نقطة الارتكاز

نقطة الارتكاز – إذن – في قضية المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي تمثلت في إدراك القيادات الإسلامية لمطالب اللحظة التاريخية ، والتحقّق بمبدأ تنامي الجهد التاريخي في ضوء تحديد الهدف المطلوب.

إن هذا يقدّم للقيادات الإسلامية المعاصرة " تعليماً " في غاية الأهمية ، قد يفسّر في الوقت نفسه المزالق التي وقعت فيها عبر القرن ونصف القرن الأخير ، ويمنحها الإضاءة التي تمكنها من التحرك صوب الهدف بأكبر قد ممكن من ضمانات المسير.

لابدّ من إدراك مطالب اللحظة التاريخية ، وتحديد الهدف في ضوئها ، والتحرك من ثم على خط صاعد للاقتراب من المطلوب. وإلاّ فانه الضرب في التيه ، والدوران في الحلقة المفرغة ، والتفريط بالجهد والزمن فيما حذّر منه كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

وسواء كان الجهد الإسلامي المعاصر درساً يعطى أو محاضرة تلقى أو مقالاً يكتب أو بحثاً يؤلف ، سواء كان تبادلاً في الرأي أو حواراً ، فان الذي يقوده إلى هدفه ويحميه من الهدر والتشتت والضياع انما هو تحديد المحور الذي يتحرك فيه ، أو المستوى الذي يتعامل مع بعض ظواهره ومفرداته : هل هو المستوى الحضاري ؟ أم السياسي ؟ أم الدعوي ؟ أم الاجتماعي ؟ أم السلوكي ؟ أم الشعائري ؟

والذي حدث في كثير من الأحيان هو تداخل الحضاري بالدعوي ، والسياسي بالاجتماعي، حيث تختلط الأوراق ، وتضيع البؤرة التي يتحتم أن يتمحور عندها الجهد الحركي لكي يكون أكثر فاعلية وعطاء.

هذه هي واحدة من البوابات التي دخل منها الاضطراب فضيّع على الإسلاميين الكثير من الجهد والزمن ، وجعلهم يدورون – أحياناً – في حلقة مفرغة حيث ما يلبثون أن يجدوا أنفسهم ، بين فترة وأخرى ، عند نقطة البداية.

مستويات العمل

وعلى سبيل المثال ، فان " المشروع الحضاري " الذي تدعو إليه بعض المؤسسات والجماعات الإسلامية ، ينطوي على فضاء واسع ، قد يمتد إلى العالم كله ، فيتعامل معه بمنطق الحوار الحضاري الذي يتطلب إدراكاً لقوانين الحركة التاريخية ، وصيرورة الحضارات ، ويسعى لاكتشاف عناصر القوة والضعف في هذه الحضارة أو تلك ، وإلى الميزات الجوهرية لحضارة الإسلام التي تؤهلها لأن تكون البديل المرتجى ، ليس على مستوى جغرافية الإسلام وحده وإنما على مدى العالم كله ، تلك الميزات الخصبة المتنوعة من مثل : الرؤية التوازنية لهذه الحضارة بين الوحي والوجود ، والمادة والروح ، والعدل والحرية ، والفرد والجماعة ، والعقل والوجدان ... وسائر الثنائيات الأخرى. ومن مثل قدرة هذه الحضارة – بخلاف سائر الحضارات المندثرة – على التجدّد والانبعاث انطلاقاً من شبكة تأسيساتها في كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إن مشروعاً كهذا ينطوي على فضاء عالمي يمثل جهداً يختلف في طبيعة توجهّه مع أي جهد دعوي محدّد تمارسه هذه الجماعة أو تلك ، وهذا الفرد أو ذاك في دائرة حيّ أو مدينة أو قطر أو بيئة جغرافية ، كما أنه يختلف عن أي جهد اجتماعي يستهدف إقامة بعض المؤسسات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الترفيهية التي تحكمها قيم الإسلام وضوابطه. وهو يختلف بالضرورة – كذلك – عن أي نشاط سياسي قد يعتمد هذه الفرصة (الديمقراطية) – إذا جاز التعبير – أو تلك لرفع خطابه وتأكيد مصداقيته أمام الجماهير ، والتقدم خطوات إلى الأمام.

صحيح أن هذه الأنشطة ، بدءاً من حجر الزاوية ونقطة الانطلاق المتمثلة بإعادة صياغة السلوك ، والالتزام التعبّدي ، بما يجعل الفرد مهيّأً تماماً للمراحل التالية ، مروراً بالأنشطة السياسية أو الدعوية أو الاجتماعية ... انما تؤول جميعاً إلى هدفها الحضاري الشامل وتصبّ في البؤرة الواحدة التي تستهدف إعادة صياغة السعي البشري في هذا العالم ، بما يريده الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم).

إلا أن هذا المنطوق التكاملي في الجهد يجب ألاّ يسوق الإسلاميين إلى تداخل الرؤية واضطراب الحلقات ، وعدم تبيّن الحدود الممكنة للجهد الإسلامي في هذا المجال أو ذاك.

إننا إذا استطعنا – منذ البدء – أن نحدّد طبيعة الجهد ، أو أن نحيله إلى مستواه المحدّد على خارطة العمل : حضارياً أو سياسياً أو دعوياً أو اجتماعياً أو سلوكياً ... قدرنا على الوصول إلى الهدف بأقل قدر من الإسراف في الطاقة والزمن ، وبالتركيز الضروري الذي يعطي ثماراً أكثر نضجاً.

لا يتسع المجال للدخول في المزيد من التفاصيل ، وقد تكفي هذه التأشيرات العامة من أجل تبيّن موضع أقدامنا في كل حلقة من حلقات الجهد الإسلامي وإحالة هذا الجهد إلى دائرته الحقيقية لكي يتسلسل العمل وفق برنامج مرسوم ، يبدأ بأعمق نقطة في وجدان الإنسان الفرد لكي يمضي إلى العالم كلّه مبّشراً بمشروعه الحضاري البديل.

الوجه الآخر للمشكلة

والآن ... فان هذا – بإيجاز شديد – هو أحد وجهي " المشكلة " ويبقى هناك الوجه الآخر الذي لا يقل أهمية ، والذي مارس – هو الآخر – دوراً خطيراً في عرقة الجهد الإسلامي وتفتيته ، وربما تضييعه.

فإذا كانت المعضلة في الوجه الأول تنطوي على اضطراب في حلقات التسلسل العمودي الصاعد للجهد الإسلامي الذي يبدأ بالفرد وينتهي بالمشروع الحضاري ، فان هذه المعضلة – في الوجه الآخر – تبدو في غياب أو اضطراب المنظور الأفقي ، وضياع خرائط العمل المحكم الذي يضع في حساباته وهو يعاين المنظور ، تغاير البيئات ، بكل ما ينطوي عليه مصطلح البيئة من مفردات ومواصفات وبالتالي ملاحظة اختلاف المطالب والحاجات وصيغ العمل بين بيئة وأخرى.

إن المقتل الأشد خطورة ، كان عبر القرن ونصف القرن الأخير ، يتمثل في عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة. والبداية الصحيحة تكون ها هنا : إن الجهد أو النشاط يجب أن يضع نصب عينيه مواصفات البيئة التي يتحرك فيها وينسج خيوطه ... فإذا كانت بيئة ما تصلح للنشاط الديمقراطي أو السياسي ، فان بيئة أخرى قد تتطلب ، في لحظة تاريخية محددة ، نشاطاً جهادياً أو تربوياً أو علمياً أو عقلياً أو اجتماعياً ... او حتى روحياً صرفاً ...

تعاليم من عصر الرسالة

إن التاريخ لا يقاس بالمسطرة والبركال ، والحركة التاريخية تستعصي على الأسر في نمطية محددة ... والتعامل مع البيئات كلها كما لو كانت " حالة واحدة " بغض النظر عن موقعها في الزمن أو المكان ، يتناقض – ابتداء – مع منهج الدعوة وطرائقها في عصر الرسالة حيث يلاحظ أن صيغ العمل في العهد المكي هي غيرها في العهد المدني. بل إنها في العهد المكي نفسه كانت تتعامل مع اللحظة التاريخية بصيغ مختلفة ، فكانت هناك سنوات العمل السري ، والنشاط المعلن ، واعتماد الهجرة الموقوتة وسيلة للتخفيف عن الضغط وحماية الذات.

كما أن العهد المدني شهد هو الآخر ، إلى جانب أو بموازاة الخط الجهادي العام ، وخط بناء الدولة الإسلامية ، تغايراً في صيغ العمل فكان هناك التحالف المرحلي ، والصلح الموقوت ، والإعلان العام لتصفية الوجود الوثني ... إلى آخره.

لقد اجتازت الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة مراحل شتى بدءاً ببناء الإنسان المسلم ، مروراً بإقامة دولة الإسلام ، وانتهاء بصياغة التأسيسات الأولى لشبكة الشروط الحضارية التي وضعت الجماعة والأمة المسلمة قبالة العالم بخصائصها المتميزة وفاعليتها التي مكنتها عبر عقود معدودة من الزمن أن تصوغ حضارتها الخاصة بها.

الانصات لمطالب اللحظة التاريخية

وما لم ننصت جيداً لنداء اللحظة التاريخية ، ونتابع بوعي وتبصر عميقين مواصفات المكان ... ما لم ندرك ابتداء أن الحركة التاريخية تنطوي دائماً على الثابت والمتحول معاً ، وأن علينا أن نضع في المنظور كلا القطبين ، فاننا سننزلق – شئنا أم أبينا – إلى مواقع الخطأ والهدر ، وسنحكم على أنفسنا – كرة أخرى – بالدوران في الحلقة المفرغة ، حيث العودة بين حين وآخر إلى نقطة البداية.

إن العديد من الحركات الإسلامية فشلت ، أو تباطأت حركتها على أقل تقدير ، لأنها لم تلتفت لهذه الحقيقة ، أو لم تعرها اهتماماً كبيراً ، فمضت لكي تتعامل بمنطوق الإعداد التربوي مع وضع تاريخي يتطلب جهاداً ... أو أعلنت الكفاح المسلح في وضع يتطلب إعداداً تربوياً ... أو نزلت تحت الأرض في بيئة تسمح لها بالعمل في الهواء الطلق ... أو كشفت عن نفسها في ظرف يعد فيه الانكشاف انتحاراً ... أو اصطرعت مع خصومها سياسياً بينما كان الأمر يتطلب نشاطاً تثقيفياً أو دعوياً صرفاً ، أو انعزلت في وقت يكون فيه العمل الجبهوي فرصة جيدة.

وثمة في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) مؤشرات وضوابط غنية تؤكد ثقل المتغيرات التاريخية وضرورة التعامل الحذر معها ، يمكن الاكتفاء بشواهد محدودة منها في موجز كهذا :

١– الآيات القرآنية الخاصة بالتقابل العددي.

٢– حرب السرايا في بدء العصر المدني والحروب النظامية فيما بعد.

٣– السرية المطلقة في فتح مكة ، وإعلان النفير العام وكشف الهدف ، في تبوك ، واعتماد قادة احتياطيين في مؤتة ، وأسلوب الشورى في بدر وأحد ، والانفراد بالرأي في الحديبية.

٤- تدمير الجماعات الكافرة الذي يعتمد قوى الطبيعة (من مثل الصيحة ، الحاصب ، الخسف ، الطوفان ... الخ) في مراحل تاريخية معيّنة ، واستبدالها بإعجاز الكلمة الإلهية في مرحلة أخرى تتميز بالرشد العقلي.

٥- إعادة تصنيف خصوم الإسلام في ضوء المعطيات التاريخية.

لماذا ؟

ولطالما تساءل الإسلاميون بمرارة يعبّر عنها لسان الحال حيناً ، ولسان المقال أحياناً : لماذا ؟ لماذا هذه الانكسارات المتتالية لمعسكر الايمان وهو يخوض حركته المشروعة ضد معسكرات الكفر والضلال ؟

والجواب يكمن ، سواء في الميادين العسكرية ، أم في ساحات السياسة والاقتصاد والمجتمع ، في أن الإسلاميين لم يتبيّنوا مطالب اللحظة التاريخية وشروطها ، ويحدّدوا – في ضوئها – حجم الجهد المطلوب ثم يتحركوا إليه وفق مبدأ تنامي الجهد ، كما فعل الآباء والأجداد ، فذهبوا ضحية حساباتهم الخاطئة وتقصيرهم في فهم وإدراك مطالب اللحظة التاريخية.

ومن قبل ، عندما تساءل المسلمون المنهزمون في معركة أحد ، عن مبرّرات الهزيمة ، وهم جند الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، أجابهم القرآن الكريم بالحسم القاطع الذي لا جدال فيه : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ١٦٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

تأشيرات حول التعامل مع الشاشة الصغيرة

" محاضرة ألقيت في الموسم الثقافي لجامع هيبة خاتون بالموصل في رمضان عام ٢٠٠٢م.
وفي المجلس العلمي لمدينة بركان بالمغرب في نيسان عام ٢٠٠٤م ".

أيها الحضور الكرام ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الشاشة الصغيرة ... التلفاز ... الكمبيوتر ... الانترنيت ... الجهاز النقال ... والفضائيات ...

هذا الزائر اليومي الذي يتموضع في دورنا ، ومؤسساتنا ، ويدخل علينا حتى في غرف نومنا ... وأوقات تناول طعامنا ، ويظل مفتوح العينين صباح مساء ... في عصر الانفجار المعلوماتي والإعلامي الذي يدع – لكثافته وتدفقه وتنوّعه واستمراره – الحليم حيراناً !!

هذا الزائر الذي يتسلّم أطفالنا منذ لحظة تفتح وعيهم على الحياة ... ثم يمضي لكي يخاطب الصبيان والشباب والكهول والشيوخ ... والرجال والنساء ... فيبني ويهدم ... ويقدّم الوجبات النظيفة والأخرى المترعة بالقذارة والفحش والدنس والفجور ...

هذا الزائر الذي يمارس بإلحاحه على الحضور اليومي واحدة من أبشع عمليات غسيل المخ في التاريخ البشري ، توازيها واحدة من أكثر الحلقات الإيجابية طهارةً ووضاءةً ونبلاً ...

هذا الزائر الذي أفلتت مفاتيح السيطرة عليه من أيدي الآباء والأمهات والمربين والمعلمين ، فمضى يدعو إلى الرذيلة ، ويفتت القيم الأصيلة ... ويؤكد خطاب الفجرة والطواغيت ... ويبرّر كل ما تأباه إنسانية الإنسان في سوّيتها المعتدلة ، الفاعلة ، الملتزمة ، البناءة ... كما أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون ...

ولكنه ، من جهة أخرى الزائر الذي يضع في لحظة واحدة العالم كلّه بين يديك ... يفتح عينيك على كل صغيرة وكبيرة مما يجري في ساحاته المكشوفة والمغيبّة عن الأنظار ... يرفع صوت المعارضة في وجوه الفجرة والطواغيت ... يهز عروشهم ، ويسقطهم الواحد تلو الآخر ...

الزائر الذي يعطيك في دقائق ولحظات كل ما تريده وتبحث عنه من مصادر ومراجع وكتب ودوريات وبحوث ومقالات ، حول الموضوع الواحد الذي كنت تكدح لجمع مصادره ومراجعه الشهور الطوال ... الزائر الذي يقدّم لك ساعات من الاسترخاء المترع بالمتعة والسعادة وأنت تتابع أسبوعاً بأسبوع دوريات كرة القدم ، أو السلّة ، أو اليد ، أو الطائرة ... أو ألعاب الساحة والميدان ، فينسيك همومك وأحزانك التي تحاصرك كالسيل الذي لا يكف عن الانقطاع ... أو وأنت تشاهد عملاً درامياً ملتزماً ونظيفاً ... أو تنصت إلى نشيد مؤثر يعرف كيف يوغل في وجدان المشاهدين ...

هذا الزائر الذي يقدم لك أشهى الوجبات ، وأغلى النصائح الطبية ، وأدق الإجابات الفقهية على ما يعترضك في الحياة ... والذي ينقلك إلى إبداعية الله سبحانه وتعالى في الخلق ، يضعك

قبالتها وجهاً لوجه ... فيريك بألوانه الرائعة صنع الله الذي أتقن كل شيء ... والذي يقدّم لك من المحاضرات ما يغني به فكرك ، وينير سبل حياتك صوب الحق والخير والانسجام ...

أشياء كثيرة ... وكثيرة جداً ... تقترن في أذهاننا بمجرد تذكر ما تفعله الشاشة الصغيرة بنا ... انها باختصار شديد معجزة العصر ... وهي إذا أردنا الحق آلة حيادية ، ولكن العبرة في الاختيار والتوظيف والتحديد الزمني ... في البحث عن المساحات الإيجابية فيما تقدّمه الشاشة من برامج وأفلام ومسلسلات وندوات ومؤتمرات ومحاضرات ونشرات إخبارية ، وعروض رياضية ، وأغانٍ وأناشيد ، ومسابقات ومهرجانات وتعليقات ... وأفلام كارتون ، وبرامج ترفيهية ...

في ديارنا الإسلامية هنالك فوضى واضحة في التعامل مع الشاشة الصغيرة ، لم تضع في حسبانها إلاّ نادراً توظيف هذا الجهاز لثلاثية البحث العلمي ، والترفيه المنضبط ، والإعلام الهادف ... وتدع ما دون ذلك مما قد يهدم ، في لحظات ، جهود الأسابيع والشهور الطوال في التوجيه التربوي ، والضبط الأخلاقي ، والتقويم السلوكي ... ومعروف أن الهدم أيسر من البناء ، وأنه قد يأتي في لحظات على ما يبنيه الجهد اللاحب في أشهر وربما في سنوات ... فكيف يكون الخروج من المأزق ؟ كيف يكون الحلّ ؟ كيف نجعل هذا الجهاز يعزّز جهدنا التربوي ، والدعوي ، ولا يهدمه ؟ كيف نتمكن من ضبط الوقت المعقول للجلوس أمام الشاشة الصغيرة وعدم جعلها تفترس كل أوقاتنا التي يجب أن توزّع بالعدل والقسطاس على مطالب الحياة اليومية كافة ؟ كيف نمنع أطفالنا وصبياننا ومراهقينا من استراق النظر إلى برامج العهر والفجور ، وتفكيك منظومة القيم والأخلاق ؟

إننا قبل أن نأتي للتأشير على هذا كله يتحتم علينا أن نشخص التأثيرات السلبية في التعامل مع الشاشة الصغيرة لكي نضع أيدينا على الجرح ، فلعلنا نعثر له على الدواء الشافي ...

وأولى هذه السلبيات أننا نعيش في عصر العولمة التي حولت العالم إلى قرية صغيرة ، أو نادٍ محدود ، وحيث يجيء هذا الجهاز لكي يعزّز توجهات العولمة هذه ، ويعينها على المضي قدماً في تسخير العالم لثقافة واقتصاد الدول الأكثر قوة والأكبر حجماً ... والتي يمكنها بالضغط على الأزرار الالكترونية من تدمير اقتصاد هذه الدولة الصغيرة ، الطموحة ، أو تلك ... أو على الأقل تخفيض عملتها إلى النصف أو الثلث. كالذي فعلته الولايات المتحدة بماليزيا عندما رأت طموح هذا البلد المكافح لتشكيل اقتصاد قوي وسوق شرق أقصوية قد أزداد قوة بمرور الوقت فهدّد المصالح الأمريكية ، والتي يمكنها بالضغط على الأزرار من تدمير البنية السياسية والعسكرية لبلد كأفغانستان والعراق ، وتأتي عليهما من القواعد ...

ومن سوء حظ البشرية أن تتشكل العولمة في زمن تفرّد الولايات المتحدة في قيادة العالم ، فيما يسمى بالنظام ذي القطبية الأحادية ، أو النظام العالمي الجديد ... فتكون الذراع المساعد لتأكيد تفرّدها بالسلطان ، وتكون الشاشة الصغيرة من أهم الآليات التي تساندها في هذا الاتجاه ... فلو أن العولمة تشكلت في زمن تعدّد القطبيات لكان الحال غير الحال ، ولوجد المستضعفون في الأرض فرصهم العديدة في توظيفها.

ترتبط بهذه السلبية إشكالية نشر الثقافة الرأسمالية الأمريكية ، ذات الرؤية المادية للحياة ، تلك التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، والتي تبشر بحضارة المصنع والسوبرماركت والكباريه ... وماذا يبقى للإنسان إذا تحوّلت حياته كلها للإنتاج والاستهلاك والترفيه المتهتك الماجن الرخيص ؟!

إن هذا الجهاز لهو من أشد العوامل المساعدة على ترويج هذه الثلاثية التي تقوم عليها حضارة الغرب الراهنة ، والتي إذا قدّر لها الانتصار على الثقافات الأخرى ، واكتساحها ، فانها ستحول الحياة البشرية إلى حركة على السطح ، وتفقدها عمقها الروحي والوجداني ... وتدّمر يقينها الديني بحياة أخرى غير هذه الحياة ، وبحساب عادل يضع الأمور في نصابها الحق ...

ومن أجل هذا ... من أجل غياب هذا العمق الذي يمنح الحياة طعمها العذب ، وآمالها وأمانيها ، ويسطحها إلى الحدّ الذي تفقد فيه طعمها ولونها ورائحتها ... ازدادت حالات الاكتئاب في الدول المتقدمة مادياً ، ولكنها المفلسة روحياً بحيث أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عن أن عشر سكانها يعانون من حالات الاكتئاب المركز الذي قد يقود بعضهم إلى الانتحار ... وخصصت اليابان مبلغ ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في ديارها ... والحبل – كما يقول المثل – على الجرّار ...

السلبية الأخرى للشاشة الصغيرة هي ترويجها لنشر الفاحشة في أشد صيغها قذارةً وسفالةً وانحطاطاً وبعداً عن إنسانية الإنسان ، ونزولاً إلى ما دون السلوك الحيواني بكثير ... إن هنالك قنوات عديدة في بلدان شتى مهمتها عرض الأفلام والبرامج الإباحية المكشوفة : الزنا ... واللواط ... والسحاق ... على الهواء كما يقولون ... ومن أجل ماذا هذا كلّه ؟ ألم نتساءل يوماً ، فلعلّ الجواب يقودنا إلى مقررات بروتوكولات حكماء صهيون التي ترى في نشر الفاحشة خير أسلوب لتدمير أخلاقية الأميين ، من غير اليهود ، كما تسميهم ؟ والإمساك بهم من قرونهم ، وسوقهم كالأنعام ؟!

وثمة سلبية أخرى تمارسها الشاشة الصغيرة ... إنها الترويج للجريمة والعنف ... والطرق المتواصل على مفرداتها وممارساتها ... بحيث تغدو الحياة البشرية وكأنها أصبحت مسرحاً للقتل والاغتصاب والعنف والذبح واستخدام أخس الأساليب من أجل تحقيق الأهداف ... إن هذا الذي

تعرضه الشاشة الصغيرة يستهوي الكثير من شبابنا ، بل إنه ليأسر أجيالاً بكاملها ، ويقودها إلى أخلاقية العنف والجريمة ... ويا لها من نتيجة مدمرة لعصب التقدم في الحياة ، ومواصلة التنامي الحضاري والالتزام الأخلاقي ، متمثلاً بالشباب ، أولئك الذين أغوتهم الشاشة الصغيرة فتحولوا إلى نمور هائجة تريد تدمير كل شيء !!

هناك أيضاً ما تمارسه الشاشة الصغيرة من التشكيك ، وتدمير الثقة بالذات ، والهجمات المضادة على الإسلام والمسلمين عقيدةً وشريعة ونبياً ورجالاً وحضارة ... وماذا يبقى للأمة إن آتت هذه الحملات الضالة مهمتها ، وفكت الارتباط بين الأجيال الناشئة وبين عقيدتها ودينها وتاريخها وحضارتها ؟ ماذا يبقى ؟!

والشاشة الصغيرة تعرف كيف تسرق الوقت ... تبتزه ... بإغراء عشاقها في الجلوس قبالتها صباح مساء ، تاركين مطالب الحياة اليومية ، والمعيشية ، والتربوية والثقافية والتعبدية ، بالتصاقهم الساعات الطوال مع الشاشة الصغيرة التي تملك القدرة المدهشة على هدر الوقت فيما تقدّمه من منوعات لا تكل ولا تمل ...

ومع هدر الوقت ، هناك التأثيرات الصحية السلبية على سوية الإنسان الذي يجلس محدقاً في الشاشة المشعّة الساعات الطوال ... انها ستؤثر بالتأكيد على قوة نظره ، وستضعفها شيئاً فشيئاً حتى تسوقها إلى الدمار ... ناهيكم عن تأثيرها على الجملة العصبية للإنسان وتعريضها للتآكل والاضطراب ، فيما ينعكس على العديد من الأمراض النفسية التي تنتاب المدمنين على الجلوس وراء الشاشة الصغيرة مما هو مؤكد في دراسات الأطباء وإحصاءاتهم الميدانية.

وإلى جانب هذا وذاك ، هنالك ما تقود إليه جلسات التلفاز الطويلة من عزلة اجتماعية ، وتأثير ملحوظ على التكيف الاجتماعي والروابط الأسرية ... لقد قضى التلفاز على الأمسيات العائلية المترعة بالود والمحبة والحوار الجميل وقضاء الساعات في أجواء الانسجام والأحاديث الطيبة ، وجعل كل فرد في الأسرة يعيش حياته منفرداً عن الآخرين حسّياً ، وشعورياً، واجتماعياً ، وكأنه في وادٍ آخر ...

كلنا بدأنا نحس بهذه القطيعة الأسرية بين أفراد العائلة الواحدة ... وغياب الانسجام والتوحّد والمحبة ... فيما يقود أحياناً إلى النرفزة العصبية بين بعضهم وبعضهم الآخر ... لأدنى تصرف أو سلوك أو أيما كلمة عابرة تقال !!

هذا إلى أن الثقافة المتضحلة الجاهزة التي تقدمها الشاشة الصغيرة عبر الساعات الطوال ستقود الأجيال التي تستسلم لهذه الثقافة ، فلا تعمل عقلها وجهدها في الظواهر والأشياء وتمرّن نفسها على التفكير الإيجابي السليم كما كانت الأجيال السابقة تفعل ... هذه الثقافة ستقود المدمنين عليها إلى نوع من الكسل العقلي ، الذي يستسلم للسندويجات الثقافية الجاهزة ،

فلا يسعى إلى الاشتغال الفكري الجادّ في تنمية قدراته المستقلة على البحث ، والمقارنة ، والاستنتاج ، والنقد ، والرفض والقبول ...

يرتبط بهذا أخيراً وليس آخراً فك ارتباط شبابنا المدمنين على الشاشة الصغيرة بالكتاب ... بالمطالعة الخارجية ، باعتبارها هي الأكثر فاعلية في النشاط المعرفي وتنمية القدرات العقلية والثقافية للمطالع ... إن عشرين سنة ، أو ثلاثين سنة من الجلوس وراء الشاشة الصغيرة لن تخرّج باحثاً ولا مفكراً ولا أديباً ولا مبدعاً ... لأنهم يجلسون في حالة التلقي المعرفي السلبي ، والسهل والبسيط الذي لا يحفز العقل على الجدل والنشاط الذهني والتعامل المعمّق مع عالم الأفكار ... والذي يفعل هذا هو الكتاب ... وبدونه يخشى أن تنتهي عصور المفكرين والمثقفين والكتاب والمبدعين ... ونستقبل أجيالاً من الأميين الذين نلتقيهم في برامج من أمثال (وزنك ذهب) و(اربح المليون) ... حيث لا يعرف أحدهم أين يقع جبل أحد ... فيقول بعد تفكير طويل : في مكة !!

قبل أربعين أو ثلاثين سنة كان الجميع يقرأون ... الطالب والمعلم والمدّرس والأستاذ ... وكانت القراءة الخارجية خبزهم اليومي يتابعونها صباح مساء ، لا يكلون ولا يملّون ، فيشكلون بذلك فضاءهم المعرفي ويبنون شخصياتهم المؤثرة ... وكانت المكتبات العامة أشبه بخلايا النحل التي تعجّ بالقرّاء والمطالعين ... وكان جيلنا يداوم فيها عبر مرحلتين : صباحية ومسائية ، ثم يعود ليلاً إلى الدار لكي يواصل القراءة حتى ساعة متأخرة من الليل ... لم يكن ياسره شيء اسمه (الشاشة الصغيرة) !!

ونحن أمة (**اقرأ**) التي تنزّل كتابها العظيم في كلماته الأولى بمفردات القراءة والعلم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق ، (الآيات ١-٥).

ولكننا للأسف الشديد لم تعد نقرأ ... وهنالك إحصائية تقول ان المواطن الغربي يقرأ في السنة الواحدة مائتي ساعة والمواطن العربي خمس دقائق فقط ! والسبب أنهم عرفوا كيف يبرمجون وقتهم اليومي بين المطالعة والشاشة ... ونحن فقدنا المعايير والتصقنا بالشاشة ونسينا الكتاب ...

ولطالما سألت طلبتي في الدراسات العليا عن عدد الكتب التي يقرأونها في العام الواحد ، فإذا بمعظمهم لم يقرأوا كتاباً واحداً وهم بصدد الحصول على الدكتوراه ... وكنت أقول لهم : صحيح أنكم ستحصلون عليها ، ولكنكم ستتخرجون أميين ، وسينكشف عواركم أمام طلبتكم أو عبر الندوات والمؤتمرات التي ستدعون إليها.

فأي مأساة هذه وأنت تجد حتى أولئك الذين يحملون درجة الأستاذية لا يقرأون كتاباً واحداً في السنة ... فماذا سيقدّمون لطلبتهم من علم ومعرفة ، وبم ستكون قدرتهم على تخريج أجيال من المبدعين ؟

لقد أسرتهم الشاشة الصغيرة فأهملوا الكتاب !!

والطريق ليس مقفلاً ولا مسدوداً ... والاستسلام لتحديات الشاشة الصغيرة ليس قدراً نهائياً ... فهنالك في المقابل القدرة على الاستجابة ، وترتيب صيغ التعامل ... وتحويل الحالة السلبية إلى حالة إيجابية يمكن أن تقدم لنا الكثير وتمنحنا العديد من الفرص الممتازة للتوظيف ... فقط إذا خلصت النيّات ، وأعملت القدرة على التخطيط الذي يستهدف وضع كل شيء في محلّه تماماً ...

هنالك – على سبيل المثال – ضرورة توسيع مساحات التغطية للزمن التلفازي بحلقات الايجاب لطرد حلقات السلب وتضييق الخناق عليها ... وتحويل هذا الجهاز الفاعل إلى أداة للتوجيه ، والبناء ، والتثقيف الحقيقي ، وتقديم الحقائق كما هي لا كما يراد لها أن تكون ... فضلاً عن المتعة المنضبطة التي لا تشرد بالمتلقي صوب بؤر القبح والبشاعة والفجور ... الفكري والأخلاقي والسلوكي ...

إن كل برنامج حواري هادف يقدم على الشاشة ... كل خبر موضوعي بعيد عن التحيّز أو المبالغة ... كل سهرة درامية نظيفة ... كل فيلم يعالج مشكلة ملحة من مشاكلنا الاجتماعية ... كل صيحة حق في مواجهة الطواغيت والأرباب ... كل كشف عما وراء الستار مما يحاك لهذه الأمة من تدابير ومؤامرات ... كل عرض كارتوني هادف للأطفال ... كل نشيد مؤثر ... نظيف بكلماته وألحانه وأدائه ... كل ندوة أو مؤتمر مما يعقد لطرح ومناقشة العديد من القضايا الملّحة التي تهم المثقف المعاصر ... هذا كلّه وغيره كثير يمكن أن يغطي مساحات كبيرة من الزمن التلفازي فيطرد معطيات السوء ويحوّل الشاشة إلى أداة فاعلة في التغيير والتثقيف ... والامتاع.

يرتبط بهذه ضرورة توسيع عدد القنوات الفضائية التي تخاطب العالم كلّه ... وتغطية زمنها بالإبداعات الهادفة ... والأعمال البناءة ... والبرامج المتعة ... شرط ألا نكتفي بخطاب بعضنا بعضاً بلغتنا العربية ... بل أن ننشئ فضائيات ترفع الخطاب الإسلامي والخبرة الإسلامية المتألقة إلى سمع العالم بلغاته الأم : الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية والروسية ... الخ من أجل توظيف " الفضائيات " لتوصيل كلمة الله إلى سمع العالم وعقله وقلبه ووجدانه ، بأكثر الصيغ عقلانية ، واعتدالاً ، وتأثيراً ... ولاختراق العقل والوجدان الغربي بالحقائق الإسلامية الأصيلة والمشعّة التي طمست عليها رياح التشريق والتغريب ، ولعبت الصهيونية تحديداً دوراً

فاعلاً في إقامة المتاريس والسدود بينها وبين العقل الغربي المسيحي الذي لو أتيح له التعرف عليها ، أو على جانب منها ، لتغيّر موقفه بزاوية ١٨٠ درجة ... كالذي فعله – على سبيل المثال – عرض فيلم (الرسالة) في دور السينما في لندن وباريس وبرلين ...

هنالك ضرورة برمجة توظيف الشاشة لأغراض البحث العلمي والثقافة الجادة والإفادة من إمكانات الكومبيوتر والانترنيت المدهشة في توصيل المعلومات بسرعة قياسية تعين الباحثين على توظيف الزمن والقدرة البشرية على إنجاز المزيد من الدراسات والبحوث ...

هنالك ضرورة تحديد ساعات التعامل مع الشاشة بحيث لا يترك لها المجال للاستئثار بالمتعاملين معها الساعات الطوال ... التي تدفعهم دفعاً إلى التخلّي عن مطالب الحياة اليومية والاجتماعية والتعليمية ، والتربوية والوظيفية ... والرياضية ... هذا التحديد الذي يتعاون على برمجته والالتزام به كل من الآباء والأمهات والأبناء أنفسهم ... فضلاً عن المعلمين والتربويين والإعلاميين ... من أجل تحقيق التوازن العادل بين الجلوس إلى الشاشة وبين الانصراف إلى مطالب الحياة بشعبها كافة ...

يرتبط بهذا ضرورة حضور الآباء الجاد والمتواصل لضبط وبرمجة مفاتيح الإرسال وقنواته ... كي لا يجد الأولاد في غيابهم الفرصة للاطلاع على العروض السافلة ، والمدّمرة للقيم التربوية والسلوكية ...

كذلك لابدّ من حضور فاعل ومؤثر للأب والأم والمسجد والمدرسة والمجلة والكتاب قبالة الأطفال والمراهقين لمنحهم الزاد الفكري والتربوي الذي يعطيهم المناعة الذاتية قبالة كل صنوف التفكيك والتخريب التي تمارسها الشاشة الصغيرة ... فالذي يتحصّن بقوة الفكرة وسلامة التوجيه التربوي لا يخشى عليه من حيث أنه سيجد بين يديه المعايير الثابتة التي يقيس بها وعليها الصالح من الفاسد ، فيقبل على الأوّل ويبتعد عن الثاني دونما توجيه أو رقابة خارجية ... وها هنا يأتي دور الايمان الذي يعزّز الرقابة الإلهية في وجدان الإنسان تلك التي لا تعزب عنها مثقال ذرة في السماوات والأرض ... والتي تحاسب على كل صغيرة أو كبيرة ، والتي لا تغفل ولا تنام ... الرقابة التي تكون بمثابة الوازع الذاتي الذي يضبط سلوك الإنسان ، ويصدّه عن الوقوع في الحرام ...

وثمة ضرورة إيجاد بدائل ترفيهية وتعليمية وتعبدية ورياضية لتحرير المشاهد ... من الشاشة والإدمان عليها ... ولتمكينه من التحقق بحياة ممتلئة ومتوازنة بين المطالب العقلية والروحية والجسدية ... الأمر الذي سينعكس عليه ولا ريب صحة وعافية ، وعلماً وعبادة ورياضة ... ويخرجه من دائرة " الملل " الذي تسوق إليه ساعات الاسترخاء طويلة المدى أمام شاشات التلفاز ...

وأخيراً ... وليس آخراً لابدّ من إعادة الارتباط بالكتاب ، وتقاليد المطالعة الجادة ، وعشق المقروء ، إلى شبابنا الضائع الذي فك منذ أكثر من ثلاثة عقود ، ارتباطه بالكتاب ... واكتفى بتلقي معرفته عن طريق المدرسة والجامعة ... أو الجلوس وراء الشاشة الصغيرة ... رغم أن هذين المصدرين لا يمكن بحال من الأحوال أن يخرجا المبدعين والكتب والباحثين والأدباء ... فالذي يخرّج هؤلاء هو الكتاب ... أو ما أصطلح عليه بالقراءة الخارجية ...

وأيّة قراءة هذه التي يتم الحديث عنها ؟ إنها القراءة المنتجة وليست الاستهلاكية ، كما لو أنك تقرأ في صحيفة يومية ، القراءة التي تتشرب مفاهيم الكتاب ، وتدخل في جدل معه ، والتي تنوّع في مطالعاتها في شتى مناحي المعرفة ... ذلك أن التنوّع يعد ضرورة من ضرورات تكوين الشخصية الفاعلة المؤثرة ... فالاقتصار على القراءة في حقل التخصص سيجمد الفكر ، ولا يعينه على الحركة المطلوبة في سنن الكتابة والإبداع ...

هذا – بإيجاز شديد – ما يخطر على البال من وسائل مجابهة تأثيرات الشاشة الصغيرة على عقول وسلوك أجيالنا الناشئة ... ولابدّ من التفكير الجاد بالأخذ بها بالجدّ المطلوب ... وإلاّ فهي الكارثة !!

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة المسلمة والعمل السياسي

" محاضرة ألقيت في مقر الحزب الإسلامي بالموصل في مايس عام ٢٠٠٤م ".

أيها الحضور الكرام ... أخواتي الفضليات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

لست فقيهاً لكي أدلي برأي حول الحلقات الممكنة والمطلوبة ، والحلقات الممنوعة لعمل المرأة السياسي ... انما هي مرئيات قد تتجاوز دائرة العمل السياسي الصرف إلى نشاط المرأة المسلمة في حلقاته كافة ...

ابتداء فان نقاط الارتكاز في موضوع كهذا تتطلب استدعاء نمطين من الضوابط : الشرعية (الموضوعية) والذاتية. في الأولى لابدّ من الارتفاع إلى مستوى الفقه المقاصدي ، وفقه الموازين ، والأولويات ، وفقه المصالح المرسلة الذي يشتغل تحت شعار (أينما تكون المصلحة فثم شرع الله) ... إن هذا المستوى سيحرّر الجهد المطلوب للمرأة من الكثير الكثير من الإعاقات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي عرقلت حركته ، والتي تراكمت عبر فترات تخلّفنا الحضاري دون أن تستند إلى أساس فقهي سليم.

إن هذا المستوى المتألّق في الفقه الإسلامي سيعطي المرأة فضاءً واسعاً للعمل السياسي والاجتماعي والثقافي والتعليمي والتربوي والوظيفي ... و ... و ... الخ ... سيفتح أمامها الكثير من السبل التي تمكنها من التحقّق بحضورها الفاعل في قلب الحياة الإسلامية ، جنباً إلى جنب مع شقيقها الرجل ... من أجل اغناء هذه الحياة بالخبرات المشتركة للجانبين معاً ، وقطع الطريق على خصوم هذا الدين الذين طالما ردّدوا مقولة أن الإسلام يعطل نصف طاقات المجتمع بكف المرأة عن العمل واعتقالها في البيت ... هكذا بهذه المقولة الساذجة التي لشدة تكرارها وإدارتها على الألسنة عبر الخطاب الإعلامي المعكوس ، غدت أشبه بالحقيقة التي يجب التسليم بها.

ها هي ذي المرأة في عصورنا المتألقة : النبوية والراشدية والأموية والعباسية ... الخ ... تدخل الحياة العامة دونما أي قدر من التردّد أو الحساسيات ... مقاتلة ... معلمة ... مربية ... داعية ... متعبدة ... ممرضة ... طبيبة ، عالمة ومتعلمة ... بل وحتى مشاركة في الهمّ السياسي العام ...

لم يقل أحد من الفقهاء الكبار يومذاك ، ان هذا حرام ، وأن على المرأة أن تحجر نفسها في البيت منصرفة إلى شؤون الأسرة والطبخ وتربية الأطفال ... وأن عليها ألا تغادر بيتها إلاَ إلى القبر !!

إن هذه جملة اعتراضية اخترقت نسيج حياتنا الإسلامية عبر زمن تخلفنا الحضاري ، وانكسارنا السياسي وعزلتنا التاريخية ...

فها هي ذي المرأة المسلمة تعود ، زمن الصحوة ، كما فعلت أوّل مرة لكي تسهم في الحياة العامة ، وتحمل هموم الأمة ، وتشارك مشاركة فاعلة في إعادة صياغة المصائر والمقدّرات ... ولقد رأيت هذا بأم عيني في دول كالمغرب والسودان وتركيا والأردن ... ثم ما لبثت أن لحقت بها بيئات عربية وإسلامية أخرى ، حيث الحضور المؤكد للمرأة المسلمة في الحياة العامة ، والمشاركة الفاعلة في همومها السياسية كحق التصويت والترشيح ، والجلوس في مقاعد البرلمانات ، والحضور الإعلامي الفاعل ، والدخول في المناقشات السياسية الحامية ، ورمي ثقلها في هذا الاتجاه ، أو ذاك ، مما تراه أقرب إلى قناعاتها المستمدة من رؤيتها الإسلامية للوقائع والأمور.

حضور مؤكد ... وشخصية آسرة ... في الندوات والمؤتمرات جنباً إلى جنب مع الرجل ... بل انني كنت ألحظ كيف أن وجود المرأة في احتفاليات كهذه يتفوق على وجود الرجل ... وهذا الأمر ينسحب أيضاُ على المؤسسات التعليمية الأوّلية والجامعية ... حيث الازدياد الملحوظ في الساحة التعليمية ، والمشاركة الجادة في النقاش الدائر عبر الدروس اليومية والمحاضرات.

وهذا الدور يزداد تأكيداً بمرور الوقت ، فيما يذكرنا بما فعلته المرأة المسلمة في عصور الازدهار الحضاري حيث أكدت حضورها الفاعل ، ليس فقط في سياق الحياة الاجتماعية والثقافية والتعليمية والتربوية والدعوية ، وانما في النشاط السياسي كذلك حيث لا يتسع المجال في محاضرة كهذه لا يراد الشواهد التاريخية ، وهي كثيرة ، بحيث أنها تذكرني بمحاضرة ألقاها احد الأساتذة الجامعيين عن دور المرأة في الحياة العلمية في العصور العباسية فإذا بها تكتظ بأسماء العالمات من ذوات العطاء العلمي تدريساً وتأليفاً ... وإذا بها تتجاوز الساعة والنصف ، وتتطلب المزيد.

هذا بإيجاز شديد على مستوى الضوابط الشرعية الموضوعية للمسألة ... أما على مستوى الضوابط الذاتية فعلينا أن نتذكر الآية القرآنية التأسيسية التي تقول : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ... ﴾(سورة الرعد ، (الآية ١١). ذلك أننا كمسلمين ، رجالاً ونساء ، ما لم نبذل جهداً يومياً صعباً ، أو بتعبير الرسول (صلى الله عليه وسلم) جهاداً أكبر لتغيير ما استقرّ في أنفسنا من قناعات خاطئة ، وممارسات ملتوية ، وسلوكيات منحرفة لا يقرّها شرع ولا دين ... ما لم نقم بعملية كنس شاملة لكل مفردات السوء في ذوات أنفسنا ، فلن نتمكن بحال أن نقفز إلى الخارج لممارسة التغيير سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً ... الخ ... وكما يقول المثل فالذي يسكن بيتاً من زجاج لا يمكنه أن يضرب الناس بالحجارة ... فعلينا إذن أن نقيم بنيان أنفسنا وذواتنا وخبراتنا وسلوكنا على أساس سليم لكي نقدر على إقناع (الآخر) بمصداقية

خطابنا الذي لو حاولنا توجيهه إليه ألف سنة لما قدر على أن يزحزحه عن موقعه ، ما لم يكن صادراً عن وضع إنساني متماسك ، متوحّد ، سليم على كل المستويات.

لابدّ في عملية التغيير الذاتي هذه ... أن تعمل المرأة على مستوى الفكر ، أي أن تمارس جهداً موصولاً لتنمية وعيها بفكر الإسلام ، وبفقهه ، وبمطالب الواقع المتغيرة وتحدياته المتجددة ... ولابدّ كذلك – على مستوى السلوك – من أن تنسلخ عن (الأنا) وتندمج في المطلب العام ، لأن (الأنا) هذه كثيراً ما نحرت جماعات وأحزاباً وهيئات وأنشطة قدّر لها أن تضع مصائرها بأيدي قيادات (أنانية) لا تعمل سوى ما يدور في ذهنها ، بعيداً عن مطالب الشورى التي هي الأساس المتين للوصول إلى القرارات الناجحة ، والحلول القديرة على مجابهة التحديات.

جهد ذاتي يتحرك على كل المستويات من أجل تخريج المرأة – النموذج القديرة على المشاركة الفاعلة ، المؤثرة ، في الحياة على امتداد هذه الحياة ... في السياسة وفي الاجتماع وفي التربية والتعليم وفي الإعلام ... وفي كل صغيرة وكبيرة مما يهم المسلم ، رجلاً أو امرأة ، أن يسهم في بنائه وفق منظوره الإسلامي ، من أجل أن تستقيم الحياة كما أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون ، وليس كما يريد لها كهنة الفكر الوضعي ، وعرّابوه ، وسلاطينه من الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً.

والآن يجيء الدور للتأشير على فضاءات النشاط العام للمرأة المسلمة ، وحجر الزاوية – ولا شك – في هذا النشاط هو تفريغ الجهد المركزي الأكبر للأسرة والطفولة ، بما أن المرأة سايكولوجيا وبيولوجيا مهيأة تماماً لأداء هذا الدور ، واحتضان مطالب الأسرة ، وتربية الأطفال ، بما يجعلها – بحق – المدرسة الأساس لتخريج الأجيال القديرة على حمل الراية ومواصلة الأداء ... وكما يقول الشاعر أحمد شوقي :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراقِ

إن حالات الشذوذ والجنوح لدى الصبيان والشباب ينتج معظمها عن انحراف دور الأم في مهمتها هذه ، وغيابها عنهم ، وعدم تقديم ما هم بأمس الحاجة إليه من الحنان والعطف ... وعن الخصام والنكد المتواصل بين الآباء والأمهات داخل الأسرة الواحدة ... ولا أريد أن أطيل الحديث في هذه المسألة التي تعد بديهية من بديهيات الحياة ، لولا ذلك الإلحاح اللعين على مقولة الملاحدة والعلمانيين بأن حجر المرأة في البيت هو إذلال لها ، وتحقير لسويتها الإنسانية ، وإنزال بها عن مستوى الندّية للرجل ، فيما ترفضه التجربة المعيشة التي أكدتها جملة من النساء الغربيات اللواتي انتمين لهذا الدين ، لا لشيء إلا لأنهن وجدن في أسرته الأمن والسكينة والرضا

والاطمئنان فيما أخرجهن من الحياة الأسرية الغربية المترعة بالكدح والشروخ والخيانات والعقوق ... حيث الزوجة لا تأمن على زوجها من معاشرة الأخريات ، ولا يأمن هذا على ذرّيته من أن تأتي من صلبه ... وحيث يتمرد الأبناء على الآباء والأمهات ويرمون بهم في دور الملاجئ تخلصاً منهم ... فيما يشهده القاصي والداني على شاشات التلفاز.

بل إن منطوق المرأة والأسرة يرغم زعيما شيوعيا كلينين ، مؤسس الاتحاد السوفياتي ، على أن يمارس أول نقض لمفاهيم المانيفست الشيوعي الذي أصدره مؤسسا الماركسية ماركس وانغلز في منتصف القرن التاسع عشر ، والذي يدين الأسرة والزواج ويصفهما بأنهما من آثار البورجوازية التي يتحتم القضاء عليها بانتصار الطبقة العاملة ... ها هو ذا يرى بعد سنتين فحسب من قيام الدولة الشيوعية أن غياب الأسرة سيقود أبناء السوفيات كلهم إلى أن يكونوا (أولاد حرام) ... وإذا به يعلن عن ضرورة العودة إلى الزواج ، وبناء الأسرة ، إذا أريد للدولة الشيوعية أن تنهض قائمة على أسس سليمة.

ولكن إلى جنب هذا كلّه ... من قال بأن على المرأة المسلمة أن تظل أسيرة البيت بحجة رعايتها للأسرة وتنشئتها للأطفال ... فها هي قد خرجت في زمننا هذا ، وعبر مراحل مختلفة من التاريخ ، لكي تمارس العمل الدعوي والثقافي : دراسة وتدريساً ومحاضرة وبحثاً وحضوراً في الندوات والمؤتمرات ونشاطاً إعلامياً ... وها هي ذي تمارس العمل السياسي على مستوى الجمعيات والأحزاب ، وتسهم في المفاصل العليا التشريعية والتنفيذية والقضائية ... ثم ها هي ذي تمارس نشاطاً إعلامياً واسعاً في عصر " الإعلامية " ، وتشارك بفعالية عالية في الأجهزة المرئية والمسموعة ، وفي الكتابة للصحف والمجلات ... بل ان هنالك العديد من المجلات والأبواب الثابتة الخاصة بالمرأة ... وإن كان هناك من يتحفظ – بحق– ويرى ضرورة عدم الفصل بين الجنسين في المجال الصحفي ، أي أن تكون المرأة المسلمة حاضرة مع الرجل في الصحف والدوريات والمجلات.

أيها الحضور الكرام ... مرةً أخرى ... إن انحسار المرأة المسلمة عن المشاركة الفاعلة في الحياة العامة ، واكتفائها بالجلوس في البيت ، حدث زمن انكسارنا الحضاري ، وتزامن مع النكسة الاستعمارية لديارنا ... وأن علينا ألا تدفعنا ردود الأفعال الخاطئة وغير المدروسة ، على القفز على الجغرافيا والتاريخ والتقاليد الأصيلة في حياتنا الاجتماعية.

إن التقيّد بالموروث الخاطئ سيزيد التراكمات ، وبالمقابل فان استيراد القوالب الجاهزة من الآخر سيزيدها تعقيداً ، لأنه مقتبس من بيئة غير بيئتنا وحضارة غير حضارتنا ... والجواب هو تحقيق المقاربة مع المطلوب الإسلامي بالجهد المتواصل ، وبتأصيل الذات في مواجهة كل صنوف الابتزاز والاحتواء ... مما يدعو إليه أولئك المتأثرون بحضارة الغرب العلمانية ،

والمعجبون – على غير هدى – بموقع المرأة فيها ، ذلك الموقع المترع بالتناقضات والشروخ ... وبالتعاسة والعذاب ... وبسحب المرأة بعيداً عن سويتها النفسية والاجتماعية التي فطرها الله عليها.

وحينذاك سيتحقق النموذج الذي تتوق إليه المرأة في كل مكان مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ (سورة النساء ، (الآية ٢٧).

فلنكن حذرين من اللهاث وراء الآخرين في قضية عمل المرأة ونشاطها السياسي ، لكيلا ينطبق علينا قول المؤرخ ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) " خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين " !! ولنعتمد بدلاً من ذلك المبدأ المعروف في ستراتيجيات القتال والمعارك " الهجوم خير وسيلة للدفاع " وذلك بأن نقوم بكشف متواصل وبأسلوب علمي وتوثيقي لحلقات الخلل في الخبرة الوضعية بخصوص المرأة ، والأسرة ، والعمل ، وعرض البدائل الإسلامية.

منذ بدايات القرن الماضي حدّثنا المتحدثون والكتاب عن حدث يحمل دلالاته العميقة في هذا المجال. لقد كانت (إسطنبول) عاصمة الخلافة الإسلامية واحدة من أنظف مدن العالم في مجال العلاقات بين الرجل والمرأة ، فلما دخلها الغربيون تحت مظلة الإصلاح والتحديث ... لما غزتها قوانين (بونابرت) الوضعية وأبعدت مفردات الشريعة الإسلامية شيئاً فشيئاً ... لما أخذ الطلبة الأتراك يذهبون إلى عواصم الغرب ثم يرجعون بالشهادات أو بدونها ... بدأ الطفح الأحمر يظهر على جلد (إسطنبول) ... والزهري والسيلان وكل السموم الجنسية المدمرة تتسرب في شرايينها. ويذكر (شمتز دوملان) في كتابه (الإسلام) أنه " عندما (غادر الدكتور مافرو كور داتو) الاستانة سنة (١٩٢٧م) إلى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهري وهو السفلس المعروف في الشرق بالمرض الافرنكي ، فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين تبدلت الحال غير الحال. وفي ذلك يقول الصدر الأعظم (رشيد باشا) في حسرة موجعة : اننا نرسل أبناءنا إلى أوربا ليتعلموا المدنية الافرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الافرنكي " !

كانت الخطوة الأولى ... الخطوة الضرورية ... وأعقبتها بقية الخطوات ... صار العملاق العثماني الذي دق أبواب فينا ، رجلاً مريضاً ، وراحت السكاكين تعمل في جسده الممزق ، حتى انتهى الأمر إلى قتله تماماً على يد واحد من المحسوبين على جغرافية الإسلام ... وجاء من بعده عشرات القادة لكي يواصلوا المهمة. ومن قبلهم ، ومعهم ، وربما بعدهم ، واستمرت شبكة

السماسرة في دوائر الفكر والثقافة والإعلام والاجتماع تمارس مهمتها المعكوسة ، فترفع شعار تحرير المرأة لكي تصل بها في نهاية الأمر إلى التعهير !

عدد ليس بالقليل من النساء الغربيات أنفسهن ، كما سنرى ، كن يجدن في الحياة الإسلامية ... في جمال المرأة والأسرة والطفولة ، المثل الأعلى والصيغة المرتجاة للأمن والاستقرار والعطاء والسعادة ... وكن يتقن إلى التمتع بعشر معشار ما تتمتع به المرأة المسلمة. وأغلب الظن أن عدداً من القراء والمتابعين لا يزالون يذكرون ، من بين وقائع كثيرة ، ذلك المؤتمر النسائي الحاشد الذي نظمته وزيرات المرأة والأسرة في الحكومات الألمانية الإقليمية عام (١٩٩١م) والذي كان بمثابة تظاهرة نسائية رسمية ضخمة استهدفت تأكيد دور المرأة في المجتمع الألماني. وقد طالبت النساء في المؤتمر بالحقوق التي تتمتع بها المرأة المسلمة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، وخاصة بالنسبة لاحتفاظ المرأة الألمانية باسم والدها بدلاً من اجبارها على حمل اسم زوجها. وحيّت النساء المحتشدات قرار المحكمة الدستورية في المانيا (الاتحادية) الذي أقرت فيه بعدم حتمية قيام المرأة بحمل اسم زوجها ، وأنه لها الحق في الاحتفاظ باسم والدها إن ارادت.

قبل ذلك بحوالي العقدين من الزمن كانت الساحة الإيطالية قد شهدت هجوماً مضاداً آخر في مواجهة الميل بالمرأة والأسرة عما أراده لها الله سبحانه وتعالى ... تلك الضغوط المتواصلة في البرلمان الإيطالي ... على بعد خطوات من الفاتيكان زعيمة الكاثوليكية في العالم ... والتي تزعمها أشد البرلمانيين ليبرالية ، من أجل إقرار حق الطلاق للرجل الإيطالي ، بعد حجبه القرون الطوال.

بل إن بعض النسوة الغربيات انتمين إلى الإسلام من أجل أن يذقن التجربة ويبعدن عن مواطن التفكك والرذيلة والعفن والقلق والسعار الذي يحكم حياة المرأة الغربية حتى لم تعد الكثيرات منهن يأمن على أزواجهن من المعاشرة اللاشرعية ، ولم يعد الأزواج انفسهم يأمنون على الذراري والأبناء ، ويضمنون انحدارهم من الأصلاب !

هذا كلّه يتسّرب بدعاوى (قاسم أمين) و(أمينة السعيد) وكل السماسرة الذين اطلقوا على أنفسهم دعاة تحرير المرأة ... يتسرب إلى حياتنا فيستبدل الذهب بالتراب ، ويكون هذا الذي كان...

وليس ثمة أمة كهذه الأمة المسماة تجوزا " بالإسلامية" تجهل كل فن مجد في صيرورة الحياة وتناميها ولكنها تحذق فنّ هدر الطاقة والتفريط بعناصر التميز والتفوق ، واستبدال الغالي بالرخيص.

في سياقات عديدة تمت الصفقات الخاسرة في التاريخ الحديث والمعاصر لهذه الأمة ... في مجال الاقتصاد والسياسة والحرب والعلم والأخلاق ... وها هنا في سياق المرأة والأسرة ، وها هو القانون نفسه يعمل عمله بواسطة جيش من السماسرة وأدعياء التقدمية والتحرر ، لكي يفرّط بواحدة من أكثر الحلقات في الحياة الإسلامية تميزاً وتفوقاً ، ويحل محلها : التفكك والعفن والرذيلة والخراب والشذوذ والزهري والسيلان ... وأخيراً الإيدز الذي أخذ يدق الأبواب.

هذا كله كان ، ولا يزال قائماً حتى اللحظات الراهنة في ديارنا ، رغم أنه حوصر إلى حد كبير بقوّة معطيات الصحوة الإسلامية ومطالب الفطرة البشرية التي تميل للطهر والعفاف والنظافة والاستقرار ، والتي لن تحظى بتحققها المأمول إلاّ في إطار هذا الدين.

إلا أن المفاجأة التي حدثت ، فيما لم يكن أحد يحسب له ايما حساب ، أن المكر السيء أحاق بأهله ، وتلك هي واحدة من سنن الله (سبحانه وتعالى) في خلقه. وليس المقصود هنا حشود السماسرة الذين مرروا العملية ، فهؤلاء ليسوا بأكثر من أدوات أو آلات للتوصيل ... وإنما الحياة الغربية نفسها التي أخذت تتلقى الهجوم المضاد في قضية المرأة ... في عقر دارها ... عبر العقدين الأخيرين على وجه الخصوص. وأصبح هذا " الغزو " إذا صح التعبير ، أو الهجوم المضاد ، يمثل بمرور الوقت هاجساً ملحاً في دوائر الحياة الغربية على مستوى السلطة والمجتمع ، وأخذ يتصاعد حتى كاد يدفع بعض القيادات الغربية إلى تجاوز ما يسمى هناك بالثوابت الديمقراطية من أجل وقف الظاهرة التي أخذت تهدد الحياة الغربية ، على ما تصوروا هم بحكم التقاليد الفكرية والسلوكية وضغط الأعراف والمسلمات الخاطئة القادمة من عمق الزمن الأوروبي.

أمامي الآن مقال للمفكر الفرنسي (برنارسيشير) بعنوان " الحجاب العرب ... ونحن " ينطوي على بعض المعطيات المهمة ، وهي تمسّ كما يبدو من العنوان ، إحدى الحلقات المهمة في موضوع المرأة المسلمة ، ولا أقول قضيتها ، ألا وهو (الحجاب) ... فها هو الحجاب يقتحم العري الفرنسي ... التهتك الباريسي المعروف ، ويفرض حضوره في قلب المجتمع ... فكيف كانت رؤية الفرنسيين أنفسهم للظاهرة ؟ كيف كانت ردود الأفعال ؟

حين تحجبت بعض الفتيات في (الليسيه) يقول سيشير ، تحركت الطبقة السياسية وراح يدلي كل بدلوه حول الاحترام الواجب تجاه بلد الضيافة (وهو يقصد ضرورة احترام التقاليد الفرنسية من قبل أولئك الغرباء الذين قبلتهم فرنسا ضيوفاً عليها ، بغض النظر عن القيمة الأخلاقية الحقيقية لهذه التقاليد) حتى إن أحد الوزراء هدد باتخاذ موقف ، واجتمعت أخيراً الهيئة الدستورية ، في حين كان يعلن بعض المثقفين – جهاراً – أن الوطن العلماني في خطر !

ويمضي سيشير إلى القول بأنه مهما بلغت قدرة عملاء العروض المشهدية على التلاعب والتأثير – وهم لم يترددوا في ممارستها بوقاحتهم المألوفة – فإن حادثاً كهذا لا يكتسب مثل هذه الأهمية ولا يثير مثل هذه الأصداء ، إلا إذا كان يمس الطبقات العميقة من الوعي الجماعي. وبما أن من تحرك هذه المرة ليس من أتباع (الساسة الفاسدين) وإنما من المفكرين اللامعين الذين اجتاحتهم فجأة موجة من الغضب المفرط ... فيجب أن نبحث عن الدوافع البعيدة ... إنها أعراض (بواتييه) المرضية !

إذن فإن تراكمات التاريخ والعمق الصليبي للمثقف الفرنسي الذي لا يزال يتذكر محاولة الاقتحام الإسلامي للأرض الفرنسية وهزيمته عند بواتييه ، هي التي تستفز (في تحليل سيشير) العقل الغربي لمجابهة ظاهرة الحجاب الإسلامي ، حتى لو أدى الأمر إلى خرق الثوابت الديمقراطية وضرورات " التسامح وجمال الاختلاط العرقي " التي يدعيها الفرنسيون.

ويبدو لي – يقول سيشير – أن أعراض بواتييه المرضية إنما تشهد على جهلنا العميق بحقائق الإسلام ، كما تشهد في الوقت نفسه على عودة غريبة للمكبوت تجعل العربي (المسلم بالأخص) يحل وقتياً محل اليهودي في الاستيهام العنصري والمتوتر لغيرية (Al Teroite) قوية تنذر وتهدد.

إنه " النسيان المذهل " والنفي المجنون " كما يعبر سيشير ، لأفضال الحضارة الإسلامية على الغرب " وإذا كان العرب قد بهروا ذاكرتنا القديمة وأربكوها إلى هذا الحد ، فذلك لأنهم كشفوا عن قدرتهم على ابتكار الحضارة الأكثر ألقاً وغنى ، عندما كنا لا نزال نحن في طور التخلف ، ولقد لعبت الكنيسة المسيحية ، في إطار هذا الكبت الكبير ، دوراً لا تحسد عليه أبداً ، وآن الأوان لكي تعترف بذلك خصوصاً وأن مذهبها ما كان ليتكون لولا أن سلبت الكنز النفيس الذي وصلها من الفكر الإسلامي ، ثم عملت على طمس معالمه المدهشة ".

إن الفرنسيين ، والغربيين عموماً هم ضحايا التعصب – كما يقرّر سيشير – ضحايا تشويه يجعلهم يتصورون أن تاريخهم هو التاريخ الوحيد الممكن ، ويجعلهم يسقطون من خلال هذه الأفكار (وعسكرياً من خلال الأفعال) تحديدهم للسياسة على وقائع تاريخية وثقافية تبدو لهم متطرفة لدرجة أنهم يمضون وقتهم في ترسيخ سوء التفاهم.

وبوصفي مدرساً – يقول سيشير – فإنني أتساءل : كيف لا ترون أن المشكلة الملحة ليست الحجاب ، وإنما الانهيار العام لثقافة لا تعني رجال السياسة عندنا ؟ " وتقولون إنكم تريدون حكاية هوية ؟ وأية هوية ؟ ولأن الجواب لن يكون سهلاً فمن الأفضل فتح باب المناقشة والانحياز إلى الفكر وليس إلى الخوف !

" لقد أحالتنا الحيوية الدينية الإسلامية فجأة ، إلى وعي مخيف ، ولقد عبر عنها بعض المثقفين المستنيرين من خلال ، ردود فعل مرعبة وتشنجات غير عقلانية ".

هذا بعض ما يخلص إليه سيشير وهو يعالج ردود الفعل الفرنسي تجاه ظاهرة الحجاب في سياق الموقف المسيحي العام من الظاهرة الإسلامية ببعدها الديني وعمقها التاريخي ، وهو موقف لا يعكس فكر أو عاطفة الشرائح الدنيا في المجتمع ، أو حتى الساسة (الفاسدين) ، ولكن المثقفين والمفكرين اللامعين !

أغلب الظن أن القراء لا يزالون يذكرون القرار الذي أتخذه ناظر المدرسة الفرنسية بضاحية كريل لمنع الفتيات المسلمات من ارتداء الحجاب ، وإصرارهن على موقفهن وكيف أن مسيرة شارك فيها عدد كبير من النساء والفتيات المحجبات ، اجتازت شوارع العاصمة الفرنسية في الثاني والعشرين من تشرين الأول عام (١٩٩٢م) وأعلنت رفضها لقرار ناظر المدرسة الذي دعمته حملة إعلامية وسياسية شعواء هاجمت النزعة الإسلامية مؤكدة أنها صورة من صور التعصب والإرهاب في محاولة لإضفاء صيغة سياسية على هذه المسألة حيث تركزت الجهود لإقناع الرأي العام الفرنسي بأن آباء تلك الفتيات من الأعضاء الناشطين بجماعات دينية متعصبة تسعى إلى ممارسة نشاطاتها الإرهابية في فرنسا !

رغم ذلك فإن الحقيقة كانت أكثر ثقلاً وحضوراً من كل محاولات التضليل. فبعد يومين فقط وجد وزير التربية الفرنسي ليونيل جوسبان نفسه مضطراً لإصدار قرار يحظر فيه التعرض للطالبات المسلمات المتمسكات بارتداء الحجاب. إلا أن " الحملة " ضد الحجاب ما لبثت أن تصاعدت مرة أخرى ، رافقها هجوم شرس شنته وسائل الإعلام ضد الإسلام والمسلمين في فرنسا. ويبدو أن هذا الموقف المضاد كان أقوى من تشبث هذا الوزير أو ذاك ببقايا القيم والثوابت الديمقراطية ، ووجد وزير التربية والتعليم الفرنسي الحالي (فرانسوا بايرو) نفسه مسوقاً إلى إصدار قرار يمنع الحجاب في المدارس والثانويات ، والإدلاء بجملة من التصريحات لتأكيده وتبريره ، الأمر الذي دعا اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا إلى عقد اجتماع طارئ لهيئة التنسيق لمسلمي فرنسا ، أسفر بعد تدارس الوضع ، عن إصدار البيان التالي :

" بعد الأحداث الأخيرة التي تعيشها الجالية المسلمة في فرنسا ، وتصريحات وزير التربية والتعليم الفرنسي بايرو حول قراره بمنع الحجاب في المدارس والثانويات ، عقدت هيئة التنسيق لمسلمي فرنسا اجتماعاً طارئاً لها لتدارس الوضع.

" ابتداءً تؤكد الهيئة على ما يلي :

١- أن مسلمي فرنسا مع تأكيدهم على احترام مبادئ الدولة الفرنسية ، يعتبرون أن لبس الحجاب (غطاء الرأس) لا يشكل تهجماً على المشاعر العامة للمواطنين ولا يمس بالأمن العام للبلاد ، بل يدخل في إطار الحريات الشخصية وحرية الاعتقاد التي يكفلها القانون والدستور الفرنسي ووثيقة حقوق الإنسان كما أعدّ ذلك قرار مجلس الدولة الفرنسي الصادر بتاريخ (١٩٩٢/١١/٢م).

٢- أن الحملة الإعلامية الشرسة التي شنتها وسائل الإعلام ضد الإسلام والمسلمين في فرنسا قد تؤدي إلى مضاعفات سلبية وردات فعل مرتجلة.

انطلاقاً من هذا قررت الهيئة ما يلي :

أ – طلب لقاء عاجل مع السيد وزير التربية والتعليم الفرنسي.

ب – اعتماد مبدأ الدعوة إلى اجتماع طارئ لمسؤولي الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في فرنسا لدراسة الوضع الحالي واتخاذ الإجراءات اللازمة. هيئة التنسيق لمسلمي فرنسا في (١٩٩٤/٩/١٢م).

وما من ريب في أن ظاهرة الحجاب تعكس حالة حضارية ، فضلاً عن عمقها الديني ، وأن تصدّي القيادات الفرنسية السياسية والإعلامية لها انما يجيء بشكل من الأشكال ، في سياق صراع بين حضارتين تريد إحداهما أن تؤكد عريها وإباحيتها وتسعى لأن تدافع عنهما بكل ما أوتيت من قوة باعتبارهما جزءً أصيلاً من تقاليدها وأعرافها الشائعة ، وتسعى الحضارة الأخرى إلى تأكيد سترها وانضباطها الأخلاقي الذي أرسيت أسسه منذ بدايات الخليقة حيث أريد للإنسان أن يتعفف ويتطهر ويتغطى ، وأن يتجاوز مظان القبح والفحشاء ، مؤمنة بأن ليس ثمة أية قيمة (حضارية) تكمن في الطبيعة المتعّهرة التي تكون عليها المرأة في الشارع أو الدائرة أو المعمل ، وأنه – بالمقابل – ليس ثمة أية عرقلة أو إعاقة للصيرورة الحضارية في كون المرأة ترفض التبّرج وتلتزم الحجاب.

فإذا أضفنا إلى هذا ، البعد الديني المشار إليه والذي يمكن أن يستفز ثلاث فئات من خصوم الإسلام : النصارى واليهود والعلمانيين ، فضلاً عن " الساسة الفاسدين " الذين سبق وأن صاغوا مواقفهم المنحازة من كل ما يمتّ إلى عالم الإسلام بصلة ... إذا وضعنا هذا كله في المنظور ، أدركنا دوافع هذا الهجوم الملح على الحجاب الإسلامي ، واستعداد الفرنسيين للتنازل

عن ثوابتهم الديمقراطية من أجل وقف الظاهرة عن الانتشار في الساحة الفرنسية ، وفيما بعد ، في أوربا وديار الغرب كله.

وبموازاة هذا الهجوم المضاد الذي فرضه " الحجاب " والظاهرة الإسلامية عموماً في ديار الغرب ، تلّقت الحياة الغربية في مسألة المرأة والأسرة هجمات لا تقل إلحاحاً ، انطلقت هذه المرة من مطالب الفطرة التي فطر الله الناس عليها والسنن التي ركزها الخالق سبحانه وتعالى في لحمة الخلق ، والتي اعتدي عليها وأريد لها أن تنحرف عن مسارها الأصيل إلى الحد الذي تصير فيه فلسفة لامرأة كالأديبة الفرنسية المعروفة (سيمون دو بوفوار) (وسنعتمد مفرداتها بالحرف) : " إن المرأة لا تخلق امرأة بل تصبح امرأة. فليس هناك مصير بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي يحدّد الدور الذي تؤديه أنثى البشر في المجتمع. إن المدنّية ككل هي المسؤولة عن إنتاج هذا الكائن الذي يوصف على أنه أنثوي " !!

أي تبديل هذا لخلق الله ، وأي منطلق يتناقض ابتداءً مع التفّرد المؤكد للمرأة على المستويات البيولوجية والنفسية والاجتماعية ، وهو التميز الذي يؤكده كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ويتعاملان معه من أكثر من زاوية ، ليس من أجل وضع (الأنثى) في درجة أدنى من الرجل ، وإنما من أجل الاستجابة لطبيعة مطالبها الأساسية ووظيفتها الأولى ، وهو الأمر الذي يجعل المرأة على المستوى الإنساني ، ليس فقط في حالة توازٍ مع الرجل يكمل من خلاله أحدهما الآخر. بل إن المرأة قد تحتل موقعاً أعلى من الرجل في كثير من الحلقات الأساسية للحياة البشرية ، كما يلحظ من معطيات هذا الدين في العقيدة والتشريع والسلوك على السواء.

وعلى أية حال فإن (سيمون دوبوفوار) انسياقاً وراء نزوعها المضّاد للأنثى ، فضلت أن تظل عشيقة لرفيقها (جان بول سارتر) لمدى نصف القرن على أن تصير زوجة له ، عندما طلب منها الزواج ، معتقدة أن العلاقة التي تجمعهما كانت أقوى وأهم من " ورقة " تحدد هذه الرابطة !

بل إنها اصطرعت مع (الأنثى) باتجاه آخر لا يقل خطورة ، فإذا كانت في الحالة السابقة ترفض الرابطة الزوجية التي هي أساس كل علاقة إنسانية بين الرجل والمرأة ، فإنها في الحالة الثانية رفضت أن تصير المرأة أماً وأن تكون كائناً يحرس استمرارية الحياة بحكم قوانين الفطرة. ففي عام (١٩٧١م) وقعت مع ٣٤٠ امرأة بياناً يفيد بخضوعها لعملية إجهاض تحدياً للقانون الفرنسي آنذاك. والآن ، لندع (سيمون دوبوفوار) ولنتحدث بمنطق الأرقام الذي ينطوي على مصداقيته بقوة " الإحصاء ".

بين يدي أرقام تستند إلى دراسات استطلاعية قام بها (معهد سامبل) في ألمانيا ، وإلى دراسات أخرى نفذت بتكليف من وزارة الأسرة والشباب في ألمانيا ، فضلاً عن منشورات الدائرة الاتحادية للإحصاء ، وهي من إعداد الأستاذ (نبيل شبيب) وقد نشرها في تقرير " قضايا دولية " التي تصدر في إسلام آباد (العدد ٢٤٩ أكتوبر ١٩٩٤م) :

١- تناقص عدد الزيجات منذ عام (١٩٥٠ إلى عام ١٩٩٢م) بمعدل ٢٥% ، وازدادت معدلات الطلاق بنسبة ١٦% وصلت إلى ٣٤% من حالات الزواج بمجموعها.

٢- ٢٥% من الأمهات دون أزواج. ويعيش ٢٥% من الأطفال دون أم أو دون أب. ويولد ٢٥% من الأطفال دون زواج.

٣- يعيش حوالي ١٢ مليون شخص على انفراد من أصل ٨٠ مليون نسمة.

٤- وصلت نسبة " أسر المعاشرة " إلى أسر الزواج إلى حوالي ١٠%.

٥- يوجد ٨.٦ ملايين وحدة أسروية دون أطفال و ٥.٢ ملايين بطفل واحد من أصل ٣٥ مليون وحدة أسروية.

٦- ٩٠% فئة أعمار ٢٠-٣٠ سنة يؤكدون الرغبة في الإنجاب.

٧- ٥٦% من المتزوجين والمعاشرين يريدون إنجاب طفلين على الأقل.

٨- ٢٦% لا يتمكنون من إنجاب أكثر من طفل واحد.

٩- ٢٥% يعللون عدم الإنجاب بالعمل و٢٥% بتضييق الحرية الشخصية و ٢٧% بسبب الأعباء المالية.

١٠- رغم الإباحية فإن :

- حالات الاغتصاب السنوية التي تم التبليغ عنها للسلطات ٦٣٠٠.
- التقدير الرسمي لحالات الاغتصاب دون تبلغ ٢٠٠ ألف.
- حالات التحرش دون الاغتصاب مع التبليغ ٤٢٠٠.
- حالات التحرش دون التبليغ غير قابلة للتقدير.
- حوادث الاعتداء الجنسي على الأطفال المعروضة أمام القضاء ١٦٥٠٠.
- التقدير الرسمي لحوادث الاعتداء الجنسي على الأطفال دون وصولها إلى القضاء ٣٠٠ ألف.

١١- ٥ ملايين امرأة و ٣٣% من النساء المتزوجات والمعاشرات يتعرضن للضرب من الزوج أو العشير ، وتصل حوادث الاعتداء بالضرب الذي يترك آثاراً جسدية دائمة على الأطفال إلى ٣٠٠ ألف سنوياً. ويموت أكثر من ألف سنوياً " ضربا ".

١٢- تقول دراسة جامعية إن متوسط توزيع وقت الأم أو الأب يومياً يتضمن ما يعادل ٣٠ دقيقة للولد الواحد و ٣٠ دقيقة للمكالمات الهاتفية و ٥ ساعات للهوايات ".

لنترك الآن ظاهرة دمار الحياة الأسرية وضياع المرأة وتحولها إلى آلية للمتعة الصرفة أو الربح السريع ، وهوانها على نفسها وعلى الآخرين ، فهذه مسألة معروفة تماماً. ولنقف لحظات عند اثنتين من الهجمات المضادة الأكثر حداثة : ندرة المواليد وتعرض ديموغرافيا الغرب للانكماش ، ووباء الإيدز الذي يهدد بافتراس الرجال والنساء معاً ممن تجاوزوا الإشارات الحمراء التي ركزت في فطرتهم ، وانحدروا في تيار الشهوة ومالوا بالإنسان الميل العظيم الذي حذر منه كتاب الله : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء ، (الآية ٢٧).

ومن بين التقارير والبحوث والتحذيرات العديدة التي كتبت عن المسألة الأولى أكتفي بهذا التقرير الذي أعلنته وكالة رويتر في واشنطن والذي ينطوي على دلالته الواضحة في هذا المجال : " إذا كان السيد بن واتنبيرغ على حق ، فإن النساء اللائي يفضلن الاهتمام بعملهن أكثر من إنجاب الأطفال ، سيكون السبب في فصم عرى المجتمع الصناعي الغربي.

إن المشكلة – في تحليله – تتمثل في تناقص منتظم في معدلات المواليد في الدول الصناعية الغربية ، الأمر الذي يمكن أن يقوض هذه المجتمعات (وإذا لم يتغير هذا الاتجاه فسينتهي أمرنا) ... وما أراه جديراً بالاهتمام لدرجة كبيرة هو مدى نقص وعي الناس به بالرغم من أهميّته واستمراره لفترة طويلة للغاية ... إن كندا وأوروبا الغربية واليابان وأستراليا ونيوزيلندا وإسرائيل وأيسلندا تعاني كلها من مشكلة ندرة المواليد وتحتاج إلى اتباع سياسات تحفز السكان على الإنجاب. أما عن الولايات المتحدة فيقول مكتب التعداد إن ٦٥ طفلاً فقط ولدوا كل ١٠٠٠ امرأة في سن الإنجاب عام (١٩٨٦م) وهو أدنى مستوى في تاريخ الولايات المتحدة وقد تناقص معدل الخصوبة فيها من مستوى عال سجل عام (١٩٥٧م) وبلغ ٣.٧٧ ليصل إلى أقل من ٢.١ عام (١٩٧٢م) وهو المستوى الضروري ليبقى عدد السكان ثابتاً. ومنذ ذلك الحين ومعدل المواليد حول رقم ١.٨ ويقول واتنبرغ الذي يكتب عن الاتجاهات السكانية منذ ٢٥ عاماً ، وأصدر كتاباً بعنوان (ندرة المواليد) : (أمامنا في الغرب جيل واحد لنفهم المشكلة أولاً ثم نعكس هذا الانهيار الاختياري في معدلات الخصوبة وإلا فسوف ندفع الثمن ... وأياً كان التحليل الصحيح لأثر الظاهرة فبالنظر إلى الانفجار السكاني المستمر في معدلات المواليد في العالم الثالث ، فربما يمثل سكان دول الغرب تسعة في المائة فقط من سكان العالم عام (٢٠٢٥م)

بالمقارنة مع ١٥ في المائة في الوقت الحاضر و ٢٢ في المائة عام (١٩٥٠م). ويعزو الخبراء تناقص معدلات الخصوبة في الغرب إلى مجموعة من الأسباب المختلفة ، منها تزايد عدد النساء العاملات خارج البيت ، وتناقص معدلات الزواج وارتفاع معدلات الطلاق ... وتوفر وسائل أفضل لمنع الحمل وإباحة الإجهاض ... ومن بين الدول المتقدمة فإن الحكومة الفرنسية هي الأكثر نشاطاً في تشجيع الإنجاب حتى أنها تنشر إعلانات تحمل صورة طفل كتب تحتها : فرنسا تحتاج إلى أطفال ".

أما غزو الإيدز (أو مرض فقدان المناعة المكتسبة) فالحديث عنه يطول وموجة الموت والتآكل والفناء تنداح بسرعة رهيبة في ديار الغرب لكي تأتي على حشود الرجال والنساء الذين جرفتهم الشهوات واندفعوا فيما وراء حافات الإشباع باتجاه بؤر الإسراف والشذوذ.

الإحصائيات كثيرة ، وهي تزداد كماً يوماً بعد يوم ... إحداها تذكر أن المصابين في البرازيل وحدها عام (١٩٩٢م) تجاوز الربع مليون وأن هذا العدد آخذ في الازدياد بمعدلات سريعة. وثمة باحثون في الحكومة الأمريكية ذكروا لصحيفة نقابة الأطباء الأمريكية في عام (١٩٩١م) أن نسبة النساء بين مرضى الإيدز في الولايات المتحدة قد زادت على عشرة في المائة. فقد ارتفعت النسبة هناك من ٦.٦ في المائة في عام (١٩٨٥م) إلى ١١.٥ بالمائة في عام (١٩٩٠م) وكان من بين مرضى الإيدز المسجلين مع نهاية عام (١٩٩٠م) والذين بلغ عددهم ١٥٨٢٧٩ شخصاً ، عشرة في المائة أو ١٥٤٩٢ من النساء. وقد أصيب ٥١ في المائة من النساء نتيجة المشاركة في الحقن بالوريد عند تعاطي المخدرات ، بينما أصيب ٢٩ بالمائة منهن بالمرض عن طريق المعاشرة الجنسية.

وثمة هجوم مضاد من محور آخر ، لتطويق الشطط والانحراف الذي قاد الحياة الغربية في قضية المرأة والأسرة إلى الميل العظيم ، بقوة التنطير والادعاءات العلمية. ويتمثل هذا الهجوم بسلسلة من البحوث والكشوف العلمية التي تناولت أدعياء النبوة الكاذبين. سيكموند فرويد صاحب النظريات المعروفة في (التحليل النفسي).

ها هو ذا فرويد الذي مارس لأكثر من نصف القرن في ديار الغرب والشرق معاً دور (العراب) الذي برر وبارك كل صيغ الانفلات والشذوذ في المسألة الجنسية ، وقضية المرأة والأسرة عموماً ... ها هو ذا يتعرض منذ عقود عديدة ، وأحياناً من تلامذته أنفسهم ، لسهام النقد العلمي الذي كاد أن يأتي على نظرياته ، في جل حلقاتها الأساسية ، من القواعد.

ها هنا أيضاً يطول الحديث ويمكن – من ثم – الاكتفاء بشاهد واحد أكثر حداثة يتمثل بتلك البحوث (السايكولوجية) التي أنجزها البروفيسور (هانز ايزينك) على مدى ثلاثين

عاماً ، وكان آخرها كتابه الموسوم بـ (تدهور وسقوط الإمبراطورية الفرويدية) الذي يعتبر الضربة القاضية للتحليل النفسي.

ولقد أوضح ايزينك في بحوثه كافة ، وفي كتابه الأخير بوجه الخصوص ، أن العلاج المبني على التحليل النفسي لا ينطوي على قيمة تذكر ، وأن فرويد لم يكن عبقرية علمية ، بل عبقرية أتقنت فنون الدعاية وأساليبها ، وأنه كان يتمتع بمقدرة لغوية كبيرة أعانته على نحت مفردات ومصطلحات جذابة مثل (عقدة أوديب) أو (مبدأ المتعة) وهذه بدورها جعلت من سرده الجديد لقصة قديمة جذاباً ومثيراً ، وبخاصة لأولئك الذين يفتقرون إلى معرفة علمية بموضوع علم النفس.

إن ما كان جديداً في أعمال فرويد – والرأي للبروفيسور ايزينك – لم يكن حقيقياً وما كان حقيقياً لم يكن جديداً وأن فكر فرويد لا يتضمن شيئاً سوى تفسيرات خيالية لأحداث زائفة وإخفاقات علاجية ونظريات لا منطقية واستعارات فاضحة غير معترف بها (واستبصارات) خاطئة.

ويقدم كتاب ايزينك طروحات قيمة مثل تأكيده على أهمية علم الوراثة في السلوك وهو الدور الذي حاول التحليل النفسي إغفاله ... باختصار شديد فإن عشاق فرويد – في التحليل النهائي لقناعات ايزينك – هم ضحايا الدعاية وتضليل الذات.

ومن بعد فرويد جاء دور الوجودية الإلحادية التي كان سقوطها هذه المرة بصيغة دراماتيكية على يد مؤسسها نفسه (جان بول سارتر) عبر لقائه الأخير مع عشيقته (سيمون دوبوفوار) في نيسان عام (١٩٨٠م) وإذا كان للوجودية دورها هي الأخرى في تأكيد " الميل العظيم " في علاقات الرجل بالمرأة ، وتبريرها باسم ضرورات التحقق الذاتي وحرية الاختيار. فإن لنا أن نتصور كيف كان انهيارها بمثابة هجوم آخر من الهجمات التي تستهدف المعطيات المضادة للفطرة ، والتي تطل دائماً من تحت الأتربة والأنقاض لكي تعيد للحياة البشرية ألقها المنطمس وتوازنها المفقود.

وفي هذا السياق نفسه يمكن اعتبار سقوط الماركسية وعودة النبض الديني إلى الحياة الغربية ضربة أخرى لدعاية الميل العظيم وأنبيائه الكذبة وتنظيراته الشاملة ، ودعوة ملحة للعودة إلى الطهر والنظافة والاحتشام التي تليق بكرامة الإنسان وتفرده على الخلائق وتنسجم مع مطالب الحياة البشرية المتوحّدة الآمنة.

ففي غياب الدافع الديني لن يقوم – بحال من الأحوال – مجتمع نظيف متوازن مستقر ، وبانهيار هذا الدافع يجيء الزهري والإيدز فيأكلان الأخضر واليابس ، ولا يأمن الزوج على زوجته ولا هذه على زوجها ... ويتكاثر أولاد الحرام فلا تكاد تستوعبهم المحاضن والملاجئ ،

ويصير الفعل الجنسي المحرم نزوة عابرة يتحتّم إطفاؤها سريعاً كما يشرب الإنسان العطشان كأساً من الماء ، فيما قالت به يوماً تنظيرات الماركسية البائدة في بدايات تشكل الاتحاد السوفياتي المنحل على يد عالم النفس الماركسي المعروف (ولهلم رايخ) فيما دفع (لينين) نفسه بعد سنتين فحسب ، إلى أن ينهض محتجاً ويدعو إلى الاحتشام والتعفف واحترام قوانين العائلة وإلا أصبح الجيل التالي من الروس واتباعهم كله من أولاد الحرام !!

وها نحن نرى رأي العين، على شاشات الفضائيات والتلفاز كيف تحوّلت المرأة في ديار الغرب إلى وسيلة للدعاية والإعلان ... إلى كائن " جنسي " فقد شيئاً فشيئاً بعده الإنساني الأصيل ، وتحوّل بمرور الوقت إلى أداة للإثارة التي هي بالتأكيد ليست الخصيصة الأولى والأخيرة للمرأة في هذا العالم. وانما هو التكريم الذي أعلنه القرآن الكريم للكائن البشري رجلاً وأنثى بجعله سيداً على العالمين : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (سورة الإسراء ، (الآية ٧٠).

لقد كان الخطاب الإسلامي في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وفقه الروّاد الكبار ، موجهاً دائماً إلى الرجل والمرأة معاً ، ودعوتهما للعمل في وتائره العليا بمعايير الاتقان والإحسان ... في التكليف ... في الإخبار ... في العلاقات المتشابكة بين الطرفين ... كانت التسوية المطلقة حاضرة في المنظور القرآني بين الرجل والمرأة ... أما القوامة فتلك مسألة أخرى ترتبط عضوياً وبالحق والعدل ، ببنية الأسرة ، وتحديد المسؤوليات الموزعة على أفرادها.

ولقد تعامل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع المرأة بشفافية بالغة ، ولم ينس في خطاب الوداع الشامل الأخير ، أن يخصّص لها مساحة في كلماته حيث قال : (... أيها الناس إن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، واستوصوا بهن خيراً ... فانكم انما أخذتموهن بأمانة الله ...) ...

وثمة واحدة من أطول السور في كتاب اله تحمل اسم (سورة النساء) التي تتحدث عن قضايا المرأة ، وعلاقة الرجل بها ، ودورها في الأسرة والحياة ... والتعاليم التي تضمنتها السورة تضع المرأة في مكانها الحق ... ترعى مكانتها المتميزة ... تحفظ حقوقها ... تحمي مصيرها من الضياع ... وتدافع عنها باعتبارها كائناً ذا ميزات فريدة ... وثمة الموقف نفسه من المرأة في كتاب الله كلّه ... وفي سنة نبيّه (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ويجيء العلمانيون ، متناقضين مع أنفسهم ، لكي يدعوا عن جهل أو مكر إلى عدم تدنيس الإسلام ، بأوحال السياسة ، وينسون أو يتناسون ، أن السياسة مجرد أداة ، ويمكن أن توظف

للخير ... ولابدّ منها لتنزيل منهج الله في واقع الحياة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾(سورة الزخرف ، (الآية ٨٤) أي أن حاكميته ومنهجه وتشريعه تمضي لكي تشمل السماوات والأرض. وقد استعمل الأجداد تعبير (السياسة الشرعية) للقصد نفسه ... فالهدف الأخير هو إقامة دولة الإسلام ، وهو جهد سياسي يتحتم أن يتعاون على تنفيذه والاضطلاع بمسؤولياته الرجل والمرأة معاً ، لأن انكاره هو انكار لمعلوم من الدين بالضرورة.

إن اعتبار جلوس المرأة المسلمة في مقاعد البرلمان ، او تسلمها منصباً وزارياً ، ليس هو الهدف الأوّل والأخير لدور المرأة في الحياة العامة ، وانما هو مجرد حلقة في سياق حلقات كثيرة أخرى ، يمكن للمرأة أن تمارس من خلالها دوراً سياسياً بالمفهوم الشامل للعمل السياسي باعتباره فن الممكن ، وباعتبار صناعة الحياة الإسلامية ، والسهر على حمايتها من التآكل والانفلات ، عملاً سياسياً كذلك ...

في هذا السياق قد تكون تربيتها للأجيال ، وتمكينها من أداء دور فاعل في إقامة الحياة الإسلامية انما هي عمل سياسي بشكل من الأشكال ، ينطوي على أهمية أكبر بكثير من الممارسة المباشرة.

شكراً جزيلاً لحضوركم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

هوامش على ملفّ العمل الخيري

" محاضرة ألقيت في افتتاح جمعية
البر الإسلامية بالموصل في تشرين
الأول عام ٢٠٠٤م ".

أيها الحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

ليست هذه محاضرة بمعنى الكلمة ... وانما هي تأشيرات على هامش العمل الخيري ... وإنها لفرصة طيبة وواعدة بإذن الله ... أن نلتقي في مناسبة افتتاح جمعية البّر ، أو عودتها ثانية لأداء مهمتها بعبارة أدق ... ولنستلهم جميعاً روح البذل والتكافل والعطاء التي تنبض في تعاليم ديننا العظيم من أجل تحقيق المجتمع الذي دعا إليه كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) حيث يأخذ القوي بيد الضعيف ، والغني بيد الفقير ، والذين يملكون بأيدي الذين لا يملكون ... مجتمع البرّ والرحمة والتعاطف والتكافل والمواساة.

إن هذا الدين مدهش أيها الأخوة الأحبة في دعوته وتحقيقه للتوازن بين بناء الفرد وبناء المجتمع ... بين حماية الحق الخاص ، وتأكيد الحق العام من خلال آليات عمل ذات وتائر عالية من الأداء ، لم تعط لأمة من الأمم غير الأمة الإسلامية ... من مثل : الزكاة ، والصدقات ، ومؤسسة الوقف ...

والطموح هو إحدى ضروريات الحياة ... وبدونه لن تتحقق المنجزات الكبيرة ... وسنظل نتحرك عند الجدران الرطبة والسفوح الواطئة ... ولعل هذه الجمعية المباركة تمضي قدماً ، وحيثما توفّرت لديها السبل لتحقيق جملة من المنجزات ، وما لا يدرك كله لا يترك جلّه ... وبالتالي فان ما سأشير عليه بإيجاز عبر كلمتي هذه ، قد ينطوي بعضه على إمكانية التنفيذ في مديات زمنية قريبة ، وبعضه الآخر يتطلب مديات زمنية أطول ... والمهم أن نبدأ مهما كان الحصاد متواضعاً ، فان رحلة الألف ميل – كما يقول المثل – تبدأ بخطوة واحدة !!

مرة أخرى عجيب أمر هذا الدين في قدرته على التحقق بالوفاق بين ثنائية الفردي والجماعي ... الرأسمالي والاشتراكي (إذا صحّ التعبير). فالذي يقرأ كتاب (تجديد الفكر الديني في الإسلام) للشاعر الفيلسوف الباكستاني المسلم (محمد إقبال) يجد نفسه قبالة مشروع متكامل لبناء الإنسان الفرد ، وتحصينه الذاتي ، وتمكينه من مواصلة الصعود صوب الاعالي فيما يمكن تسميته بالتحقّق الفردي. وفي المقابل فان الذي يقرأ كتاب الفيلسوف الفرنسي (روجيه غارودي): (وعود الإسلام) يجد نفسه قبالة مشروع متكامل لبناء الجماعة ، وتحصينها ، وتمكينها من (التسامي) فيما يمكن تسميته بالتحقق الجماعي.

أياً من الرؤيتين الخصبتين نأخذ وأيهما ندع ؟ والجواب ، إذا أردنا أن نكون صادقين مع ديننا : كلاهما ... بحيث أننا نجد عشرات الأدلة والشواهد والخبرات التي تؤكد بناء الفرد جنباً إلى جنب مع بناء الجماعة.

في كل خبرة وضعية هنالك الإيجابيات والسلبيات ، ذلك أن العقل الوضعي يخطيء ويصيب ، ويعاني من العجز والنسبية والمصلحية والانحياز ... بينما التعامل الإسلامي مع اية حالة لا يمكن – بحال من الأحوال – أن يكون تلفيقاً ، وانما هو بناء محكم بقوة الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والعمل الخيري يعكس إحدى حلقات البناء الجماعي في الإسلام ... ولقد أردت قبل ما يزيد على الثلاثين سنة أن أقوم بإحصاء الشواهد القرآنية والنبوية بخصوص هذه الحلقة ، في كتاب لي يحمل عنوان (مقال في العدل الاجتماعي) ، فوجدت أن هذا الدين في دعوته للعطاء ، والتسوية الاجتماعية ، يذهب أحياناً إلى ما وراء الشيوعية نفسها !!

في مواضع عديدة من كتاب الله تتدفق الآيات متحدثة عن أرباب المال ، مترفين وأغنياء ، فاضحة إياهم منددة بهم ، ملقية قوارعها على مواقفهم الرجعية المنفعية إزاء الدعوات الجديدة ، صافعة صلفهم وغرورهم ، ممزقة الأستار عن حماية المال والبنين التي يحتمون بها دائماً ، ويتوهمون أنها تخلّصهم من عقاب الله ، واضعة إياهم وجهاً لوجه أمام مصائرهم ، مبيّنة لهم أن إغداق المال عليهم ليس من مصلحتهم في معظم الأحيان : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون ، (الآيتان ٥٥-٥٦) ، ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ (سورة الهمزة ، (الآيات ١-٤) ، ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (سورة المسد ، (الآيات ١-٣) ، ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (سورة التوبة ، (الآية ٥٥) ويدعو نوح في قلب المحنة : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ (سورة نوح ، (الآية ٢١) ، ويدعو موسى بعد قرون طويلة : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (سورة يونس ، (الآية ٨٨). ولن تغني عنهم أكداسهم من المال واتباعهم من الأبناء والحواشي إذا دمدم عليهم في الدنيا ، أو جاء دورهم يوم الحساب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ

النَّارِ ﴾(سورة آل عمران ، (الآية ١٠) ، ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى . . . ﴾ (سورة سبأ ، (الآيات ٣٥-٣٧) ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ۞ أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ۞ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً ۞ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ (سورة مريم ، (الآيات ٧٧-٨٠) ، ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ۞ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ۞ وَبَنِينَ شُهُوداً ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً ۞ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ (سورة المدثر ، (الآيات ١١-١٧) ، ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(سورة التوبة ، (الآية ٦٩).

هنالك الحوار المؤثر في سورة الكهف (الآيات ٣٢-٤٤) بين صاحب المزارع الواسعة وبين صديق له لا يكاد يملك شيئاً. ولقد انتهى الأمر بأولهما إلى البوار. فليس الغنى والثروة في منطق الإسلام بالشيء الأبدي الدائم كما يتصور كثير من الرأسماليين ، ولا بالحتمية التي تفرضها (ظروف الإنتاج) كما يتصور كثير من الماركسيين ، انما هي مسألة وقتية معرضة للزوال في أية لحظة قد يساء فيها التصرّف ، ويمارس الطغيان إزاء جماهير الكادحين ، والصلف والغرور إزاء إرادة الله السريعة الحاسمة التي لا تبقي ولا تذر.

ومن منا لم يقرا قصة (قارون) اليهودي الثري الذي كاد الذهب يخرج من أنفه وأذنيه (سورة القصص، ٧٦-٨١) ... وسوء التصرّف هذا والطغيان إزاء (حقوق) الفقراء والمعدمين ، هو الذي قاد الأخوة الثلاثة أصحاب المزرعة الذين سموا – لاتساعها وامتدادها واكتظاظها – بأصحاب الجنة ، إلى البوار. حيث سبقتهم إرادة الله فحصدتها ، قبل أن تحصدها الأثرة والجشع والطغيان.

وبينما تنصب الأوصاف القاسية السيئة على الفقراء المعدمين في المجتمعات التي يسودها الترف والطغيان ، فيوسمون بالأوباش والأراذل والسوقة والأدنياء والمتطفلين ... إلى آخره ...

ينعكس الموقف في القرآن الكريم ، حيث توجّه أقسى الكلمات إلى (أصحاب المال) المارقين ، ويرمون بأقسى النعوت. ها هي إحدى الآيات تتحدث عن (أحدهم) مخاطبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (سورة القلم ، الآيات ١٠-١٦).

ولا نجد في القرآن ، في مقابل هذا ، أي نعت أو صفة قاسية تلحق بالفقراء والمعدمين ، وكل ما ورد عنهم انما جاء على لسان الكفار والمترفين أنفسهم من تسمية هؤلاء بأراذل القوم ، وأنهم طليعة من يتبع الأنبياء وهم يدعون إلى الايمان : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ؟ ﴾ (سورة الشعراء ، (الآية ١١١) ، ﴿ . . . وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ . . . ﴾ (سورة هود ، (الآية ٢٧). وكأن أرباب المال هؤلاء كانوا يدركون ما وراء الدعوات الجديدة التي يناديهم الأنبياء (عليهم السلام) للانتماء إليها ، من تغيير في العلاقات الاجتماعية ، وأسلوب جديد في التعامل مع (المال) فكانوا يطرحون دوماً سؤالهم الاستنكاري هذا : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا ؟ ﴾ (سورة هود ، (الآية ٨٧).

وفي مقابل الحملة الشاملة الحاسمة الرهيبة على ظاهرتي الترف والغنى الفاحش في التجربة الاجتماعية ، ما الذي يقدّمه القرآن الكريم عن الفقر والفقراء والمساكين والمعدمين ، هل هي دعوة للتبّرع لهم والإحسان إليهم فحسب ؟ فأين إذن السلطة الإسلامية ؟ وهل يمنع هذا الأسلوب (الأدبي) دونما ضمانات تشريعية ، ظهور وتضخم طبقة المترفين وتحوّل المال إلى دولة بين الأغنياء ؟ ما الذي دفع القرآن الكريم إلى أن يعرض في عشرات المواضع ، مسألة (الإنفاق) على الفقراء و(الحض) على إطعامهم ، بكل ما يتضمنه فعل (الحض) من قوة وفاعلية لتحقيق هذا الهدف ، وهو إشباع الجائعين وسدّ حاجاتهم الأساسية ؟ ومن أولى من السلطة المشرّعة والمنفذة ، بالتخطيط لهذا المطلب الحيوي الخطير وتنفيذه في عالم الواقع ، بما تمتلكه من قوة وفاعلية ؟

صحيح أن (الإنفاق) الفردي ، و(الصدقة) الاختيارية ، و(التكافل) الطوعي ، تمثل جزءً أساسياً من برنامج العدل الاجتماعي في الإسلام ، وتغطي مساحة واسعة من نداءات القرآن في هذا المجال ، وتمارس دوراً كبيراً في إحداث التوازن والانسجام والتعاون والترابط بين أفراد المجتمع المسلم وفئاته ، وتجتث أدران الحقد والكراهية والشر لكي تزرع بدلاً منها علائق التكافل

والمحبة والخير ... سيما في الفترة التي تغيب فيها السلطة ، فيتعرض الفقراء والمعدمون للموت جوعاً ، فتمتد إليهم اليد التي لا (تتبرع) أو (تمنّ) ، ولكن تعطي وتواسي وتندمج وتتعاون لكي تنقذهم من هذا المصير المفجع ... ومع ذلك فلا يعدو أن يكون هذا (العطاء) ، على أهميته ، مساحة محدودة فحسب من المساحات الشاسعة لبرنامج العدل الاجتماعي الذي رسم القرآن والسنة خطوطه العريضة ، ونفذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) والراشدون (رضي الله عنهم) مخططاته الفذة ، وبنى الفقهاء والمجتهدون على هذا وذاك مقولاتهم ونظرياتهم المتفردة ...

وفي أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ترد الدعوة لإطعام الفقراء والمساكين وسدّ حاجاتهم الأساسية ، وفي أكثر من أربعين موضعاً يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات ، وتقييم دافعيها والتنديد بمانعيها ، وفي أكثر من سبعين موضعاً يرد ذكر الانفاق وتسلط عليه الأضواء من كافة زواياه ، وفي أكثر من موضع يجيء التأكيد على أن هذا العطاء ليس تبرّعاً ولا منّاً ، ولكنه (حق) السائلين والمحرومين ... وفي آيات أخرى يرد الحض على إشباع الجائعين وسدّ حاجاتهم الأساسية كجزء أصيل من متطلبات الايمان ، كممارسة الصلاة سواء بسواء ، وأن التوّقف عن هذا (الحضّ) يخرج أصحابه من حظيرة الدين ويدمغهم بالكذب : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (سورة الماعون ، (الآيات ١-٧) ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ ﴾ (سورة الحاقة ، (الآيات ٣٣-٣٧) ، ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (سورة الفجر ، الآيتان ١٧-١٨). ولن يكون (الحض) ، ما دام قد اقترن بالايمان ، وأصبح وقفه وقفاً لحركة الدين نفسه ، لن يكون بكلمات متثائبة تقال ، أو بيد تدفع بقايا الطعام إلى المساكين الذين يقفون وراء الأبواب خائفين متوسلين ، انما (بالفعل) الدائم والحركة المستمرة ، وبالثورة إذا اقتضى الأمر لتحقيق هذا المطلب الأساسي ... تماماً كما أن الصلاة فعل دائم وحركة مستمرة ، وأنها بمجرد تحوّلها إلى الظل ، وإلى أن تغدو ممارسة جانبية ، تدمغ صاحبها بالنفاق. وهذا هو الذي دفع أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) إلى أن يشهر السيف بوجه مانعي الزكاة ويعلن (والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة) !!

وثمة الآية التي تدعو المسلمين إلى أن يتحركوا ، وأن يقتحموا العقبة ... هكذا بكل ما يتضمنه فعل الاقتحام من قوة وعنف وإرادة لابدّ منها جميعاً لاجتياز الحاجز : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (سورة البلد ، (الآيات ١٢-١٦) ... تحرير المستعبدين ، وإطعام الجائعين ، ذلك هو الهدف الذي يقتحم المؤمن من أجله الحواجز بقوة وعنف وحزم وإرادة.

والآية التي تطرح نفسها كسؤال خطير أمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأمام أي (مشرّع) مسلم يجيء بعد الرسول : ﴿ ... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ٢١٩) ويجيء الجواب الدائم غير الموقوت ، بيّنا صريحاً : ﴿ ... قُلِ الْعَفْوَ ... ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢١٩). والعفو هنا هو كل ما زاد عن الحاجة ، وسنتذكر هذا المبدأ الخطير في التسوية الاجتماعية عندما نستمع إلى إحدى كلمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له. ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ...) ويقول شهود العيان : (ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أن لا حق لأحد منا في فضل) !!

وهنالك الآية التي (تأمر) المسلمين : دولة ومشرعا وجماعة ، ألا يسمحوا لأموالهم ، التي لكل فئة منهم حق معلوم فيها ، والتي جعلها الله لهم سبباً من أسباب البقاء والنماء ، أن تذهب إلى (السفهاء) بهذا التعبير الصريح في تنديده : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً ... ﴾ (سورة النساء ، (الآية ٥).

والآيات التي تقطع الطريق على أية محاولة لطمس حقوق الناس في أموالهم ، لكي يزداد أصحاب السلطة والواجدون غنىً ، والفقراء والمعدمون فقراً ، وتسم هذه المحاولة التي يمكن أن تتم بألف أسلوب بالإثم والعدوان والظلم والإجرام ، أكثر من ذلك تسمها بقتل النفس ، وليس كفقدان العدل الاجتماعي معولاً ينزل على بنية المجتمعات فيفتتها ويدّمرها ويمحوها : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ١٨٨) ، ﴿ وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ (سورة النساء ، (الآية ٢) ،

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۞ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (سورة النساء ، (الآيتان ٢٩-٣٠).

والآيات التي تصب حمماً من نار على طبقة (رجال الدين) من (الأحبار والرهبان) الذين اشتروا بعقيدتهم ثمناً قليلاً ، وراحوا يدجلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم ويضخموا بها حجم كنوزهم من الذهب والفضّة. وكأن القرآن الكريم يفتح أعين المسلمين جيداً ، ويستفز وعيهم الدائم كي لا يتيحوا لظاهرة هدامة كهذه أن تبرز في مجتمعهم وبين ظهرانيهم ، مهما كانت على درجة من الضآلة والخفاء ، ويندّد بكل من تحدثه نفسه بممارسة الأسلوب الذي مارسه الأحبار والرهبان طويلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (سورة التوبة ، (الآيتان ٣٤-٣٥).

والآيات الكثيرة التي تأمر بربط (الإشباع) بـ (الاعتدال) والتقوى والعمل الإيجابي الصالح ، وتنهى عن الإسراف والطغيان والفساد في الأرض واتباع خطوات الشيطان ، تعمق في أذهان المسلم العادي والمشرع ، وتحذرهما في الوقت نفسه ، من حتمية هذه العلاقة الجدلية المتقابلة بين عدم تنظيم الإشباع وبين كل ما يتمخض عنه من ظلم (اجتماعي) يتمثل بالإسراف والطغيان والإفساد في الأرض. وليس ثمة مجتمع تتحكم فيه قلة من الذين يملكون ، بكثرة من الذين لا يملكون ، وتتخم فيه بطون معدودة وتتضوّر الملايين مسغبة وجوعاً ، يخلو من سمات الإسراف والطغيان والإفساد في الأرض ، ذلك (الإفساد) الذي يتلبّس وسط هذا التناقض الاجتماعي ألف لبوس ، ويتخذ وقد اختفى التوازن ألف وسيلة لتدمير المجتمع ، وعرقلة الحركة الحضارية ، ووضع العوائق في طريقها (تنظر الآيات : البقرة ، (٦٠ ، ١٦٨) ، الأنعام (١٤٢) ، الأنفال (٦٩) ، المؤمنون (٥١) ، طه ، (٨١).

والآية التي تبين للناس جميعاً أن الأرض قد (ذللت) لهم بإرادة الله سبحانه وتعالى ، وتدعوهم إلى أن يتحركوا في أمدائها ويأكلوا من رزقها ، ولا معذرة بعدها لجائع قاعد لا يجهد ،

ومسحوق لا يتحرك : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (سورة الملك ، (الآية ١٥).

ويعود القرآن ليطرح مرة أخرى مسألة التساوي بين الناس في (القوت) الذي منحه الله لهم جميعاً : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (سورة فصلت ، (الآية ١٠) ... ليس هذا فحسب ، بل ان القرآن ينعى على الكفار تصوّرهم الساذج أن الله (سبحانه وتعالى) ما دام قد كتب الجوع على طائفة من الناس فانه ليس بمقدور أحد من خلقه أن يطعمها !! بهذه السذاجة التي كثيراً ما دارت في أذهان القانعين والزاهدين ، والتي تمنح في المقابل مبّرراً مضحكاً ، ولكن ذو فوائد جمة للمالكين الذين لا يبذلون أي جهد في إنقاذ الذين لا يملكون فما دام الله هو الذي أجاعهم ، فليس بمقدور أحد من خلقه أن يشبعهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة ياسين ، (الآية ٤٧).

يتقدم بنا القرآن خطوات واسعة أخرى في ميدان (العدل الاجتماعي) ، واضعاً في كل خطوة يخطوها ، وآية يطرحها ، معلماً من معالم هذا الميدان ومبدأ من مبادئه الأساسية التي تقوم عليها جزئيات التنفيذ ويومياته المتغيرة المتحولة ، إلاّ أن القاعدة تبقى دوماً هي القاعدة ... يتقدم بنا صوب حقيقة أخرى لا تقل عن سابقاتها ، إن لم تفقها على الاطلاق ، تلك هي أن الناس مستخلفون في أرض الله ، وأن أموالهم ليست في ملكيتهم ابتداء انما هي مال الله استخلفهم فيه لينظر ماذا يصنعون به ، وفي أي الوجوه يسخّرون (قيمه) ويعتمدون (منفعته) بإرادتهم الخاصة وحرّيتهم التي منحهم الله إياها تمييزاً لهم عن كثير من خلائقه ... ومعنى هذا أن بني آدم جميعاً يملكون حقهم المشروع في هذا المال ، وأن (وكالته) أو (تفويضه) الاجتماعي الموقوت ليس أبدياً لأية فئة من الناس لا تحسن شروط التوظيف ، ولا تعدل في تصريف قيمه ومنافعه : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . . . ﴾ (سورة الحديد ، (الآية ٧) ، ﴿ . . . وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ . . . ﴾ (سورة النور ، (الآية ٣٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ . . . ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ٢٥٤).

وما كان لنا أن نغادر كتاب الله إلى سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) قبل أن نقف قليلاً عند آيات (الحشر) الحاسمة في هذا المجال ، الآيات التي تحمل دعوة الله الصريحة

إلى رسوله والمؤمنين ، أن (ينظموا) مسألة (توزيع المال) بشكل لا يقود إلى حصره في يد القلة وحجبه عن الكثرة الساحقة ... وهذا أمرٌ طبيعي تماماً ما دام القرآن الكريم قد حدثنا عن الصورة الكالحة القاتمة للمجتمع التي تكون كلمته الأولى والأخيرة للمترفين : ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحشر ، (الآيات ٧-١٠).

إن كلمات الله (سبحانه وتعالى) في هذه الآيات من سورة الحشر ، وهي تأمر بتوزيع الفيء على كافة الفئات (المحتاجة) في المجتمع الإسلامي الوليد ، تقدّم برنامج (عدل اجتماعي) سار على هديه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون (رضي الله عنه)، وأن عبارة **(كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)** هي غاية ما يمكن أن يطرح في مجال كهذا أمام المشرّع الإسلامي.

فإذا ما جئنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاننا سنلتقيه يطرح مبادئ متفاوتة الدرجات إزاء المال و (حق الجماعة) ، ويسلّط الضوء على المسألة الاجتماعية من زواياها واطرافها كافة ، لكي لا تتبقى منها أية مساحة غارقة في العتمة ، وهو في هذا كله انما يساير القرآن جنباً إلى جنب ، يؤكد آياته البيّنات ويعززها ويوضحها. إنه (صلى الله عليه وسلم) يتحدث عن العمل والأجر والأرض والزراعة ، وعن طبيعة العلاقات المتينة التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم الواحد وتجعلهم كالبنيان لا يسمحون لأي منهم أن يسلم أو يظلم ، وعن المسؤولية الجماعية التي تحتم على كل فرد أن يعرف مواطن الحق والواجب وإلاّ عصفت بهم العواصف.

ويقف طويلاً عند الثروة ، ويبين في أكثر من موضع أنها ليست هدفاً ، ولا يجب أن تكون كذلك ، وإلاّ قادت عبيدها ومستخدميها إلى الدمار ، وكيف أن الموقف الصائب في التعامل معها يضعها في موضعها المناسب من فاعليات الإنسان على الأرض ، كوسيلة تحمله والجماعة معه ، إلى أبعد الآفاق. وكيف أن حق الجماعة في المال يتدرج من (الزكاة) حده الأدنى ، صعدا صوب القمة التي تغدو فيها مشتركة في هذا المال الزائد عن حاجة صاحبه وما وراء ذلك هو ما عبّر عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً ، أموت وعندي منه دينار ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ...) وطوّح بيديه يميناً وشمالاً وخلفاً ... ولسوف يموت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس عنده دينار واحد !!

يتحدث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن (العمل) باعتباره الأساس الذي يوليه الإسلام الأهمية الكبرى ، والذي تتمخض عنه ابتداء (القيمة) التي يتضمنها المال و(المنفعة) المترتبة عليه – قال : (والذي نفسي بيده لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه) ، وقال : (ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده) ... وقال : (ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) وقال : (العمل عبادة) و(طلب كسب الحلال فريضة) و(طلب الحلال جهاد) و(من أمسى كالاً من عمل يده ، أمسى مغفوراً له يوم القيامة) و(إن الله يحب العبد المؤمن المحترف) و(إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر) !!

ويؤكد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يتحدث عن العمل على (حق) الأجير والعامل ، هذا الحق الصارم الذي يجب أن اعطاه لحظة توقفه عن العمل جزاءً وفاقاً على ما قدّمت يداه ، فيأمر أصحابه (أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه). ويصب غضبه الشديد ، ويعرب عن خصومته القاطعة لكل من يستأجر أجيراً فيأكل حقه : (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه فلم يعطه أجره) ... ويأمر أصحابه عمالاً وأصحاب عمل أن يأكلوا سوياً ويلبسوا سوياً : (اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم).

وفي الأحاديث الشريفة في مسألة الأرض والزراعة أنها لمن (يزرع) لا لمن (يملك) وأن الذي يعمل في الأرض التي لا يملكها أحد ، أحق بها. قال (صلى الله عليه وسلم) : (من عمر أرضاً ليست لأحد ، فهو أحق بها). وعن رافع بن خديج أن النبي (صلى الله عليه

وسلم) نهى عن كراء الزرع. وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله : نهى أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ. يقول : (عادي الأرض لله والرسول ثم لكم ، فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له ، وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين) ، ويقول : (من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها). وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أعطى بلالاً بن الحارث المزني جميع أرض العقيق ، فلما كان زمن عمر قال لبلال : (ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يقطعك لتحتجزه عن الناس ، انما اقطعك لتعمل فخذ منها ما قدرت على عمارته وردّ الباقي).

وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية الإيجابية التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم وتسوسهم بمنطق التكافل ، وتجعلهم كالبنيان ، يمنحنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) مزيداً من القيم والتعاليم ... عن عبد الله بن عمرو : أن رجلاً سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي الإسلام خير ؟ قال : (تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) وعن أنس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (لا يؤمن) بهذا الجزم !! وقال في حديث آخر : (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً).

وتقودنا قضية (الترابط الاجتماعي) هذه إلى مسألة من أهم مسائل العدل الاجتماعي في الإسلام تلك هي التكافل الاجتماعي الذي تامر به الدولة ، أو تقوم به الجماعة تطوعاً واختياراً ، ومن وراء الدولة والجماعة أحاديث وقيم طرحها الرسول (صلى الله عليه وسلم) على طول حياته بين مكة والمدينة متدرجاً وأصحابه بين (الزكاة) كحدّ أدنى من العطاء مفروض على المال ، وبين الاشتراك الكامل فيه ، مروراً (بالتصدّق) الذي لا حدّ له ، والذي يتراوح هو الآخر بين الكلمة الطيبة ، والدرهم والدرهمين ، وبين التنازل الكامل عن المزارع والأراضي والممتلكات والأموال.

عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فان فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله). وعن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث معاذاً إلى اليمن فقال له : (أدعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من اغنيائهم وتردّ على فقرائهم) ... وفي مقابل هذا قال : (إن في المال حقا سوى الزكاة) ...

ونذكر بهذا الصدد ما قاله الإمام الغزالي في المستصفى : " إذا خلت أيدي الجند من الأموال ولم يكن من مال المصالح – بيت المال – ما يفي بخراجات العساكر ، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد المسلمين ، أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشرّ ، جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند ". وما قاله الشاطبي معلقاً على ذلك " وقد نفذوه في زمن

الدولة الإسلامية " ، ومن ذلك في عهد الملك قطز لردّ التتار بناء على فتوى سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام (رحمه الله). واتفق العلماء أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فانه يجب صرف المال إليها وما قاله الإمام مالك : " يجب على الناس فداء أسرهم وإن استغرق ذلك أموالهم " ، وهذا إجماع أيضاً ".

ويمضي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متحدثاً عن المسألة من أكثر من زاوية ، قال : (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم). وقال : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً برئت منهم ذمة الله ورسوله) وقال : (إذا بات مؤمن جائعاً فلا مال لأحد) !!

وتعليقاً على حديث : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) يقول ابن حزم في كتابه المحلّى ، باب الزكاة : " من تركه يجوع ويعرى فقد أسلمه " ويضيف أن للجائع عند الضرورة أن يقاتل في سبيل حقه في الطعام ، الزائد عن غيره " فان قتل الجائع فعلى قاتله القصاص ، وان قتل المانع فإلى لعنة الله ، ويستطرد ابن حزم قائلاً : " وفرض على الأغنياء من كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابدّ منه ، ومن اللباس في الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة ". وهو يروي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس) !!

وفي أكثر من مرة يعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تعهد الدولة للفقراء والضعفاء والعاطلين والعاجزين : (من ترك كلا أي ذرية ضعيفة " فليأتني فأنا مولاه) و (من ترك ضياعاً فعلي ضياعه ، و(ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى به في الدنيا والآخرة).

وفي حديثه الشهير : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته ...) يعلن مسؤولية الحاكم أو الدولة الإسلامية عن رعاياها كافة ، مسؤولية شاملة. ولم يستطع أحد أن يقول : ان للحاكم أو الدولة ألاّ تعتبر نفسها مسؤولة عن أولئك الذين يتضورون جوعاً ولا يقدرون على ممارسة أدوارهم الطبيعية في الحياة ، لأنهم أخرجوا بالفقر والجوع والحرمان عن مواقفهم الصحيحة ، لأن المسؤولية واحدة لا تتجزأ ، وهي ترد في هذا الحديث (مطلق) مسؤولية لا مسؤولية جزئية عن جانب ما من جوانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ويتقدم (صلى الله عليه وسلم) خطوات أخرى واسعة مدهشة في مجال العدل والتكافل الاجتماعيين ، وصل بهما إلى الآفاق التي ما كانت (ظروف الإنتاج) ، وفق التفسير المادي للتاريخ ، تسمح بمجرد التفوّه بها. قال : (من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ،

وليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة). وقال : (طعام الاثنين كافي الثلاثة ، وطعام الثلاثة كافي الأربعة). وثمّن ما كان يفعله (الأشعريون) من عرب الجنوب بكلمات توحي أنه لم يكن يباركهم فحسب ، بل (يأمر) بتنفيذ (أسلوبهم) أيام الأزمات والمجاعات والمهمات (المشتركة) : (ان الأشعريين – يقول (صلى الله عليه وسلم) – إذا أرملوا في الغزو ، أو قلّ طعام عيالهم في المدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم).

" اقتسموه في إناء واحد بالسوية " " فهم مني وأنا منهم " ... تلك كلمات وإشارات ما كان لها أن تفلت من بين أيدينا وتغيب عن أذهاننا حتى لو مضى عليها آلاف من السنين ... ثم ها هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلن في إحدى الأسفار مخاطباً أتباعه : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ...) ... ويضيف الرواة ، أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر حينذاك من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل !!

أما التجارب والممارسات الجماعية التي شهدها عصر الرسالة بدءً من تجربة (المؤاخاة) وانتهاء بتنازل الأنصار عن ضياعهم وأموالهم كافة ... فلا تتسع محاضرة كهذه للحديث عنها ، وقد تم استقصاؤها في كتابي (مقال في العدل الاجتماعي) لمن أراد منكم الاطلاع ... ثم إني تابعتها تاريخياً في عصري عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) ونور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ) في كتابيْ (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) و(نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية) ... لمن شاء المزيد من الاطلاع ...

وأما مؤسسة الوقف ، فقد فعلت الأفاعيل في تاريخنا وواقعنا المعاصر على السواء : عمرانياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً وتربوياً ... وتخريجاً للجماعات والأحزاب العاملة لهذا الدين ... ويكفي أن نستدعي ما فعلته في العصر الحديث في بناء وتخريج الجماعتين الإسلاميتين الأقوى في الساحة التركية : الحركة النورسية ، وحركة الرفاه وامتدادها بحزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا ... لقد كانت أموال الوقف المرصودة من لدن كبرى الشركات الاقتصادية في مجالات الصناعة والتجارة والزراعة والمال ، وكبار أصحاب رؤوس الأموال من ذوي التوجّه الإسلامي ، بمثابة القوة الحقيقية وراء تشكل هذه الحركات ، وتناميها ، وقدرتها على مجابهة التحديات والتفوّق عليها.

وكلنا نذكر ما فعلته الأوقاف من تمكين مؤسسات العمل الخيري في الساحة الإفريقية ، من أن تحل محل الحكومات الإسلامية في نشر الدعوة لدى الأفارقة ، ومجابهة ضغوط التنصير المتفوّقة ، والمضي قدماً في تعزيز الانتماء للدعوة الإسلامية ، والتحقق بمطالبها ، بشكل قد

يفوق أحياناً ما فعلته وتفعله مائة وثمانون مؤسسة كنسية عالمية ، مدعومة دولياً ، تعمل في الساحة الإفريقية.

هذا رغم أن المشاركين في الأعمال الخيرية من المسلمين لا يتجاوز الـ ٣% قبالة ٩٠% من الكنديين (على سبيل المثال) ... فلماذا ؟! نحن الذين يفتح ديننا كل البوابات على مصاريعها باتجاه هذا النمط من النشاط الاجتماعي ، ويعد ذوي العطاء بجنة عرضها السماوات والأرض ؟!

ولقد جاءت واقعة الحادي عشر من أيلول لكي تزيد من تضييق الخناق الدولي ، بضغط من أمريكا ، على الأنشطة الخيرية الإسلامية على مدى العالم كلّه ... نكتفي بخصوصها بهاتين الشهادتين من بين العشرات والمئات ...

كامل الشريف ، الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة ، أكد أن أوضاع الهيئات والجمعيات الإسلامية باتت سيئة جداً ، لوقف أوربا والولايات المتحدة الأموال ومصادر هذه المنظمات هناك. وهو ما أدى إلى توقّف الأنشطة وعدم وجود سيولة مالية لدرجة أن العديد من المشاريع لا تجد أموالاً لإكمالها. علاوة على أن المستحقات المالية للموظفين لم يتم صرفها منذ عدة شهور.

محيي الدين صالح ، أمين عام رابطة العالم الإسلامي ، أشار إلى أن هناك اتجاهاً عالمياً للوقوف في وجه المشاريع الإسلامية وأنشطة الوقف لمنعها من أداء دورها في تحقيق النهضة المادية والفكرية للمسلمين. إن القضاء على فاعلية الأمة الإسلامية وإصابتها بالشلل تبدأ بتجفيف الأموال التي تمتلكها المنظمات الخيرية الإسلامية ، وتصفيتها ومنعها من الحركة من أجل أن يخلو الجو لخصوم هذه الأمة.

على أية حال ، فليس هذا هو القدر النهائي لهذه الأمة في سعيها لبناء وتنشيط المؤسسات الخيرية والدعوية والوقفية ... ولعلّ ردود الأفعال الغربية تجاه واقعة أيلول ، تتراجع بمرو الوقت، فهي أشبه بالعاصفة التي لن تستمر طويلاً – بإذن الله – حيث سيتاح لهذه الأنشطة الكبرى أن تعود لممارسة نشاطها ، ولرؤوس الأموال الإسلامية أن ترحّل بيسر وسهولة ، كما كان الحال قبل الواقعة المذكورة ... وحينذاك سيكون تزايد الأموال المنصبة في جيوب أغنياء الأمة ، ومؤسساتها المختلفة ، فرصة ذهبية لتوسيع الأنشطة الخيرية وتمكينها من الاستجابة للعوائق والتحديات.

وأخيراً ، فان دلالة كلمة (البّر) الواردة في الآية ١٧٧ من سورة البقرة ، والتي تستمد منها جمعيتنا المباركة هذه اسمها وهدفها ، لا تنحصر في سياق معيّن ، بل إنها تمضي إلى أكثر من اتجاه يستهدف بناء المجتمع الإسلامي وفق برنامج الكفاية والعدل ، حيث لا يتبقى هناك مترفون

يستأثرون بكل شيء ، وفقراء معدمون يتضوّرون جوعاً ... وإنها – بحق – خير ما نختم بها كلمتنا هذه : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

إن علينا أن نتجاوز الجدل العقيم حول جغرافية البّر التي قد لا تعني شيئاً على الاطلاق ، وأن نتجه إلى الأعمال الكبيرة والعطاء الوفير الذي يمثل أحد أوجه البّر الحقيقية لملاحقة كل حالات الفقر والضيق والتعاسة في مجتمعاتنا ، ورفعها إلى مستوى الكفاية ... وهل أقدر من مؤسسات العمل الخيري – في المرحلة الراهنة – من يقدر على تحقيق هذا الهدف الكبير ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

عدالة المشروع الحضاري الإسلامي في المنظور النورسي

" محاضرة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الثامن في فكر بديع الزمان سعيد النورسي حول (العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية) والمنعقد في إسطنبول في ٢١-٢٣/١٠/٢٠٠٧م."

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ .

(سورة الرحمن ، (الآيات ٧-٩).

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

(سورة الشعراء ، (الآيات ١٨١-١٨٣).

﴿ . . . وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . . . ﴾

(سورة المائدة ، (الآية ٨).

" يا من فتنتم بزهرة الحياة الدنيا ومتاعها ، ويا من يبذلون قصارة جهدهم لضمان الحياة والمستقبل بالقلق عليهما ، أيها البائسون ! إن كنتم ترومون التمتع بلذة الدنيا والتنعم بسعادتها وراحتها ، فاللذائذ المشروعة تغنيكم عن كل شيء ، فهي كافية ووافية لتلبية رغباتكم وتطمين أهوائكم. ولقد ادركتم أن كل لذة ومتعة خارج نطاق أحداث مقبلة بعد خمسين سنة مثلاً ، على شاشة الآن ، مثلما تعرض الأحداث الماضية ، لبكى أرباب الغفلة والسفاهة بكاءً على ما يضحكون له الآن !! ".

النورسي : الكلمات ، ص ١٥٩

أيها الحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[1]

المشروع الإسلامي مشروع حضاري ينطوي بالضرورة على إقامة عالم يسود فيه العدل والحق ، وهما الميزانان اللذان قامت عليهما السماوات والأرض وبعثت بهما النبوات جميعاً.

والنورسي في رسائله المائة والثلاثين لا يتحدث فقط عما كان أو هو كائن ، ولكنه يمضي للحديث عما سيكون ، فإذا بأعماله كافة تحكي عما يريد هذا الدين أن يصنعه في العالم ... وتنبض برؤية حضارية تعرف كيف تلتحم بالعصر وتمضي قدماً باتجاه مستقبل البشرية التي تفرقت بها السبل الظالمة واخرجتها عن عدالة الصراط.

العودة بالبشرية الضالة إلى (الصراط) الذي لا يميل ولا يجور ، والذي تتحقق معه العدالة في أعلى مستوياتها ، والذي يعكس منطوق الآية الكريمة : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾(١).

في ضوء هذه التأسيسات سيسعى البحث إلى متابعة معطيات النورسي الخصبة في هذا الاتجاه ، واستدعاء بعضها شاهداً على ما يريد الرجل أن يقوله إزاء عالم تحطمت فيه الموازين ، وهو باعتراف غير المسلمين أنفسهم من كبار الفلاسفة والكتاب والأدباء والساسة والمفكرين ، بأمسّ الحاجة إلى من يعيده إلى الطريق ... وليس ثمة غير الإسلام من سيقوم بهذا الدور ... إن المشكلة ، كما يقول المفكر الفرنسي رجاء غارودي " كونية " ولابدّ للجواب إلاّ أن يكون على المستوى الكوني ... والإسلام هو هذا الجواب.

إن المشروع الحضاري الإسلامي هو المشروع الوحيد الذي يلتقي فيه الوحي بالوجود ، والله سبحانه وتعالى بالإنسان ، والغيب بالواقع ، والآخرة بالدنيا ، والروح بالجسد ... كما تلتقي في ظلاله سائر الثنائيات الأخرى التي اصطرعت وتقاتلت في معظم المذاهب ، وتصالحت في الإسلام.

والنورسي يعرف كيف يضع يده على هذه المسألة بالذات باعتبارها أساس الأسس ، وحجر الزاوية ، ونقطة الارتكاز في إقامة عالم عادل ، متوافق وسعيد.

---

(١) سورة النساء ، (الآية ٢).

[2]

والنورسي " رجل أفاض الله على قلبه من نور القرآن الكريم ما جعله يدخل عالم الايمان والغيبيات بثبات وإقدام في هذا العصر الذي طغت فيه قوى المادية فأسدلت غشاوة على الأبصار والبصائر ، فلم تعد ترى العقبى ، وبدت الغيبيات شاحبة باهتة خافتة تنتظر من يجليها ببريق الايمان ، فما فتئ النورسي يصول ويجول في هذه الساحة ، متزوداً بنور الهداية الربانية، حتى وجدناه في رسائله وفي تربيته لطلابه ، مثالاً للمجدد المقتدي بالرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) والمقتفي خطوات الهداية في نور القرآن المبين. ولعل العناية الإلهية شاءت أن تغرس في النورسي بصيرة نفاذة ، وقدرة عجيبة في دمج العلوم العقلية الحديثة والعلوم الشرعية ، فكأنه ينهل من جذور المعرفة لا من فروعها ، إذ يقدم حلولاً وإرشادات في أعقد الأمور الحياتية والايمانية والغيبية في أسلوب رشيق تأنس به العقول وتطمئن به القلوب فتجد فيه ضالتها ومنفذ خلاصها من دون أن يكدر شيئاً على صفو الافهام أو يغرقها في الفروع دون الأصول. ولكي يكون أسلوبه ملجماً لجماح العقول وشرود القلوب ، فقد أودع الله فيه قدرة على الاستشهاد بالأمثلة المقنعة القريبة من العقل والقلب معاً ، ومنحه قوة المنطق الفطري والبرهان العقلي والأدلة المقنعة وإقامة الحجج القوية في معالجته الأمور الايمانية بما يحقق للقارئ متعة جديدة كلما أعاد قراءتها ... "[1].

تتحرك معطيات النورسي بخصوص عدالة المشروع الحضاري الإسلام على مستويين. فأما أولهما فهو المستوى المباشر الذي يتمحور عند مفاهيم العدالة ومقتضياتها. وأما ثانيهما فهو المستوى غير المباشر والذي يعتمد رؤية مقارنة بين الإسلام والغرب النصراني أو الملحد ، تؤول في نهاية الأمر إلى أن المشروع الإسلامي هو المشروع الوحيد الذي يناط به تحقيق العدالة في هذا العالم ، وتلبية مطالب الإنسان المضطهد والجماعات المسحوقة ، ولسوف تتابع هذه الصفحات جانباً من معطيات النورسي الخصبة في السياقين.

إن النورسي – ابتداء – يعتبر " الكفر " الذي ينبني عليه جانب كبير من الحضارة الغربية المعاصرة " جريمة كبرى وجناية لا حدود لها ، حيث أنه يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها ... إلى هاوية العبث ، ويوهم عدم وجود الغاية من إيجادها. إنه تحقير بيّن للكائنات كلها وانكار لما يشاهد من أنوار الأسماء الحسنى كلها ، وإنكار آثارها في هذه الموجودات ، ومن ثم فانه تكذيب

---

(١) إحسان قاسم الصالحي : رسائل النور انموذج متكامل لتقديم الإسلام إلى الغرب ، صحيفة (المحجة) المغربية ، العدد ٢٧٤ ، (١ إبريل ٢٠٠٧م) ، ص ١٧.

ما لا يحصى من الأدلة الدالة على حقيقة وجود ذات الحق سبحانه وتعالى. وكل هذا جناية لا حدود لها "[١].

إنها بالتعبير القرآني (الظلم العظيم)[٢] الذي يزيف حقيقة الخلق ، ويجنح بها بعيداً عن جوهرها الأصيل ، فيفقد معايير التعامل العادل معها والذي يؤول إلى بناء حياة تختلف في نبضها ومكوناتها عما يريده كهنة العصر الحديث ووضاعوه.

ومن ثم يقف النورسي وقفة طويلة عند " عدالة الحساب " باعتباره ضرورة بالغة يؤول إليها موقف الإنسان في استقامته وانحرافه ، وهو يتساءل : " أمن الممكن لمن له شأن الربوبية فأوجد كوناً بديعاً كهذا الكون لغايات سامية ولمقاصد جليلة ، إظهاراً لكماله ، ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالايمان والعبودية ، ولا يعاقب أهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف " ؟ ثم ما يلبث أن يجيب : " إن هذا الإنسان الذي أنيط به – من بين جميع المخلوقات – مهام عظيمة ، وزوّد باستعدادات فطرية كاملة ، إن لم يعرف ربه (بالايمان) بعد أن عرّف سبحانه نفسه إليه بمخلوقاته البديعة المنتظمة ... فكيف يترك سدى دون جزاء ؟ "[٣].

ويستمر التساؤل الملّح : " أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ، ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات ، بغاية الحكمة والنظام ، وبمنتهى العدالة والميزان ، ان لا يعامل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة ، وان لا يجازي أولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة ؟ " وما يلبث أن يجيب " إن الإنسان الذي يقضي حياة قصيرة في هذه الدنيا الفانية لا ينال ولن ينال حقيقة مثل هذه العدالة ، وانما تؤخر إلى محكمة كبرى حيث تقتضي العدالة الحقة ان يلاقي هذا الإنسان الصغير ثوابه وعقابه لا على أساس صغره ، بل على أساس ضخامة جنايته ، وعلى أساس أهمية ماهيته وعظمة مهمته. وحيث ان هذه الدنيا العابرة بعيدة كل البعد عن ان تكون محلاً لمثل هذه العدالة والحكمة بما يخص هذا الإنسان المخلوق لحياة أبدية فلابد من جنة أبدية ومن جهنم دائمة للعادل الجليل "[٤].

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي : كليات رسائل النور ، ١ الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الأولى ، دار سوزلر للنشر ، (استانبول–١٩٩٢م) ، ص ٦٤.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة (إن الشرك لظلم عظيم) ، سورة لقمان ، (الآية ١٣).

(٣) الكلمات ، ص ٦٥–٦٧.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٦٨–٧٠.

هذا هو مفرق الطريق بيننا وبينهم : اليقين بحساب عادل يوم الحساب يضع الموازين القسط ولا يظلم – وحاشاه – مثقال حبة من خردل ... وهذا اليقين ينعكس بالضرورة على كل مفردات حياة المسلم فرداً وجماعة في هذه الدنيا حيث يتحتم ان يصير العدل معياراً يومياً تقاس به التصرّفات والأعمال. وفي ضوء ذلك أباح المشروع الغربي استعمار الشعوب المستضعفة وجلدها وضربها إذا اقتضى الأمر بالقنابل الذرّية ... بينما كان الفتح في المشروع الإسلامي تحريراً ، وخروجاً بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ... وفي ضوء ذلك أيضاً تتزايد معدلات الجريمة التي تغتصب حقوق الناس في الديار الغربية ، بشكل مريع يؤذن بالويل والثبور ... وانتقلت إلى حالة (الجريمة المنظمة) التي لم يعرف الشرق لها مثيلاً ...

والجهد البشري في المشروع الإسلامي يتلقى جزاءه الكبير في الدنيا والآخرة معاً ... فإذا أفلت في الأولى فانه متحقق في الثانية لا محالة ... والنورسي يحيل المسألة على العقل فيتساءل " هل يقبل العقل ان يعطى للإنسان أجرة دنيوية زهيدة زهادة شعرة واحدة مع أنه – سبحانه وتعالى – أناط به وبحواسه مهاماً ووظائف هي بعدد شعرات رأسه ؟ فهل يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل الذي لا معنى له ولا مغزى خلافاً لعدالته الحقة ، ومنافاة لحكمته الحقيقية ؟ "[١].

والنورسي يلفت أنظارنا إلى (حالة) تكاد تكون هي القاعدة في عالمنا هذا " ان الظالمين والفجار يقضون حياتهم في رفاه وراحة تامة ، أما المظلومون والمتدينون فيقضونها في شظف من العيش بكل مشقة وارهاق. ومن ثم يأتي الموت فيحصد الاثنين معاً دون تمييز. فلو لم تكن هناك نهاية مقصودة لظهر الظلم إذن في المسألة ، لذا فلابدّ من الاجتماع الأخروي بينهما حتى ينال الأول عقابه وينال الثاني ثوابه. إذ المنزه عن الظلم سبحانه وتعالى ، وهو العادل الحكيم – بشهادة الكائنات قاطبة – لا يمكن بحال من الأحوال أن تقبل عدالته وحكمته هذا الظلم ... فالنهاية المقصودة إذن حتمية لأن رؤية الإنسان الكادح المنهوك جزاءه وثوابه – حسب استعداده – يجعله رمزاً للعدالة المحضة ومداراً لها ... "[٢].

[3]

والنورسي يتحدث عن الدلالة الحضارية لاستخلاف الإنسان في الأرض ، فيما يؤكد البعد الحضاري للمشروع الإسلامي الذي اختتمت به الأديان والذي أريد منه تحقيق العدل في هذا

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٩.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٢١.

العالم ، وإحقاق الحق : فالآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . .﴾[1] تبين أن تعليم الأسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم (عليه السلام) تجاه الملائكة ، إظهاراً لاستعداده للخلافة. وهي وان كانت حادثة جزئية إلا أنها طرف لدستور كلّي هو : أن تعليم الإنسان – المالك لاستعداد جامع – علوماً كثيرة لا تحدّ ، وفنوناً كثيرة لا تحصى حتى تستغرق أنواع الكائنات ، فضلاً عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة لصفات الخالق الكريم سبحانه وتعالى وشؤونه الحكيمة. ان هذا التعليم هو الذي أهّل الإنسان لينال أفضلية ، ليس على الملائكة وحدهم ، بل أيضاً على السماوات والأرض والجبال ، في حمل الأمانة الكبرى "[2].

ويمضي النورسي لكي يؤكد المعنى الدلالي لهذه الآية الكريمة : " يا بني آدم ... أنتم بنوه ووارثو استعداداته ومواهبه ، فعليكم أن تتعلموا الأسماء كلها لتثبتوا جدارتكم أمام المخلوقات لتسلّم الأمانة العظمى ، فلقد مهد الطريق أمامكم لبلوغ أسمى المراتب العالية في الكون ، وسخرت لكم الأرض ، هذه المخلوقة الضخمة ، فهيا انطلقوا وتقدموا فالطريق مفتوح أمامكم ... واجعلوا علومكم ورقيكم سلّماً ومراقي إلى السماوات لتبلغوا حقائق علومكم وكمالكم ... "[3].

فالمشروع الإسلامي في سعيه لتحقيق العدالة في الأرض لن يقدر على أداء مهمته بالاكتفاء بالجانب الروحي – الأخلاقي ، إذ لابدّ من إسناده بالتفوق العلمي ، وإلا فلن يكون للمسلمين مكان في هذا العالم ، ولن يسمع لهم صوت : " ان كان فيكم – أو من ورائكم – من الصناع المهرة والمخترعين الملهمين – وهم قلة – وكانوا يقومون بأعمالهم مخلصين لأجل منافع عباد الله – وهي عبادة ثمينة – ويبذلون جهدهم للمصلحة العامة وراحتهم لرقي الحياة الاجتماعية وكمالها ، فان هذه الرموز والإرشادات القرآنية كافية بلا ريب لأولئك الذوات المرهفي الإحساس ، ووافية لتقدير مهاراتهم وتشويقهم إلى السعي والاجتهاد "[4].

وقد تفسر هذه الرؤية التوازنية بين الروحي والمادي في نسيج المشروع الإسلامي ، قدرة هذا المشروع – زمن تألقه الحضاري – على تحقيق العدالة في الأرض ، فيما لم يشهد العالم له نظيراً ... وتفسّر كذلك – لحظة غيابها – أسباب انكسارنا الحضاري وتضاؤل دورنا في العالم ، وهيمنة الأقوياء على المستضعفين في الأرض ، حيث تنزلق مفاهيم العدالة إلى دركها الأسفل ،

---

(١) سورة البقرة ، (الآية ٣١).

(٢) النورسي : الكلمات ، ص ٢٧٠.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٨٩–٢٩٠.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٩٥.

فيما شهدناه ولا نزال نشهده عبر القرون الخيرة في تعامل الغرب المتفوق مع عالم الإسلام الذي فقد شروط انبعاثه وفاعليته.

وامتداداً لهذه الرؤية يقدم النورسي عرضاً مقارناً لنزعة الايمان الإيجابية بما تنطوي عليه من خير وفاعلية ، ونزعة الكفر السلبية بما تنطوي عليه من شرّ وتخريب : " نعم ، أيها الإنسان ! إن فيك جهتين : الأولى : جهة الايجاد والوجود والخير والايجابية والفعل. والأخرى : جهة التخريب والعدم والشرّ والسلبية والانفعال "[١].

وسيئة الكفر – يقول النورسي – " تفضي إلى تحقير جميع الكائنات ، وازدرائها ... وتتمخض عن إهانة الإنسانية وترذيلها. ذلك لأن لهذه الموجودات مقاماً عالياً رفيعاً ، ووظيفة ذات مغزى ". والكفر يسقط عن تلك الموجودات " مرتبة التوظيف ومنزلة التسخير ومهمة العبودية ، ويرديها إلى درك العبث والمصادفة ولا يرى لها قيمة ووزناً ... ويقذفها من صورتها الحية التي تفوقت بها على الأرض والجبال والسماوات بما أخذت على عاتقها من الأمانة الكبرى ، وفضلت على الملائكة حتى أصبحت صاحبة مرتبة خلافة الأرض "[٢].

ونزعة التخريب تملك طاقة هائلة على الشّر ، وكلنا يعرف ما الذي فعلته القوى الكافرة عندما امتلكت زمام الأمور بالعالم وبالشعوب المستضعفة بينما مضت حضارة الايمان – وهي في مركز القوة والفاعلية – تحرّر العالم ، وتمضي سنن الحق والعدل ، وتعمل تحت شعار : ﴿ ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ... ﴾[٣] ، ﴿ ... فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ... ﴾[٤].

إن الإنسان " إذا تخلى عن الأنانية ، وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي ، وأرجع الأمر إليه ، وابتعد عن الشّر والتخريب ، وترك اتباع هوى النفس ، فسيكون مظهراً للآية الكريمة : ﴿ ... فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ... ﴾[٥] فتتغلب القابلية العظمى عنده للشر إلى قابلية عظمى للخير ... فأنظر إلى فضل الحق تبارك وتعالى وكرمه ، ففي الوقت الذي تقتضي العدالة ان يكتب السيئة مائة سيئة ويكتب الحسنة حسنة واحدة ، أو لا يكتبها ، حيث أن

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٦٠.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٦٠-٣٦١.

(٣) سورة المائدة ، (الآية ٨).

(٤) سورة الأنعام ، (الآية ١٥٢).

(٥) سورة الفرقان ، (الآية ٧٠).

خيرها ومصلحتها يعودان على الإنسان ، فهو جلت قدرته يكتب السيئة سيئة واحدة والحسنة يزنها بعشر أمثالها أو بسبعين أو بسبعمائة أو بسبعة آلاف أمثالها "[١].

[4]

وبين حضارة الكفر وحضارة الايمان فارق كبير ، والنورسي يقف طويلاً وفي أكثر من موضع في رسائله الخصبة لكي يقارن بين الاثنتين وما تتمخض عنه كل منهما من تعاسة أو سعادة في حياة الإنسان : " ان طريق الشرك والضلالة والفسوق يهوي بالإنسان إلى منتهى السقوط وإلى أسفل سافلين ، ويلقي على كاهله الضعيف العاجز في غمرة آلام غير محدودة عبئاً ثقيلاً ، ذلك لأن الإنسان ان لم يعرف الله سبحانه وتعالى ويتوكل عليه ، يكون بمثابة حيوان فانٍ يتألم دوما ويحزن باستمرار ، ويتقلب في عجز وضعف لا نهاية لهما ويتعرض لمصائب لا حدّ لها ، ويتجرع آلام الفراق من التي استهواها ونسج بينه وبينها خيوط العلاقات ، فيقاسي وما زال يقاسي حتى يغادر ما بقي من أحبائه نهاية المطاف ، ويفارقهم جزعاً وحيداً غريباً إلى ظلمات القبر. وسيجد نفسه طوال حياته أمام آلام وآمال لا نهاية لهما ، مع أنه لا يملك سوى إرادة جزئية ، وقدرة محدودة ، وحياة قصيرة ، وعمر زائل ، وفكر آفل ، فتذهب جهوده في تطمينها سدى ويسعى هباء وراء رغباته التي لا تحد ، وهكذا تمضي حياته دون أن يجني ثمراً "[٢].

ثم ما يلبث النورسي أن ينتقل من الخاص إلى العام لكي يتحدث عن مرارات الحضارة الكافرة ، ويتساءل : " ترى هل يجدي أعظم علومكم ، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذ دهائكم شيئاً أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان ؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التواقة إلى السلوان ؟ "[٣].

لكأن النورسي يكشف بهذا ما تعانيه الحضارة الغربية المعاصرة من مرارات تدفع الكثيرين إلى احدى اثنيتن : الانتحار والهروب بالمغيبّات أو البحث عن (العقيدة) التي تمنحهم الأمن واليقين والتوحد والاطمئنان. ونحن نشهد عبر مياومات الحياة الغربية – على ما فيها من تقدم مادي وخدمي – توجهاً متزايداً صوب هذين الطريقين اللذين سيزداد الذاهبون إليهما بصيغة متوالية هندسية قد تغير موازين القوى وتقلب المصائر والمقدرات ... " هذه هي حقيقة ما يدعيه

---

(١) النورسي : الكلمات ، ص ٣٦١.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٥٥-٧٥٦.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٥٧.

أهل الضلالة ، وماهية ما يدعون إليه من سعادة الحياة أو (كمال الإنسان) و (محاسن الحضارة) و(لذة التحرر) ... "[١].

أما الصراط المستقيم أو الجادة المنورة للقرآن الكريم " فانه يداوي جميع تلك الجروح التي يعاني منها أهل الضلالة ويضمدها بالحقائق الايمانية ، ويبدّد كل تلك الظلمات في ذلك الطريق ، ويسد جميع أبواب الضلالة والهلاك "[٢].

وهكذا يتبين " بأن طريق الضلالة يودي بالإنسان إلى أسفل سافلين ، إلى حد تعجز أية مدنية كانت وأية فلسفة كانت عن إيجاد حل له ، بل يعجز الرقي البشري وما بلغه من مراتب العلم عن إخراجه من تلك الظلمات السحيقة "[٣].

ويضرب النورسي مثلاً على المصائر المفجعة التي تقود إليها حضارة كافرة فقدت قيم الحق والعدل ، وقطعت علائقها بالمعبود جل وعلا وأحنت رأسها لربوبيات المصلحة والقوّة والعلم والاقتصاد ... وليس ثمة أبرز دلالة من مأساة الحرب العالمية " التي قاست البشرية من ويلاتها أي مقاساة ، إذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم ، مع الدمار الظالم المريع في الأرض كافة. فقد نكب الأبرياء بجريرة شخص واحد ، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرين ، وبات الغالبون في عذاب وجداني أليم لعجزهم عن إصلاح دمارهم الفظيع ، وخشيتهم من أن يعجزوا عن الحفاظ على سيادتهم. وظهر للناس بجلاء تام ، ان الحياة الدنيا فانية لا ريب فيها ، وأن زخارف المدنية خادعة ومخدرة لا تجدي شيئاً ، وتلطخت البشرية بدماء الطعنات القوية التي نزلت بالذات الإنسانية وبالاستعدادات الرفيعة في فطرتها ... وافتضحت الصورة الحقيقية للسياسة الدولية الشوهاء الغدارة والتي هي أوسع ستار وأكثفه لإغفال الناس وإضلالهم وأشده خنقاً وخداعاً لروحهم "[٤].

ولقد نتج عن هذا كله ردّ فعل عارم لدى الغربيين في البحث عن الطريق ... عن المنهج أو الدين الحق الذي يخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان المحرفة والمذاهب الوضعية إلى عدل الإسلام ، ويشير النورسي إلى الحالات المتزايدة في العديد من الدول الأوربية لاعتناق الإسلام ، بل إلى قيام جمعيات تدعو إليه وتبشر به[٥].

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٥٨.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٥٩.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٦١.

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧٢.

(٥) ينظر : المرجع السابق ، ص ١٧٢-١٧٣.

إنه لا خلاص للقلوب والأرواح من قبضة القلق الرهيب ، ومن دوامات الاضطراب والخوف ، ومن ظمأ الضلالة وحرقة نار البعد عن الله – كما يؤكد النورسي – إلاّ " بمعرفة خالق واحد أحد. إذ ما أن يسلّم أمر القلوب والأرواح ، وأمر كل الموجودات إلى خالق واحد أحد ، حتى تجد راحتها وتحظى بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمّرة ، وتسكن من ذلك القلق وتستقر وتطمئن "[١].

[5]

والنورسي يدير كاميرته على زوايا مختلفة من الحضارة الغربية لالتقاط مظان الظلم والقبح والانحراف فيها ، ولو ذهبنا لاستقصاء ما قاله فيها لطال بنا السرى ولذا لابدّ من الايجاز ، إذ قد تغني بعض الشواهد عن الاستفاضة ، والمهم أن النورسي وهو يعرض لهذه البقع الرمادية والسوداء في جسد الحضارة الغربية ، يذكر ، بشكل مباشر حيناً غير مباشر أحياناً ، ببدائلها الإسلامية العادلة المضيئة ، فكأنه بذلك يقدم عرضاً مقارناً بين حضارتي الكفر والايمان.

الحضارة الغربية تدور سياساتها على المنافع ، وهي وحش رهيب ، والتودّد إلى وحش جائع لا يدّر عطفه بل يثير شهيته ، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره !! [٢].

والحروب الطفيفة بين الدول والشعوب تتخلى عن مواضعها إلى صراعات أشد ضراوة بين طبقات البشر ، لأن الإنسان لم يرض في أدواره التاريخية بالأسر ، بل كسر الأغلال بدمه ، ولكن الآن أصبح أجيراً يتحمل أعباءه وسيكسرها يوماً ما. لقد اشتعل رأس الإنسان شيباً ، بعد أن مر بأدوار خمسة : الوحشية والبداوة والرق وأسر الإقطاع ، وهو الآن أجير ، هكذا بدأ وهكذا يمضي[٣].

والفلسفة المادية طاعون معنوي ، حيث سببت في سريان حمى مهلكة في البشرية (إشارة إلى الحرب العالمية) وعرضها للغضب الإلهي. فكلما توسعت قابلية التمرّد والانتقاد – بالتلقين والتقليد – توسّع ذلك الطاعون أيضاً وانتشر. فانبهار الإنسان بالعلوم ، وانغماره في تقليد المدنية الحاضرة أعطته روح الانتقاد والتمرّد فظهر الضلال من غروره[٤].

والمدنية السفيهة أطلقت النساء من أعشاشهن ، وامتهنت كرامتهن وجعلتهن متاعاً مبذولاً. بينما شرع الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن رحمة بهن. فكرامتهن فيها وراحتهن في بيوتهن ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٩٣.

(٢) المرجع نسه ، ص ٨٥٠.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٥٢.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٨٧٧.

وحياتهن في دوام العائلة. الطهر زينتهن ، الخلق هيبتهن ، العفة جمالهن ، الشفقة كمالهن ، الأطفال لهوهن ... إن تكشف النساء تكشفاً دون قيد ، أصبح سبباً لتكشف أخلاق البشر السيئة وتناميها[١] ...

المدنية الحاضرة استولت على الأفكار بقولها : ان السعادة هي في الحياة نفسها. إلاّ أن الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضر. والتجارب القاطعة أظهرت لنا أن الدين حياة للحياة ونورها وأساسها. وان إحياء الدين هو احياء لهذه الأمة ، والإسلام هو الذي أدرك هذا ، وان رقي أمتنا هو بنسبة تمسكها بالدين ، وتدنيها هو بمقدار اهمالها له. بخلاف الدين الآخر[٢] ...

والحضارة الغربية تقوم على الفرية والأنانية ، ويعكس النظام الربوي الذي يشكل جملتها العصبية الاقتصادية ، ويقوم على الظلم والابتزاز ، أحد وجوهها القبيحة وبقعها السوداء ... ويؤكد النورسي على " أن معدن جميع أنواع الاضطرابات والقلاقل والفساد وأصلها ، وان محرك جميع أنواع السيئات والأخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان اثنتان أو جملتان فقط. أولاهما : إذا شبعت أنا فما عليّ إن مات غيري من الجوع. وثانيتهما : تحمّل أنت المشاق لأجل راحتي ، اعمل أنت لآكل أنا. لك المشقة وعلي الأكل.

" والداء الشافي الذي يستأصل شأفة السمّ القاتل في الكلمة الأولى هو : الزكاة ، التي هي ركن من أركان الإسلام. والذي يجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية هو : تحريم الربا. فان كانت البشرية تريد صلاحاً وحياة كريمة فعليها أن تفرض الزكاة وترفع الربا ... وإن أرادت دوام الحياة فعليها أن تستمسك بالزكاة وتطرد الربا. إذ أن عدالة القرآن واقفة بباب العالم وتقول للربا : ممنوع ، لا يحق لك الدخول ، ارجع "[٣].

لكن البشرية لم تصغ إلى هذا الأمر ، فتلقت صفعة قوية في الحرب العالمية الثانية ، وعليها أن تصغي إليه قبل أن تتلقى صفعة أخرى أقوى وأمر[٤].

وإذا كان المشروع الإسلامي قد اقرّ التمايز القومي بين الجماعات والشعوب ، واعتبره وسيلة للتنوع والتغاير : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٧٤.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٦١.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٥١.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٨٥٢.

﴿لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، إلا أنه لم يمض به بعيداً باتجاه القطيعة والاستعلاء والعدوانية ، بالعكس ، انه فتح أمامه كل القنوات الممكنة للتعارف والتقارب والالتحام تحت مظلة العقيدة الواحدة والشريعة المشتركة ... وهو منذ البداية أكد على أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح فسدّ بذلك الطريق على ادعاءات التفوق الاثني الذي يقود إلى الشوفينية ، كما أنه دعا في الوقت نفسه إلى العمل المشترك في سبيل أهداف مشتركة بين الأقوام كافة تذوب ازاءها وتتلاشى سائر الحساسيات ، بل إنه أعلن الحرب على الدعاوى العرقية فقال على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (دعوها فانها منتنة) وكرّه التعاظم بالآباء على سبيل الاستعلاء واعتبر ذلك دعوى جاهلية.

والنورسي يقف طويلاً عند هذه المسألة وهو يقارن بين المشروعين الإسلامي والغربي[2]. ويحلل ما ينطوي عليه أولهما من عدالة وانفتاح وما انتهى إليه ثانيهما من ظلم وعدوانية وانغلاق ، وما أريد للأمة الإسلامية أن تنجرّ إليه ، فيقودها ذلك إلى التفكك والضعف والاصطراع والهوان وتحوّل شعوبها المستضعفة إلى قصعة تولم عليها ذئاب الغرب " لقد انتشر الفكر القومي وترسّخ في هذا العصر. ويثير ظالمو أوربا الماكرون بخاصة هذا الفكر بشكله السلبي في أوساط المسلمين ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم. ولما كان في الفكر القومي ذوق للنفس ... وقوة مشؤومة ، فلا يقال للمشتغلين بالحياة الاجتماعية في هذا الوقت : دعوا القومية. ولكن القومية نفسها على قسمين قسم منها سلبي مشؤوم مضر ، يتربى وينمو بابتلاع الآخرين ، ويدوم بعداوة من سواه ، فهو يولد المخاصمة والنزاع ... ولقد ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية ... كما أظهر الدمار الرهيب الذي أحدثته الحرب العالمية ، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشرية ... أما القومية الإيجابية فهي نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية ، وهي سبب للتعاون والتساند ، وتحقق قوة نافعة للمجتمع ، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية ... ولهذا فلا تكون الأخوة القومية مهما كانت قوية إلا ستاراً من أستار الأخوة الإسلامية ، وبخلافه ، أي إقامة القومية بديلاً عن الإسلام ، جناية خرقاء أشبه ما تكون بوضع أحجار القلعة في خزينة الماس وطرح الألماسات خارج القلعة "[3].

---

(١) سورة الحجرات ، (الآية ١٣).

(٢) ينظر : كليات رسائل النور ، ٢ المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الأولى ، دار سوزلر للنشر ، (استانبول-١٩٩٢م) ، ص ٤١٣-٤٢١.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤١٤-٤١٦.

وثمة من يدعو في ديارنا إلى تقليد المشروع الأوربي ذي البطانة النصرانية والتخلّي عن مطالب المشروع الإسلامي دونما أي قدر من الإدراك الذي يتضح معه أن محاولة كهذه لا تقوم على أي استناد عقلي أو شرعي أو تاريخي ، ذلك أن " قياس الإسلام بالنصرانية خطأ محض. لأن أوربا عندما كانت متمسكة بل متعصبة لدينها ، لم تكن متحضرة ، وعندما تركت التعصب تحضرت. ولقد أثار التعصب الديني لدى أوربا نزاعات داخلية دامت مئات السنين ، وكان الحكام المستبدون يتخذون الدين وسيلة في سحق العوام وفقراء الناس وأهل الفكر والعلم منهم ، حتى تولد لدى عامة الناس نوع من السخط على الدين. أما في الإسلام – والتاريخ شاهد – فقد ترقى المسلمون رقياً عظيماً ما ملكوا الدين واعتصموا به ... ولكن متى ما أهمل المسلمون دينهم تخلفوا وتردوا. ثم ان الإسلام حامي الفقراء والعوام من الناس ، وذلك بوجوب الزكاة وحرمة الربا ، وأمثالهما من ألوف المسائل التي ترأف بحال العوام. ثم أن الإسلام يحمي أهل العلم ، ويستشهد بالعقل والعلم ويوقظهما في النفوس بمثل هذه الآيات الكريمة : **(... أفلا يتدبرون ... أفلا يتفكرون ... أفلا يعقلون)**. لذا كان الإسلام دوماً قلعة الفقراء وحصن العلماء وملجأهم. فلا داعي في الإسلام قطعاً لمثل هذه المجافاة "[1].

وهو يحذّر من لعبة التقليد هذه التي تخلط بين المظهر والجوهر وتخترق على المسلمين دينهم وعقيدتهم كما لو كان الأمر استبدال ثياب بثياب ، ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد بين بذاته أسس الإسلام وبين معها " فروع الدين ودساتير أحكامه بل حتى أصغر أمر جزئي من آدابه ... بمعنى أن الأمور الفرعية في الشريعة الإسلامية ليست على صورة لباس وثياب قابلة للتغيير والتبديل. بحيث لو بدلت لظلت أسس الدين ثابتة. بل انها جسد تلك الأسس إذ قد امتزجت والتحمت معها بحيث لا تقبل التفريق والفصل. وان تبديلها مباشرة يؤدي إلى تكذيب صاحب الشريعة وانكاره "[2].

[6]

في رسالة (نوى الحقائق) التي يختتم بها مجلد (المكتوبات) يقدم النورسي جملة من المرئيات تبلغ 111 وهي مضغوطة بكلمات قلائل رغم أنها تنطوي على الكثير من الدلالات الخصبة. وقد يكون من المناسب أن نختتم بحثنا الموجز هذا بتلك المرئيات ذات الارتباط بعدالة المشروع الحضاري الإسلامي ، وهي تتعامل مع الموضوع – كما أشرنا في بدء البحث – وفق

(١) المرجع نفسه ، ص ٤١٨.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٦١.

مستويين مباشر وغير مباشر. وفي كلتا الحالتين فان القارئ يتلقى وهو يطالع هذه المرئيات ، المزيد من الإضاءات بخصوص الموضوع.

١- عصر مريض ، وعنصر سقيم ، وعضو عليل ، وصفتها الطبية هي اتباع القرآن[١].

٢- ان النصرانية سوف تلقي السلاح وتستسلم للإسلام ، سواء بالانطفاء أو بالاصطفاء ، فلقد تمزقت النصرانية عدة مرات حتى انتهت إلى البروتستانتية. وتمزقت هذه فاقتربت من التوحيد ، وهي تتهيأ للتمزق مرة أخرى ، فإما أنها تنطفئ وينتهي أمرها ، وإما أن تجد تجاهها الحقائق الإسلامية الجامعة لأسس النصرانية الحقة ومبادئها ، فتستسلم. وقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا السرّ العظيم بأنه : سينزل عيسى (عليه السلام) وسيكون من أمتي ويعمل بشريعتي[٢].

٣- إن الذي يسلك إلى مقصد طريقاً غير مشروع ، كثيراً ما يعاقب بخلاف مقصوده ، فان جزاء محبة غير مشروعة – كمحبة أوربا – هي عداء غادر من المحبوب[٣].

٤- إن إسناد محاسن المدنية إلى النصرانية التي لا فضل لها فيها ، وإظهار التنّكر والتقهقر قريناً بالإسلام الذي هو عدو له ، دليل على دوران المقدرات بخلاف دورتها ، وعلى قلب الأوضاع[٤].

٥- إن الذين يبحثون عن كل شيء في المادة ، عقولهم في عيونهم ، والعين لا تبصر المعنويات[٥].

٦- إن إحياء الدين إحياء للأمة ، وحياة الدين نور الحياة[٦].

٧- إن القرآن الكريم الذي هو رحمة للبشرية كافة ، انما يقبل المدنية التي تكفل سعادة العموم أو في الأقل سعادة الأكثرية المطلقة. بينما المدنية الحاضرة قد تأسست على خمسة أسس سلبية :

(١) نقطة استنادها وركيزتها القوة ، وهذه من شأنها التجاوز والاعتداء.

(٢) هدفها وقصدها : المنفعة ، وهذه من شأنها التزاحم.

(٣) دستورها في الحياة : الجدال والصراع ، وهذا من شأنه التنازع.

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٠٠.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٠٢.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٠٥.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٦٠٦.

(٥) المرجع والصفحة نفسها.

(٦) المرجع نفسه ، ص ٦٠٦.

(٤)رابطتها بين الكتل البشرية هي العنصرية والقومية السلبية التي تنمو وتتوسع بابتلاع الآخرين ، وشأنها التصادم الرهيب.

(٥)خدمتها للبشرية خدمة جذابة : تشجيع الهوى وتلبية رغبات النفس الأمارة ، ذلك الهوى الذي هو سبب لمسخ الإنسان مسخاً معنوياً.

أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها :

فان نقطة استنادها : الحق بدلاً من القوة ، والحق من شأنه : العدالة والتوازن.

وهدفها : الفضيلة بدلاً من المنفعة ، والفضيلة من شأنها : المودّة والتجاذب.

جهة الوحدة فيها : الرابطة الدينية والوطنية ، بدلاً من العنصرية والقومية ، وهذه الرابطة من شأنها : الأخوة المخلصة ، والمسالمة الجادة ، والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي.

دستورها في الحياة : التعاون بدلاً من الجدال والصراع ، والتعاون من شأنه الاتحاد والتساند.

وتضع الهدى بدلاً من الهوى ، والهدى من شأنه : رفع الإنسان روحياً إلى مراقي الكمالات.

فلا ترخ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا ، واستعصم به وإلا هلكت[١].

٨- العدالة القرآنية المحضة ، لا تهدر دم بريء ولا تزهق حياته حتى لو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء. فكما أن كليهما في نظر القدرة سواء ، فهما في نظر العدالة سواء أيضاً. ولكن الذي تمكن فيه الحرص والأنانية يصبح إنساناً يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع[٢].

٩- إذا تأنث الرجال بالتهوّس ، ترجل النساء بالتوقح. كلما دخلت امرأة حسناء في مجلس من مجالس الإخوان تنبه عرق الرياء والحسد والمنافسة. ففي تكشف النساء تكشف عن الأخلاق السيئة في الإنسان المتحضر[٣].

١٠- إن الفلسفة المادية طاعون معنوي ، حيث سبّب في سريان حمى مدهشة في البشرية وعرضها للغضب الإلهي. وكلما توسعت قابلية التلقين والنقد توسع ذلك الطاعون أيضاً[٤].

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٠٨.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦١٢.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٦١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

مرئيات حول العولمة والنظام العالمي الجديد

" محاضرة ألقيت في كلية القانون
بجامعة الموصل في خريف عام
٢٠٠٩م ".

أيها الأساتذة والحضور الكرام ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

ابتداء فان العولمة التي حوّلت العالم الفسيح إلى قرية أو نادٍ صغير تلتحم فيه المصالح والدول والجماعات ، انما هي الإفراز الطبيعي للتقدم التقني المدهش الذي ارتبط – لسوء الحظ – بالنظام العالمي الجديد ذي القطبية الأحادية ، وخلفياته التنظيرية سواء في (صراع الحضارات) أو (نهاية التاريخ).

تعرّف العولمة في ظاهرها بأنها ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم سواء تلك المتمثلة في تبادل السلع والخدمات ، أو انتقال رؤوس الأموال ، أو في انتشار المعلومات والأفكار.

أما في حقيقة الأمر فان معناها تفكيك الأمم والدول والجيوش والمجتمع والأسرة ، وتجريد الفرد من القيم والأخلاق والدين ، ورفع الحواجز والحدود أمام المؤسسات والشركات متعددة الجنسية ، وتتحرك على محاور أربعة هي المحور الثقافي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي.

فلو أن العولمة تشكلت في ظرف دولي متعدد القطبيات لكان يمكن أن تكون ظاهرة إيجابية تدّر الخير على الجميع ، ولكن بما أنها جاءت والعالم يتمركز حول قطبية واحدة ، هي القطبية الأمريكية التي انسحبت إليها المركزية الأوربية ، والتي تنطوي على بعد استعلائي ، مادي ، علماني ، براغماتي ، يقوم على التحقق بالمزيد من القوة ، والبحث عن المزيد من فرص اللذة المنفلتة ، والتكاثر بالأشياء ، والنزعة الاستهلاكية التي يزداد سعارها يوماً بعد يوم. وبما أن المنظرين الكبار دفعوها أكثر فأكثر لأن تكون لسان حال الولايات المتحدة الأمريكية ، في كل صغيرة وكبيرة ، كما فعل صموئيل هنتنغتون في (صراع الحضارات) وفرنسيس فوكوياما في (نهاية التاريخ) فلنا أن نتوقع كيف سيكون مردودها على البشرية عموماً ، وعلى الشعوب المستضعفة تحديداً.

ونحن نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، كيف سعت دولة إسلامية شرق أقصوية هي ماليزيا في أواخر القرن الماضي إلى تعزيز اقتصادها وتنميته ، والدول المجاورة لها ، بتشكيل سوق شرق أقصوية مشتركة ، أسوةً بما فعلته أوربا الغربية ... ومضت خطوات واسعة في ذلك ، وكيف أن أمريكا من خلال شركاتها العملاقة متعددة الجنسيات ، تمكنت من توجيه ضربة قاسية لهذا التوجه الذي قد يدخل منافساً لمصالحها في المنطقة ، وذلك بإجراء سلسلة من التحويلات المالية ، والضغط على عدد من الأزرار الالكترونية ، فإذا بالعملة الماليزية تنخفض

بنسبة الثلث ، وتتعرض المحاولة بأكملها إلى انتكاسة لم يحسب حسابها من قبل مهندسي الحركة.

ونذكر – كذلك – كيف أن أمريكا تجاوزت التقاليد المعروفة في الأمم المتحدة ، وانفردت وتابعتها بريطانيا ، باتخاذ قرار ضرب العراق في (ربيع ٢٠٠٣م) بحجة امتلاكه الأسلحة المحرمة دولياً ، فيما ثبت كذبه ، وقامت بحربها المشؤومة ضد هذا البلد ، وانتهى بها الأمر إلى إصدار قرار خطير بحلّ مؤسسته العسكرية وترك ظهور الشعب العراقي حتى اللحظات الراهنة مكشوفة للميليشيات المسلحة التي راحت تقتل وتصفّي بغير حساب.

ونذكر – كذلك – اختراق الإدارة الأمريكية لمناهج التربية والتعليم في مصر ، وفي العراق ، حيث تشكل " مركز تطوير المناهج " بأموال أمريكية ، واشتغل فيه تسعة وعشرون مستشاراً أمريكياً بضمنهم عدد من الخبراء اليهود ... وكيف أعلنت واشنطون بوست في السادس من فبراير عام (٢٠٠٤م) عن السعي الجاد لتغيير المناهج التربوية والتعليمية في العراق ، وكيف خصصت وكالة الولايات المتحدة للتنمية AID مبلغ ٦٥ مليون دولار لهذه المهمة ، وكيف أبدى نهاد عوض ، المدير العام لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) تخوّفه من نتائج هذا الاختراق.

إنهم يريدون غزونا بثقافتهم التي تدعو إلى إعلاء القيم المادية وتعزيز مكانة الفرد والمصالح الخاصة على حساب الجماعات ، والتحرّر من المبادئ والقيم السماوية التي أكدتها الأديان ، ويشيعون بدلاً منها ، وتحت مظلة حقوق الإنسان ومقاومة الإرهاب عولمة : المصنع والسوبر ماركت والكباريه : الإنتاج ، والاستهلاك ، اللذة ... فيما يتناقض أساساً ليس مع مطالب الأديان وخاتمها الإسلام فحسب ، وانما مع مهمة الإنسان في العالم ، ومغزى وجوده في الحياة.

والآن فانني أريد – قدر ما يسمح به وقت محاضرة كهذه – أن أقدّم لقطات عن العولمة وذيولها من الاستعمار الجديد ، ونظريتي (صراع الحضارات) و(نهاية التاريخ) وهدفها الأساس من تشكيل حضارة المصنع والسوبر ماركت والكباريه ... لقطات شبيهة إذا انضاف بعضها إلى بعض ، بما يفعله كتاب المونتاج في الأعمال الدرامية والسينمائية ، وتشكل في أذهاننا الأبعاد الحقيقية للعولمة في وضعها الراهن ... وأقول في وضعها الراهن ، إذ قد تتبدل المعادلات الدولية ، وتخرج الشعوب المستضعفة من عنق الزجاجة الضيق ، فيكون للعولمة شأن آخر ... بكل تأكيد ...

عولمة من طرف واحد

أهي عولمة متكافئة تقف فيها الدول والأمم والجماعات والمؤسسات والشعوب على قدم سواء ، فتتعامل مع المعطيات الجديدة تعامل الندّ للندّ في السياقات كافة : الاستراتيجية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ؟ أم هي الهيمنة المتفردة للقطب الواحد الذي يضع زعماء الدول الكبرى والصغرى ، واقتصاديات العالم في جيبه ، وتحت مظلته ، وحيث يفرض على الدنيا نمطاً من الثقافة ينبض بعشق الأشياء ويتجرد من كل ما يمت بصلة للقيم الدينية والأخلاقية ... والإنسانية في نهاية الأمر ؟!

أهي عولمة يدر فيها ضرع الأرض في أفواه الناس كافة ، فيطعمهم ويسقيهم ويوزع عليهم خيراته بالعدل والقسطاس ؟ أم هو الابتزاز الذي يحتكر الثروات فما يزيد الأغنياء والأقوياء إلا غنى وقوة ، وما يزيد الفقراء والضعفاء إلا فقراً وضعفاً ؟

أهي عولمة تكافح بإخلاص لردم الخندق العميق بين دول الشمال ودول الجنوب ، وتبذل جهدها لإلغاء الخط الفاصل الممتد بين طنجة وجاكرتا ، لكي يلتقي الإنسان بالإنسان ، وتلتحم الشعوب بالشعوب ، ويعيش الجميع ، وقد تحققوا بالضمانات الأساسية للحياة ، سعداء ، متحابين ؟ أم هي الرغبة الجامحة لمراكز القوة والغنى في العالم ، والتي تتمحور اليوم في أمريكا ، ليس لإلغاء هذا الخط ، أو التخفيف على الأقل من عمقه اللوني ، وإنما لتأكيده وإقامة الجدران الشاهقة والأسلاك الشائكة بين العالمين فيما يمنح هذه المراكز ، طبقاً لقناعات زعمائها ، حماية أكثر فاعلية لتفوقها وديمومتها الحضارية ، بغض النظر عن مدى ما تتسم به هذه القناعات من اثرة ولا أخلاقية ؟

إن العولمة لو أتيح لها أن تتحقق في عالم تحكمه قطبيات متوازنة ، وتجد فيه الأمم الضعيفة فرصتها للصعود ، لكان يمكن أن تصبح فرصة مدهشة لسعادة تعم الناس ، وتبادل في الخبرات والمعطيات ينشر الخير والاستقرار على العالم أجمع ، ويمضي بركاب القطار كافة صوب الأهداف التي يحلمون بها ويسعون من أجلها.

وأما أنها تجيء وقد أمسكت بخناق العالم قوة أو قيادة متفردة ، وأن تكون هذه القيادة نموذجاً للرغبة الطاغية في التحكم والسلطان ، بزعامة العالم ، وفرض إرادتها على دوله وشعوبه كافة.

وأما أنها تجيء ، وهذه القيادة المتفردة تمثل الحضارة الغربية في أقصى حالاتها مادية ، ورغبة في التكاثر بالأشياء ، وتعبداً لصنميات القوة ، وبعداً عن منظومة القيم الخلقية والدينية ،

وتضحلاً روحياً ، وغياباً لإنسانية الإنسان ، وضياعاً لشروط الحق والعدل ... فانها ستغدو ، وقد غدت فعلاً ، سلاحاً جباراً مسلطاً على رؤوس الأمم والدول والشعوب ، بل حتى الجماعات والمؤسسات ، لإرغامها على الخضوع وعلى وضع ثديها لكي يدر في فم السيدة المتفردة بالمصائر والمقدرات.

وأما أنها تجيء ، ومؤسساتها ذات القدرات الأسطورية تزداد قوة وهيمنة ، على هذه المصائر والمقدرات ، بتجمعها الكارتلي المخيف ، وإزاحتها للمؤسسات الأقل غنىً وقدرة.

وأما أنها تجيء ، ومن وراء هذه المؤسسات العملاقة ، المكر والجشع اليهودي ، وسدنة العجل الذهبي من عباد المال اليهود.

فان لنا أن نتوقع ما الذي ستشهده الدنيا ، عبر الزمن القريب القادم ، إذا كانت إحدى بداياته على سبيل المثال لا الحصر ، سحق التطلع الاقتصادي والمالي الشرق أقصوي ، وتدمير طموحه الاستقلالي والتنموي ، بمجرد ترحيلات سريعة في الأرصدة المالية ، وضغط على أزرار الأجهزة الالكترونية قد لا يتجاوز الدقائق المعدودات !!

حراس (العهد الأمريكي) !

استطاعت الولايات المتحدة أخيراً أن توظف حكام العالم وتجعل منهم مديري أمن ومخابرات يعملون مصلحتها ، ويقدمون لها الخدمات التي تمنح المواطن الأمريكي الإحساس بالأمن ، وتبعد عنه شبح التوجس والخوف.

وها هم الآن يتسابقون على مدى قارات الدنيا كلها ، ليس لإعلان ولائهم للست الكبيرة ، والوقوف إلى جانبها ضد الإرهاب ، وإنما لتسخير القدرات المخابراتية والأجهزة الأمنية لدولهم ، من أجل حماية السيدة ورعاياها كافة من كل ما يسبب لها قلقاً أو خوفاً ...

إنه الولاء في أكثر حالاته تجلياً ووضوحاً ... وإذا كان هناك ثمة ما يسمى (بالجريمة الكاملة) التي يتقن فيها الفاعل عمله الجرمي بحيث لا يترك أي دليل على الاطلاق يسوقه إلى الإدانة ... فان هؤلاء الحكام ، وبمفهوم المخالفة ، سينفذون جريمتهم الكاملة بحق شعوبهم ، دون أن يعطوا لهذه الشعوب أية فرصة على الاطلاق لإدانتهم وتجريمهم ، لا لأنهم يتقنون عملهم بأكثر الصيغ دقة وإحكاماً ، وإنما لأن الشعوب نفسها فقدت الإحساس بالأشياء ، وأصيبت بثقل السمع وعمى الألوان.

إن التكاثر بالأشياء ، وغياب القيم الروحية والخلقية ، بل الإنسانية ، من حياة الناس ، وفق النموذج الغربي الأمريكي ، قتل لديهم أي تطلع صوب منظومة القيم ، أو التزام بها ،

وجعلهم ، بدرجة أو أخرى ، أشبه بالسوائم التي تكدح في الليل والنهار ، لكي تتحقق فقط بضمانات الحاجات الأساسية في المأكل والملبس والمسكن والجنس.

لقد تنزلت الأديان كافة لمجابهة هذه الحالة ... لإعادة وضع الإنسان في مكانه الحق الذي أريد له يوم خلقه الله سبحانه وتعالى وكرّمه ، ومنحه السيادة على العالمين ... لكن إغراءات التكاثر بالأشياء ، والالتصاق بالأرض ، والإخلاد إليها ، والبحث عن ضمانات الإشباع الحسي الأساسية ، كانت في معظم الأحيان ، تجر الإنسان بعيداً عن موقعه ، وتحوله شيئاً فشيئاً إلى آلة صماء تدور ، أو سائمة تأكل وتشرب وتسافر وتنام ! وحينذاك تصير المجتمعات البشرية أدوات طيعة بأيدي الذين يقودونها ، وتختفي تماماً كلمة (لا) في مواجهة الرعاة والجزارين !

من هذه الثغرة التي كان ليوبولد فايس (محمد أسد) قد تحدث عنها يوماً وهو يسرد سيرته الذاتية في كتابه القيم (الطريق إلى مكة) ، وحذر منها ، وهو وزوجته (إلزا) يقفان مندهشين أمام سورة (التكاثر) في كتاب الله.

من هذا وذاك سيدخل الطواغيت الكبار والصغار لإحكام (التدجين) وإلغاء كل ما تبقى من خصائص إنسانية لدى المجتمعات والشعوب.

وحينذاك وببركات النموذج المادي الأمريكي ، وعشق الضمانات والتكاثر بالأشياء ، وإدارة الظهر كلية لمنظومة القيم الدينية والخلقية ، سيسهل على حراس (العهد الأمريكي) أداء مهمتهم ، وحماية السيدة من كل ما يقلق أبناءها المدللين ، أو يستفزهم ، من دوافع القلق وهواجس التوجس والخوف.

ولسوف تدخل أمريكة ، يتقدمها حراسها المتربعون في مواقع السلطة ، دورنا ومخادعنا ... وسيمارس الإرهاب الأمني في أبشع صيغه ، والقرصنة المرذولة في أكثر حالاتها قسوةً وعنفاً وانتهاكاً ، وسيرصد نبض القلوب وخفقان العقول لكيلا تنبض وتخفق إلا بالتسبيح لأمريكة ... وسيصير المفكر الذي يرفض الانحناء ويتردد في الاندماج مع القطيع (العالمي) متهماً يلاحق في كل مكان ، وقد يصدر القرار بتجريمه واعتقاله ، وربما تصفيته ، حتى قبل أن تثبت إدانته بالأدلة القاطعة ، لأن آليات الرصد الأمني قديرة إذا اقتضى الأمر على أن تقدم الأسباب !!

أعلى مراحل الاستعمار

يمثل النظام العالمي الجديد ، إذا أردنا الحق ، أعلى مراحل الاستعمار ! فإذا كانت الرأسمالية عبر القرنين الماضيين هي أعلى هذه المراحل ، فإن النظام الجديد سيكون عبر القرن الطالع هو قمتها ، أو حالتها القصوى في أكثر صيغها عنفاً وتكشفاً وجبروتاً.

وباختصار شديد فإن هذا النظام الجديد الذي يجيء متزامناً مع (العولمة) وجد بين يديه فجأة أداتين هائلتين لم يتيسر عشر معشارهما للاستعمار القديم ، وحتى للإمبريالية التي أعقبتها زمن القطبية المتعددة الأطراف ، والتباعد النسبي للأمم والشعوب ، فيما كان يمنحها في الحالتين الفرصة للتميز ، والاستقلالية ، ويضع بين يديها هامشاً للخيار.

تلكما الأداتان هما : العولمة ، والقدرات العسكرية والسياسية والاستراتيجية المدهشة للولايات المتحدة الأمريكية.

الآن ... غابت الأقطاب المتعددة ، وتقاربت الأمم والشعوب ... أصبحت كما يقول المثل قرية صغيرة ... والآن ضيق الخناق على هامش الخيار ... ولقد رأى العالم بأم عينيه كيف تهافت كبار زعماء العالم على تلبية نداء (بوش) فيما سماه العمل على مقاومة الإرهاب ... رغم أن هذا بحد ذاته سيخترق عليهم استقلاليتهم وخصوصياتهم ، ورغبتهم المؤكدة في التميز وعدم الاحتواء ، ورغم أنه يلقي ظلاله القاتمة السود ، حتى على مكانتهم (الأدبية) في العالم ، دولاً أو شعوباً ذات عمق حضاري ومساحات مؤكدة على خرائط العالم المعاصر !

ومن خلال إغراءات القطبية الأحادية والتفرد بالسلطان ... من خلال نداءات القوة التي طاش بها الميزان ... من خلال تحول العالم كله إلى قرية صغيرة يطل عليها ، ويضع يديه على مقدراتها (فرانكشتاين) الأمريكي الذي فقد أصحابه أنفسهم القدرة على الإمساك به والهيمنة عليه !

من خلال هذا وذاك سيجد العالم نفسه ، مرة أخرى ، في غمار حالة (استعمارية) لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ... وسيكون الاستعماران القديم والجديد مجرد (نزهة) كانت قد قامت بها يوماً جيوش أوربة وأمريكة لابتزاز المستضعفين في الأرض.

ومن خلال هذا وذاك أطلق البابا الجديد (بوش) الابن نداءه المعروف في (كليرمونت) الثانية : من لا يكون معنا فهو ضدنا !

إما أن تكون دول العالم مع أمريكة أو مع الإرهاب !! ونادى أيضاً ، فيما حاول أن يعتذر عنه فيما بعد لأسباب مصلحية واستراتيجية ملحة : إنها حرب صليبية جديدة !

اليوم سيكون بمقدور النظام الجديد ملاحقة الحكومات التي تتأبى على الخضوع لإرادته بدرجة أو أخرى ... وطيّها من الوجود.

واليوم ستجد حركات المقاومة الإسلامية لقوى الشر والابتزاز والهيمنة والاستلاب والاستعباد ... ستجد السكين الأمريكية تدوم فوق رؤوسها لتذبحها او تكفها عن العمل.

واليوم يتحول العالم كله بدوله الكبرى ، وامبراطورياته العتيقة ، إلى قطيع يركض وراء أمريكة.

فأين يكون الصغار والمستضعفون ؟!

اليس هذا كله أبشع صيغ الاستعمار الذي شهده تاريخ البشرية ؟!

الاستعمار في أقصى حالاته

الآن وفي ظلّ غياب القطبّيات الدولية المتعدّدة ، وتفرّد القطب الأمريكي الأحادي بمقدّرات العالم.

الآن وفي ظل ما يسمى خطأ بالنظام العالمي الموحد أو الجديد ...

الآن يتم توظيف القدرات الأسطورية للعلم والتكنولوجية من أجل جعل (العولمة) التي أصبح العالم من خلالها قرية صغيرة متقاربة الأبعاد والمسافات ... أداة جبارة لحكم واستعباد الشعوب المستضعفة ، والتمكين لقوى الاستكبار والابتزاز في الأرض.

ما من عصر (استعماري) كهذا العصر (الجديد) تتلقى فيه الشعوب المستضعفة واحدة من بشع محاولات الاستلاب في التاريخ البشري على الاطلاق.

إن الاستعمار القديم ، والإمبريالية ، أي الاستعمار الجديد الذي قام على أنقاضه ، لا يعدان شيئاً بالقياس إلى الحالة الاستعمارية القصوى التي تمارسها أمريكة الآن من خلال واقعة العولمة والقطبية أحادية الجانب والنظام العالمي الجديد ... من خلال القوانين والمنظمات الدولية الكبرى حيناً ، او بمعزل عنها حيناً آخر ... وتحت غطاء (حماية حقوق الإنسان) حيناً و(مقاومة الإرهاب) حيناً آخر.

ها نحن اليوم ، وجهاً لوجه إزاء حالة مكشوفة تماماً من إرادة التحكم في مقدرات الأمم والشعوب تمارسها أمريكة في وضح النهار.

إنه يدسون أنوفهم في مناهجنا التعليمية وطرائقنا التربوية ... يخترقون مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ... يعيدون تشكيل مقرراتنا الدراسية ... يأمرون بإغلاق مؤسساتنا الدينية ... يزيفون تاريخنا ... يعيدون تشكيل مفردات شريعتنا ... يوقفون نشاطنا المالي والخيري ... يقفون أمام

طموحاتنا التنموية والاقتصادية ... يفترسون قيمنا الأخلاقية ... يدمرون ثوابتنا الاجتماعية ... يغتالون ديننا وعقيدتنا ... يرغموننا على أن نتحرك وفق خرائط ضيقة ، وطرق معوجة ملتوية مرسومة سلفاً ، تؤول بنا في نهاية الأمر إلى الانسلاخ الكامل عن خصوصياتنا وشخصيتنا وملامحنا المتميزة ... وتجعلنا مجرد خدم أو عبيد أو في أحسن الأحوال تابعين أذلاء يدورون في فلك الحضارة الغالبة ، ويمدونها بأسباب الديمومة والبقاء.

إنهم ، بقدراتهم الاستخبارية والأمنية ، بإمكاناتهم الإعلامية والمعلوماتية ، بآلاتهم الاقتصادية والمالية ، يمارسون معنا ، نحن الأمة المسلمة ، واحدة من أبشع عمليات تعويم الأمم والشعوب في التاريخ.

وإذا حدث لا قدر الله وأن استجبنا للعبة الماكرة ، وخضعنا للإغراء الأمريكي المخادع الذي يسعى لتمرير حيثياته بألف شعار وشعار ، فإننا سنخرج من اللعبة غير المتكافئة منهزمين ، نكاد لا نملك شيئاً على الاطلاق.

وبدلاً من أن نعبد الله (سبحانه وتعالى) الذي يقدم وعده للإنسان بتحريره الكبير من كل صيغ الابتزاز والاستلاب ، وبإخراجه من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ...

بدلاً من ذلك سنتحول إلى عبادة الأشياء ... ولما كانت أعنة هذه بأيدي الكهنة الأمريكيين ، فمعنى هذا أنا سنصبح مجرد خدم وعبيد في المعبد المادي الكبير الذي يتربع في قمته المعبود الجديد القديم : العجل الذهبي.

إنه زمن صنمية المال والعلم والقوة المنفلتة من كل ضوابط الدين والخلق والإنسانية ... زمن (الذرائعية) التي لا تؤمن إلا بما يؤول إلى الربح والمنفعة الصرفة ... زمن غياب منظومة القيم ، وتضحل التجربة البشرية ، وضياع العمق الروحي للحياة ، ومغزاها العظيم.

إنها العودة إلى مأساة الساعة الخامسة والعشرين التي ستخرج الإنسان المعاصر من الزمن ، وتنفيه من العالم.

وستكون خسارة الإنسان المعاصر هذا مضاعفة إذا هزم (المسلم في هذا العالم) وانتصر المنطوق الأمريكي بآليات العولمة ، والتفوق المادي والعسكري ، والقطبية الأحادية ، والنظام العالمي الجديد.

ذلك أن المسلم الذي (يجد نفسه) ويحصنها ضد عوامل الإفناء هو مركب الإنقاذ الوحيد الذي يمكن أن يقود البشرية الجانحة إلى بر الخلاص والأمان ...

وإلا فإنه الضياع المحتوم للطرفين معاً !

حول نهاية التاريخ

جاءت معطيات العقدين الأخيرين من القرن العشرين ، ولا سيما بعد زوال الاتحاد السوفياتي ، وغياب التعددية القطبية التي تحكم العالم ، وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة السياسية والعسكرية والحضارية فيما أطلق عليه النظام العالمي الجديد أو الموحد ، وانكشاف المواجهة بين هذا النظام وعالم الإسلام ، وظهور العديد من النظريات والآراء التي تمنح الخلفيات الفلسفية للوضع الجديد ، وتعطيه مبررات التنامي والاستمرار ، وبخاصة نظرية (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما و(صراع الحضارات) لصموئيل هنتنغتن ... جاء هذا كله لكي يضع الأمة الإسلامية قبالة شبكة جديدة من التحديات التي تزيد في تضييق الخناق على بقايا وجودها الحضاري المنهار ، وتهدد بإلغاء شخصيتها وإلحاقها في نهاية الأمر بكيان الحضارة الغربية الغالبة.

إن نظرية (صراع الحضارات) التي قال بها هنتنغتن ، أستاذ العلوم السياسية ومدير مؤسسة (جون أولين) للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد ، تؤكد بإيجاز على أن الغرب ، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ، بحاجة ماسة إلى عدو جديد يوحد دوله وشعوبه ، وأن الحرب لن تتوقف حتى لو سكت السلاح وأبرمت المعاهدات. ذلك أن حرباً حضارية قادمة ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكة وبين طرف آخر قد يكون عالم الإسلام أو الصين.

أما نظرية (نهاية التاريخ) فتسعى إلى إلغاء البعد التاريخي ، ووضع الأمم والجماعات كافة ، عراة ، قبالة الصنمية الاقتصادية التي تنزع إلى تسوية الجميع إزاء مطالبها ، لكنها من وراء هذا تزيد أغنياء العالم وطواغيته غنى وجبروتاً ، وفقراءه ومستضعفيه فقراً واستعباداً.

إنها بشكل من الأشكال مناورة فكرية تمنح خلفيات تنظيرية لممارسات تتجاوز ابتداءً منظومة القيم الخلقية وثوابت العقائد والأديان والمطالب الأساسية للإنسان. ومن وراء هذه المناورة تكمن الخبرة الصليبية واليهودية والاستعمارية والرأسمالية.

إن إلغاء الذاكرة التاريخية ، وتحكيم الصنمية الاقتصادية المتسلحة بكل قوى العلم والتكنولوجية والتفوق العسكري وحتى السياسي ، للغرب ، لن يجعل الفقير غنياً وينزل بالأغنياء لكي يقاربوا الفقراء ، بل ستجعلنا وكل المستضعفين في الأرض ينسلخون عن تاريخهم ، ويفقدون تميزهم ويزدادون التصاقاً بالقوى المتحكمة في آليات الاقتصاد العالمي.

إن تجريد العالم من بطانته الروحية ، والوجود من تجذره في الغيب ، ومنح السلطة المطلقة للاقتصاد ، سوف يميل بالميزان ، وسيكون الإنسان هو الخاسر الوحيد.

وإذا أردنا الحق فإن (نهاية التاريخ) بما تنطوي عليه من إلغاء للتاريخ ، إنما هي رؤية خاطئة تتشكل على النقيض من قوانين التاريخ الذي جبل على التغاير والتنوع والتدافع والاختلاف : ﴿ ... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ... ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ٢٥١) ، ﴿ ... وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴾ (سورة هود ، (الآيتان ١١٨-١١٩) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... ﴾ (سورة الحجرات ، (الآية ١٣).

لقد طبعت النفس البشرية على الانتماء للتاريخ ، وكل محاولات فك الارتباط بين الإنسان وتاريخه باءت بالفشل ، وبقي العمق الزمني الذي ينطوي على الخصائص والمقومات ، ماضياً لكي يعمل عمله في صميم الممارسات والخبرات.

أهذه هي نهاية التاريخ ؟

الشذوذ الجنسي ... واللواط ... وفضائح كندي وكلنتون ... وشراء الأصوات ... وتوظيف المال والجنس في اللعبة الانتخابية ... وتحكم اللوبي اليهودي ... وهيمنة المافيات العملاقة والشركات الكبرى ... واختراق المسيحية بالعفن والأساطير اليهودية ... واستخذاء البيت الأبيض للسياسات العليا للأمة الأمريكية ... وتحويل القدرات المالية والعسكرية إلى ضرع يدر في أفواه شذاذ الآفاق ... والغطرسة التي تستفز الخصوم والحلفاء على السواء ... والتفرد في اتخاذ القرار بعيداً عن الأقطاب الأخرى التي تطمح لأن يكون لها مكان على خارطة العالم ...

القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية ... وأسلحة الدمار الشامل ... وعنقوديات امتصاص الأوكسجين من المغاور والكهوف لقتل الإنسان واستئصال الحياة ... آلات الإبادة الجرثومية والكيمياوية ... والقدرات الأسطورية على تغيير معادلات الطبيعة وتحويل البيئات إلى معتقلات كبيرة تصعب فيها استمرارية الحياة.

تصاعد معدّلات الجريمة في وتائرها الاعتيادية والمنظمة ، والإحصائيات المخيفة لحالات القتل والاغتصاب والسرقة والانتحار ...

الهروب المتزايد إلى المخدرات والحشيش والأفيون ... وتصاعد نسبة الإدمان وامتداد سرطانه المخيف إلى مستويات الأعمار الدنيا في مراحل الدراسة الإعدادية والمتوسطة ، حتى الابتدائية ، وضياع أجيال الأمريكيين الناشئة ، فيما سبق أن حذر من نتائجه المفجعة الرئيس الأمريكي كنيدي عام (١٩٦٣م).

الخيانة الزوجية ... والمعاشرة غير المشروعة للأزواج والزوجات وحالات الطلاق المتزايدة ... والدمار المتصاعد للحياة الأسرية ... ورفض الأبناء لآبائهم وتزايد دور العجزة لاستقبال هؤلاء وإيوائهم ... وتقطع الروابط العائلية وغياب الاستقرار والسكن في بيئاتها المخترقة بالريبة والشك والكراهية وشد الأعصاب ...

عمليات الاغتيال والتصفية الجسدية (للكبار) على يد المافيات اليهودية والمالية المتحكمة بمصائر الولايات المتحدة بدءاً بأصحاب الأصوات الحرة وانتهاء بالرؤساء انفسهم لحظة خروجهم عن الخط المرسوم.

التكاثر المحموم بالأشياء ... والعبادة المهووسة لصنميات المال والتنمية بعيداً عن أية قيمة أو ضابط ديني أو خلقي أو إنساني.

تصعيد وتائر القوة ، والأسلحة ، والجيوش ، وتقنيات الردع والهجوم فيما يجعل من أمريكة (ترسانة) مخيفة قد تلحق الخراب بهذا الجزء أو ذاك من العالم ، في أية لحظة تفور فيها دوامة الغضب ويستشري سعار التفوق والاستعلاء ... وتحول أمريكة إلى قوة استعمارية كبرى تسعى لأن تضع العالم كله في جيبها ، وترغم أممه وشعوبه على أن تكدح لكي يدر ضرعها في الفم الأمريكي ، بغض النظر عن حالات الفقر والتخلف والدمار التي يعاني منها العالم الثالث ، الذي يراد له للمرة الثالثة أن يسخر لسعادة الرجل الأبيض وائتمانه الذاتي.

وأخيراً ، وليس آخراً ، تآكل ودمار القيم الديمقراطية الأمريكية نفسها ، واختراقها المرة تلو المرة ، بحجة مقاومة الإرهاب بعد أن سهر الأمريكيون القدامى على حراستها القرون الطوال.

أهذه هي الحضارة الملائمة لإنسانية الإنسان ومطامح الأمم والشعوب ؟ أهذه هي الحالة الحضارية النموذجية أو السقف الأعلى لسعي البشرية عبر تاريخها الطويل ؟ أهذا هو (النموذج) الذي سينتهي إليه التاريخ ويلقي عنده عصا الترحال ؟ أهذا هو (المثل الأعلى) الذي يتحتم على شعوب العالم أن تلهث وراءه ؟ أهذه هي ، بتعبير (فرنسيس فوكوياما) : (نهاية التاريخ) حيث لا تبدل بعدها ولا تحول ما دام الإنسان قد بلغ الحالة القصوى من التقدم والتحرر ؟

تقدم باتجاه ماذا ؟ وتحرر من ماذا ؟

أليست هي في بدء التحليل ومنتهاه ، وفي ضوء التأشيرات آنفة الذكر ، نكسة كبرى في تاريخ البشرية حيث يتحكم القطب الأحادي بمصائر العالم وحيث يتحول السعي البشري إلى لهاث محموم للتكاثر بالأشياء ... وحيث تتسطح الحياة وتفقد عمقها وعذوبتها وغناها ومغزاها ... وحيث تخترق منظومة القيم الإنسانية والخلقية والدينية بحلقات السوء التي تنتشر كالبثور

السود ... كالطفح المتقيح ... كالسرطان المخيف في نسيج المجتمعات فتفقدها شيئاً فشيئاً القدرة على مواصلة لحياة ولو في حدودها الدنيا ...

ثم ماذا لو أصبحت الحياة البشرية زناً ولواطاً وانتحاراً وسرقة وقتلاً واغتصاباً وإدماناً على الحشيش والمخدرات والأفيون ؟

ماذا لو أصبحت الممارسات السياسية تزويراً ورشوة وشراء للضمائر وتسخيراً للجنس ، واحتواءً لمفاصل القرار العليا من أجل مصلحة لوبي يهودي ، أو مافيا اقتصادية ، أو رغبة جارفة في الانسياق وراء إغراء القوة بعيداً عن كل ضوابط الحكمة ومكابحها ؟

أهذه هي نهاية التاريخ ؟!

حضارة المصنع والكباريه والسوبرماركت

في ندوة حول العولمة شارك فيها الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري أشار إلى أنها (عولمة المصنع والكباريه).

كلمتان ، لكنهما تنطويان على الكثير ، ويمكن أيضاً أن نضيف إليهما (السوبرماركت) من أجل أن تكتمل أطراف المثلث الذي يمسك اليوم بخناق الحضارة الغربية المعاصرة ، ويمنح العولمة التي هي الإفراز الطبيعي لهذه الحضارة ، لونها وخصائصها وأهدافها.

إنه : الإنتاج والجنس والاستهلاك ... الحضارة الغربية في أقصى حالاتها تكشفاً ووضوحاً وتركيزاً في الوقت نفسه.

فإذا حاولنا أن نلم جل مفردات هذه الحضارة ، وأنشطتها ، في أنساق محددة ، فإننا سوف لا نجد بأكثر من ثلاثة أنساق تندرج في أطرها تلك الأنشطة والمفردات : الإنتاج ، أو التنمية والتكاثر بالأشياء (بما فيها الأسلحة والجيوش) ... والجنس ، أو الترفيه في أكثر حالاته حسية ومادية ... والسوبرماركت ، أي النزعة الاستهلاكية التي يزيدها الإعلان ، والتكاثر ، والنزوع الحسي ، سعاراً وجموحاً.

وتحت مظلة هذه الحضارة التي زادتها العولمة قدرة على الانتشار والتحكم في العالم كله ... تمضي كل القوى الفاعلة لتصعيد وتائر هذه الأطراف ، أو الحدود الثلاثة ، التي تمسك اليوم بخناق الإنسان : الدولة والمؤسسة والمجتمع والفرد على السواء.

كل يعمل من جهته لنفخ النار فيها ... منفرداً حيناً ، متوافقاً ، أو منسقاً مع الأطراف الأخرى حيناً آخر.

والعالم يجري كالمجنون ... يركض إلى حد اللهاث ، أفراداً وجماعات وشعوباً وأمماً ... الكل يريد أن يلحق بالركب الأمريكي الذي يقود حملة السوء هذه ... الكل يريد أن يتكاثر بالأشياء ، وأن يشبع نهمه الجنسي ، ونزوعه الذي لا حدود له للاستهلاك ، معتقداً على الطريقة الأبيقورية البائدة أن الحياة فرصة للتحقق باللذة ، أو الطريقة الإسبارطية : (التحقق بالقوة) ... بغض النظر عن ارتباط اللذة والقوة بمنظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية أو عدم ارتباطها على الاطلاق.

ومن عجب أن إحدى الكنائس في إنكلترا ، والتي يفترض فيها أن تقف في مواجهة الطوفان ، انساقت وراء الإغراء نفسه ، فأعلنت عن قبول الزواج النمطي في أروقتها من أجل كسب المزيد من الأتباع ... بمعنى أنها أذعنت هي الأخرى للمنطوق الأبيقوري باعتباره الوسيلة الأكثر فاعلية وتأثيراً في العباد والأتباع.

ويتساءل المرء : ماذا لو مضى مثلث الشر هذا إلى النهايات القصية التي يراد له أن يمضي إليها ، كيف ستصبح الحياة ؟ وهل ستستحق فعلاً أن تعاش ، وقد فقدت عمقها الروحي ، وبعدها الإنساني ، وضوابطها الأخلاقية ، وضيعت مغزى الوجود البشري في العالم وغدت مجرد لهاث وراء التكاثر بالأشياء ، والتحقق بالإشباع الجنسي في أحط صيغه حسية وحيوانية ... والنزوع إلى الاستهلاك الذي يكدس ويكدس حتى يجد الإنسان نفسه ، كما يقول (اونسكو) في إحدى مسرحياته : محاصراً بالأشياء حيث يفقد حريته وقدرته على الاختيار ؟؟

العولمة ... نعم ... ولكن بضوابط الدين والقيم ، وبحياة تليق بالإنسان ...

وإلا فإنها اللعنة التي ستمسخ إنسانية الإنسان والحياة البشرية على السواء ...

والآن : لنا أن نتساءل : هل أن العولمة ، بمواصفاتها هذه ، هي قدر البشرية ، وقدرنا نحن المسلمين ؟ أليس ثمة قنوات أو ممرات للخروج من المحنة ، أو مجابهتها بعبارة أدق ، إنها في الحقيقة واحدة من أكثر التحديات التي جابهتها الأمة خطورة ... ولكن الاستجابة ليست مستحيلة ، إذا أحسنت النية وصدق العزم وأخذ بالأسباب.

حول القطبية الأحادية

ابتداءً فإن التوحد الغربي قبالة الشرق ، والشرق الإسلامي بوجه الخصوص ، ليس بالضرورة الوجه الأوحد للصورة الراهنة ، فهنالك لحسن الحظ الوجه الآخر المحتمل : إنها الثنائية التي تخترق القاسم الغربي المشترك الواحد ، بقوة المذهب أو الفكر أو المصلحة ، وتحيله إلى تشرذمات ثنائية متصارعة داخل الساحة الغربية وفي مواجهة (الآخر).

وعبر التاريخ الغربي كانت دائماً روما بمواجهة أثينا والبابوية بمواجهة القسطنطينية ، والرومانية المقدسة بمواجهة البابا ، وفرنسة بمواجهة بريطانية وألمانية وروسية ، وبريطانية بمواجهة القارة ، والمحور بمواجهة المستعمرين القدماء ، وأمريكة بمواجهة الامبراطورية البريطانية ، والاتحاد السوفياتي وأوربة الغربية بمواجهة أمريكة.

ومعنى هذا أن تفرد قوة غربية واحدة بالسلطان أمر يكاد يكون مستحيلاً على الفترات الطويلة نسبياً ، وأن الثغرة التي قد ينفذ منها الإسلام المحاصر ، ستتشكل ، بحكم قوانين الحركة التاريخية وسننها التي طالما حدثنا عنها كتاب الله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ . . . ﴾ (سورة هود ، (الآيتان ١١٨-١١٩) ، ﴿ . . . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . . . ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ١٤٠) ، ﴿ . . . وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ٢٥١) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (سورة الرعد ، (الآية ٤١).

ومعنى هذا أيضاً أن على عالم الإسلام اليوم ألا تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرد الأمريكي إلى المدى. وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض ، مستفيداً من حالة الثنائيات الغربية المتولدة باستمرار ... من الثغرات التي تفتحها في جدار الغالب ... وقبل هذا ، من قدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية والفكرية والاستراتيجية والاقتصادية ، والحضارية في نهاية الأمر ، وهي بتميزها العقدي وعمقها التاريخي ليست كلاماً يقال وأماني تزجى ، ولكنها فاعلية في صميم الصيرورة التاريخية ، قديرة في حالة اعتماد الصيغ المدروسة والمحسوب حسابها ، على أن تحمي الوجود الإسلامي. من التفكك والذوبان ، بل أن تمضي ثانية باتجاه مواقع أكثر تقدماً على خرائط العالم المعاصر لكي تشارك في اتخاذ القرار وصياغة المصير.

إن ألفين من السنين تنسجان اليوم حيثيات الصراع بين أمركة والإسلام ، ولكن في أي من هذين الألفين قدر الغرب على أن يطمس نهائياً هوية الشرق ؟ في أي منها ألقى الإسلام السلاح وارتمى مغلوباً على أمره في أحضان الغالبين ؟

إن عالم الإسلام يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلية ، قد تكون جدتها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه ، بما أنه حصيلة قرون طويلة من التشكل التاريخي على مستويي الكم والنوع ، ولكنها في الأساس حلقة في مسلسل طويل يبدأ في (أثينا) ولكنه لن ينتهي في

(واشنطون). فها هي المتغيرات الأكثر حداثة تطل برأسها ، ولم يصل النظام العالمي الجديد ، بعد ، إلى بر الأمان : أوربة الغربية تتوحد ربما قبالة امريكة. اليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية بحساب متواليات هندسية قد تحد من قدرات التفرد الأمريكي في المستقبل المنظور ... الصين ودول العالم الثالث قد تخز جملتها إبرة التحدي الجديد لعالم تهيمن على مقدراته إرادة واحدة ، فتتحرك لتفعل شيئاً ، على الأقل في سياق الرد السلبي ... ثم عالم الإسلام الذي طالما دفعته التحديات إلى استعادة حيويته وفاعليته والعودة ثانية إلى التاريخ لكي يشارك في صياغة المصير ، ليس بالضرورة بقوة السلاح ولكن بقوة العقيدة التي تساقطت إزاءها جلّ العقائد والمذاهب عبر العصور ، وبقيت هي ، بمحورها التوحيدي القائم على شهادة **(لا إله إلا الله)** ، تلك الشهادة القديرة بتعبير غارودي على تحويل الجبال عن مواضعها ... بقيت لكي تمارس مرة أخرى ، واحدة من أوسع عمليات التحرير للإنسان والبشرية من كل صيغ الاستلاب والابتزاز ، ومن كل أنماط الطاغوتيات والصنميات التي هيمنت ولا تزال على مقدرات العالم والإنسان.

عولمة مضادة !!

لم تصل (العولمة) بعد إلى مداها ، وإمكانية التصدي لجوانبها السيئة غير مستحيلة إذا توفرت النية الصادقة وأحكم التخطيط ، ولاسيما إذا تذكرنا أن الأمة الإسلامية هي أولى الأمم المستهدفة من النظام الجديد والعولمة ، وأنها تملك في المقابل البديل القادر على مجابهة هذه التحديات إذا عرفت كيف تلم الشمل وتحشد الإمكانات ، وتتحقق لو بالحدود الدنيا من التوحد ، وتقيم منظومة أمنية ، وتفيد من الوسائل المبتكرة والمتطورة بكل صيغها ، وتوظيفها في مجال الحد من فاعلية العولمة ومنعها من المضي إلى نهاية الشوط.

إن الإسلام رسالة عالمية وبها تستطيع الأمة الإسلامية القيام بما يمكن اعتباره (عولمة مضادة) ؛ بما أن هذا الدين هو رسالة سماوية وتبليغها للعالمين واجب يقوم على أساس حرية الاختيار ، والانتقال أو الوصول إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها ، بهدف عرض هذه الرسالة وتبليغها ، لا فرضها على الآخرين ، أو إكراههم على التأقلم والتقولب وفقاً لمطالبها ، كما تفعل العولمة الأمريكية.

إن عقيدة الإسلام ومقاصده العليا لهي الإجابة عن قلق العالم الحديث الذي يصنعه ويقوده النموذج الغربي ، هذا النموذج الذي إن كان له أن يتباهى بما صنعت يداه ، فليس له أن يشير إلا إلى العلمية والتقنية اللتين بلغ بهما ، والحق يقال ، مرتقى صعباً ، ولكن حتى ها هنا حيث لا يمكن للعلمية والتقنية أن تنفردا بمصير الإنسان بعيداً عن الارتباط بفكرة ما ، بفلسفة أو

عقيدة ، تؤطر حركتهما وتربطها بالإنسان نفسه ، وتمنحها المعنى والهدف والمغزى ... حتى ها هنا فإن الإسلام وحده يمكن أن يمنحنا الجواب.

إن (غارودي) يتساءل في (وعود الإسلام) : " ما الذي يستطيع الإسلام أن يقدم ليعدنا للإجابة عن المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم ؟ " وما يلبث أن يجيب : " إن المشكلة كونية ولا يمكن للجواب إلا أن يكون على المستوى الكوني ".

وهكذا تصير مشاركة الإسلام القادمة أكثر من ضرورية ... تصير أمراً محتماً لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك ، وإنما لكي تعيد تصميم الحياة البشرية بما يرد إليها قيمتها الحقة ويمنحها هدفاً ومغزى ، ويربطها بالإنسان نفسه ، محققاً التناغم والانسجام بين أقطاب الكون بعد أن أقام الفكر الوضعي بينها الأسلاك الشائكة وكهربها بالكراهية والبغضاء ، وهكذا يغدو بعث الإسلام كبعث الإنسانية بأكملها ، كما يقول (غارودي) مشيراً إلى المستقبل ومقارناً بما تحقق في الماضي عبر الفترات المتألقة من تاريخ الإسلام.

وتستوقفنا في كتاب (غارودي) هذا (وعود الإسلام) شهادة على غاية الأهمية لأنها تتضمن قاعدة الدور الإسلامي المنتظر ومنطلقه ، بل مفتاح عقيدته ورؤيته للعالم ، ونزوعه الانقلابي ، وقدرته المعجزة على التماس مع الحياة وإعادة صياغتها بما يضعها في إطارها الحق ويمنحها الهدف والمغزى ، تماماً كما فعل لحظة إطلالته على العالم زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكما هو قادر على أن يفعله في كل زمن.

إنه يقول : " **لا إله إلا الله** ... هذا الإثبات الأساسي للايمان الإسلامي والذي يعني أول ما يعني إعلان الحرب على الوثنية وإقصاءها ... ليست وثنية قريش وحدها ، ولكنها وثنية العالم كله ... وثنية العالم المعاصر على وجه التحديد ... هذه الوثنية التي تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا : صنم النمو ، صنم التقدم ، صنم التقنية العلموي ، صنم الفردانية ، صنم الأمة ، صنم قوة الأسلحة والجيوش ، بمحذوراتها وطقوسها ... كلا ... يذكرنا الإسلام : **(لا إله إلا الله) الله أكبر** ... وإننا لنعرف بالتأكيد ما لهذا اليقين في العقيدة من قوة وهدم وتحرير ... فالحوار مع الإسلام يمكنه أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحية فينا ، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها ".

كيف يتم ذلك ؟

والجواب يقودنا بالتأكيد إلى ضرورات التخطيط الاستراتيجي الذي يبدأ بتجاوز التفتت والتناقض في المعطيات الثقافية والتربوية والاقتصادية لعالم الإسلام ، ويسعى إلى وضع خطة موحدة لمجابهة تحديات الحضارة الغربية التي تغطي هذه السياقات الثلاثة ... وثمة الانفجار المتزايد للمعلوماتية ، والإعلامية ، وضرورة التعامل المبرمج مع معطياتها ، المتدفقة كالسيل ...

تجاوز العزلة عن الآخر ، أو الاندغام فيه ، بتأكيد هوية المسلمين الثقافية ودورهم المستقبلي ، وذلك من خلال التحرك المدروس في اتجاهين : أحدهما صوب المسلمين أنفسهم ، من خلال التأكيد على ثنائية الوحدة والتنوع في نسيج المجتمعات الإسلامية ، وثانيهما باحترام التغاير وتوظيف حلقاته الإيجابية لحماية شخصية الأمة وخصائصها الثقافية المتميزة.

التأكيد على دور أجهزة التعليم والإعلام في صياغة الاستراتيجية الثقافية انطلاقاً من التشبث بالإسلام كمنظور عقدي ، وممارسة تشريعية وتعبدية ، باعتباره أشد عوامل الاتصال والتوحد فاعلية وتأثيراً ومتابعة عناصر الانعكاس الإسلامي على ثقافة الشعوب الإسلامية ... والتأكيد على أهمية اللغة العربية وتفعيلها واعتمادها كلغة أم للشعوب الإسلامية ، ومجابهة محاولات رسم الحرف بلغات أخرى ... ذلك أن اللغة هي الجسر إلى الإسلام وثقافته ... إيلاء الاهتمام الكبير لبرامج الأنشطة التعليمية والتربوية ، باعتبارها الأداة التنفيذية لتحقيق التواصل الثقافي ... ضرورة الالتزام بالمنظور العقدي وثوابته الأساسية ... منع اية محاولة لاختراق المنظومتين التربوية – التعليمية ، في الديار الإسلامية ، ببرامج تغريبية ، من أجل تخريج مثقفين يملكون خصوصيتهم ... توظيف الخطاب الأدبي والفني من أجل تحقيق المقاربة الثقافية بين الشعوب الإسلامية ، ومنحه المساحة الكبيرة باعتباره يعبّر بصدق عن نبض الأمة ، والتعامل بحذر مع معطيات الآداب والفنون الغربية ، في الدراسة والنقدين التنظيري والتطبيقي ، وإحالة كل مفرداتها على المنظور الإسلامي لقبوله أو رفضه ... ذلك أن الأوربي نفسه ، فرنسياً إنكليزياً المانياً إسبانياً ... الخ لا تهمه المعطيات التي تستنسخ عنه وانما تلك التي تحمل خصوصيتها ... تفعيل الدور الكبير والمؤثر لوسائل الإعلام في عصر التقنيات الأسطورية والفضائيات التي تخاطب في اللحظة الواحدة ملايين الناس ... واعتماد اللغات العالمية الكبرى في توجيه خطابنا الإعلامي ، والتعاون على رسم استراتيجية عمل إعلامي يسعى لتأكيد الهوية الإسلامية ، وتحقيق التقارب بين الشعوب الإسلامية ، وبناء قنوات فاعلة مخصصة للخطاب الإسلامي بدلاً من مساحات زمنية محددة للبرامج الدينية ... توسيع نطاق التبادل البرامجي بين الشعوب والقنوات الإسلامية.

وأخيراً ، وليس آخراً ، السعي الجاد من أجل إنشاء أسواق اقتصادية مشتركة بين كل مجموعة إقليمية من دول عالم الإسلام ، لمجابهة ضغوط العولمة ، والتفوّق المالي والاقتصادي لدول الغرب.

وسواء أخذنا بمبدأ الغزو الفكري والثقافي ، أو رفضناه كما يحلو للبعض ، فان النتيجة واحدة تمضي وفق قاعدة الأواني المستطرقة ، حيث تطغى الثقافة ، والإعلام ، والاقتصاد الغالب ، على المستويات الأدنى ، فتغطيها بما تريده وفق منظومتها المصلحية لا بما

نريده نحن ... ذلك أنها – بإيجاز شديد – تتعارض ابتداءً مع منظومتنا القيمية ، حيث قبلنا عبر العقود الأخيرة الكثير من حلقات السوء عن الآخر فكنا الخاسرين ... ذلك أننا في مرحلة ما يمكن اعتباره تخلخلاً في الضغط الذي يسحب إليه الأعاصير العاتية التي تدّوم في الفضاء المحيط بنا كأمة لها نمطها الثقافي ومصالحها الخاصة التي ترتطم ابتداء بالنمط الغربي.

عندنا توازن الثنائيات التي تمنح الحياة البشرية طعمها ومغزاها : الله والإنسان ... الدنيا والآخرة ... الروح والجسد ... الدين والعلم ... المنفعة والجمال ... السماء والأرض ... العدل والحرية ... إلى آخره ... وعندهم البراغماتية المنفعية ... وتضاؤل دور الدين وغيابه ... عدم الإيمان بالآخرة ... التكاثر بالأشياء ... التحقق باللذة ... وتنمية القوة فيما يكاد يصبح عندهم عقيدة وديناً ...

انحناؤهم للصنميات والحتميات بشتى أنماطها وصنوفها ... بينما يحرّرنا الإسلام من كل صنوف القسر والقهر والابتزاز والالتصاق المحموم بمطالب الحياة الدنيا ...

إذا تركنا العولمة تمضي إلى أهدافها فلن نكون وحدنا الخاسرين ... ولكن الإنسان والبشرية ، حيث تغيب الخبرة المتوازنة التي تنطوي على المادي والروحي ، والعلمي والايماني ، والمنفعي والأخلاقي ، والدنيوي والأخروي ، وتعد بتحرير الإنسان ، وإخراجه من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور المذاهب الضالة والأديان المحرّفة إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ...

هنالك حيث تستحق الحياة فعلاً أن تعاش ...

أشكر الله لكم إصغاؤكم وحضوركم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

بسم الله الرحمن الرحيم

ازدواجية التعليم الجامعي : مرئيات للخروج من الأزمة

" محاضرة مقدمة لمؤتمر التكامل المعرفي ودوره في تمكين التعليم الجامعي من الإسهام في جهود النهوض الحضاري في العالم الإسلامي ".

والذي ينظمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع جامعة أبو بكر بلقائد وجمعية العلماء المسلمين في تلمسان:

الجزائر : ١٤-١٦ إبريل عام (٢٠١٠م).

أيها الحضور الكرام ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مقدمة :

ترجع أزمة التعليم الجامعي في ديارنا الإسلامية إلى بدايات القرن الماضي ونشوء أولى المعاهد والجامعات فيها والتي اختار معظمها أن يتشكل أو يبحر في اتجاهين متضادين يتمحض أولهما للعلوم أو المعارف الإنسانية ، ويمضي ثانيهما للتعامل مع العلوم أو المعارف الإسلامية ، دون أن يعقد بين الطرفين جسر يعين كلاً منهما على التفاعل والأخذ والعطاء وتبادل الخبرات بين المعرفتين.

كان الوضع في جانب المعرفة الإنسانية يتمثل في قبولها على عواهنها ، وكما تشكلت في ديار الغرب بمنطلقاتها ، وفلسفتها ، وأهدافها ، ومعطياتها ، وتأسيساتها ، ونتائجها ... تقبل كامل لعلم الاجتماع الغربي ، ولعلم النفس الغربي ، ولعلوم الإدارة والاقتصاد الغربية ، وللقانون والسياسة الغربيين ، وللآداب والفنون الغربية ، وللتاريخ وفلسفته والدراسات الحضارية ، وفق نموذجها الغربي.

عملية تنزيل للقوالب المعرفية الجاهزة ، وباستسلام تام لمعطياتها ، ليس فقط في معاهدنا وجامعاتنا ، بل وحتى في مدارسنا الابتدائية ومتوسطاتنا واعدادياتنا.

وبما أن تلك المعرفة كانت تنبثق في الأعم الأغلب عن رؤية علمانية ، وأحياناً ، بل وفي كثير من الأحيان ، مادية ذرائعية ترفض الايمان بالغيب ، وتلتصق بالمنفعي والمنظور ، فيما يتناقض ابتداءً مع تأسيسات المعرفة الإسلامية المبنية على الايمان بالغيب ، وعلى منظومة القيم الأخلاقية ، فلنا أن نتصور كيف سيكون الحصاد مريراً ، وكيف ستتخرج أجيال الطلبة وقد فكت ارتباطها بكل ما هو إسلامي أصيل.

وزاد الأمر سوءً أن هذه المعرفة المستوردة التي فعلت كما يقول (محمد أسد : ليوبولد فايس) فعل السم في التكوين الثقافي للأمة ، لم تتقبل في برامجها التربوية والتعليمية أي شيء عن المعرفة الإسلامية لكي تكون بمثابة الضابط والمرشد ، ولو في حدوده الدنيا ، لمأساة الإبحار في خضم الثقافة الأجنبية ، اللهم إلاّ فيما يسمى دروس الدين التي تم التعمد ، لسبب أو آخر ، في أن تنطوي على قدر كبير من الهزال ، والتهميش ، بل والتنفير ، فيما يزيد من حالة التقبل النفسي لمعطى الغربي ، والجهل المطبق بالمعطى المعرفي الإسلامي.

في الطرف الآخر تصطف المعاهد والجامعات الإسلامية التي فرضت على نفسها العزلة عن المعارف الإنسانية ، فيما نتج عنه تخريج أجيال من الطلبة منفصلة عن مطالب الواقع وتحدياته وضروراته. ذلك أن التخصص في علوم كعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله والعقيدة ... الخ لا يمكن أن تؤتي أكلها وتمارس فاعليتها إلا في واقع الحياة ، عندما يقدر لها أن تنزل إلى الأرض وتعيد تشكيل الخبرات الاجتماعية وفق مطالب هذا الدين. ولن يتأتى ذلك إلا بأن يكون المتخصص بالعلوم الإسلامية على قدر كبير من الإلمام بمعارف العصر التي تمسك برقبة العالم ، وتشكل مصائره : السياسة والإدارة والاقتصاد والقانون والنفس والاجتماع والتاريخ والحضارة والفلسفة والآداب والفنون ... الخ. إذ كيف يتأتى لهذا الخريج ان يضع يده على الدواء الإسلامي المناسب ان لم يخبر مواطن الداء جيداً ؟ وكيف يتأتى له ان يعيد صياغة الحياة وهو منعزل عما يضطرب في جنبات هذه الحياة ومفاصلها الأساسية ؟

صحيح ان محاولات عديدة سعت عبر القرن ونصف القرن الأخيرين ، لتجاوز الأزمة وتحقيق اللقاء المنشود بين المعرفتين ، لكنها في نهاية الأمر لم تشكل سوى بقع محدودة ومبعثرة على مساحة واسعة تعاني فيها المعرفتان من قطيعة غير مبررة على الاطلاق.

سيحاول البحث ان يشخص الأزمة في أبعادها كافة : الدور الخطير الذي مارسته المعرفة الغربية في التكوين التربوي والعلمي لأجيال الخريجين ، باعتبارها معرفة احتمالية لا تؤمن بالغيب ولا تصل إلى حافات اليقين ، وبالمقابل تلك الخطيئة التي فرضناها على أنفسنا بعزل طلبة الدراسات الإسلامية أو العلوم الشرعية عما يجري في الدنيا.

وسيسعى البحث إلى وضع يده على جملة من المرئيات للخروج من الأزمة ، فيما يجعل من التعليم العالي مدرسة فاعلة لتخريج نخب مبدعة قديرة على الإسهام في التصدي لمشاكل الأمة ، وإعادة بناء الحياة في ضوء خبرة يلتحم فيها وبالتوازن المطلوب والضروري : الديني بالمدني.

ان اللقاء المنشود بين المعرفتين يمكن أن يتحقق وفق صيغ شتى ... فهناك المؤسسات الجامعية التي تلتحم في بنية مناهجها هاتان المعرفتان ، وهناك المؤسسات المعنية بتدريس العلوم الإنسانية ، وتلك التي تتولى تدريس العلوم الإسلامية ، ومن الممكن الإبقاء على استقلالية كل مؤسسة ولكن شرط أن تنفتح على المؤسسات الأخرى وتتبادل معها الخبرات والمواد الدراسية ، بحيث يتخرج طلبة كل من المؤسستين وهم يملكون معرفة متكاملة في الاتجاهين معاً.

ان إعطاء مادة (الثقافة الإسلامية) وحدها في الكليات الإنسانية لا يكفي ، وهي تذكرنا بمادة الدين المعطاة في المدارس الابتدائية والإعدادية في عدم قدرتها على تقديم الحد الأدنى من المعرفة الإسلامية الضرورية لطلبة الكليات الإنسانية. وقد يحدث ما يزيد الأمر سوء وهي أن

توضع هذه المادة في الدرجة الثانية من الأهمية ، وقد لا تدخل درجاتها في المعدل العام ، الأمر الذي يجعل الطلبة لا يتعاملون معها بالجدية المطلوبة ، وقد تتأتى عن ذلك نتائج سلبية أسوة بما يحدث في الإعداديات مع درس الدين.

وفي المقابل فان هناك العديد من الخبرات الأكاديمية الغائبة في المؤسسات الإسلامية وسيتم الوقوف عندها في سياق البحث ، فيما يعين هذه المؤسسات في حالة التعامل معها بالجدية المطلوبة ، على ان تكون أكثر فاعلية وان يكون خريجوها أكثر قدرة على البحث والإبداع والتألق التدريسي والمساهمة الإيجابية في واقع الحياة الاجتماعية.

البحث ينسج خيوطه وفق مستويين : تشخيص الأزمة في أبعادها كافة ، ثم تقديم الحلول والمقترحات والمرئيات التي تعين على الخروج منها. والهدف في كل الأحوال هو التحقق بمبدأ التكامل المعرفي ، وتمكين التعليم الجامعي من الإسهام في جهود النهوض الحضاري في العالم الإسلامي ، حيث يشكل الانفصال المحزن بين المعرفتين واحداً من أهم أسباب التخلف الذي تعاني منه الأمة.

بين زنزانة التخصص والفضاء المعرفي :

يوماً بعد يوم تزداد الحاجة الأكاديمية والثقافية إلى التحقق بمبدأ التكامل المعرفي ، وبخاصة بعد ذلك الاندفاع المرتجل وغير المدروس باتجاه الاكتفاء بالمعرفة التخصصية ، في هذا العلم الإنساني ، أو الإسلامي ، أو ذاك ، بل والذهاب أبعد باتجاه ما أطلق عليه التخصص الدقيق الذي يعني الإلمام بهذه الحلقة أو المفردة أو تلك من حلقات ومفردات هذا العلم أو ذاك. وهي مسألة ضرورية بكل تأكيد من أجل إتاحة الفرص المعمقة للكشف والإبداع في ذلك المجال. ولكن هذا لا يبرّر – بحال من الأحوال – الاعتقال في خانة التخصص الدقيق الذي لا يملك معه أصحابه فضاءً علمياً واسعاً ، ولا خزيناً ثقافياً خصباً يمكنهم ، ليس فقط من المزيد من الإبداع في مجال تخصصهم الدقيق ، بل والحضور المؤكد في ساحات الثقافة ، والقدرة على إرفادها بالمزيد.

إننا نتذكر هنا علماء الرياضيات والفيزياء والكوزمولوجي الغربيين الكبار (اينشتين والفردنورث وايتهيد وبرتراند رسل) ، كما نتذكر فلاسفة العلم الكبار (الكسيس كاريل وسوليفان وأغروس وستانسيو وهويْل) وغيرهم كثيرون ... كانوا جميعاً يملكون رؤية معرفية متكاملة مكنتهم ، ليس فقط من الإمساك جيداً بحلقات تخصصهم الدقيق ، وتقديم الكشوف المدهشة في مجاله ، وانما منحتهم الفرصة للإسهام الفعال في معترك الحياة العلمية والثقافية على امتدادها.

ونتذكر – قبالة هذا – حشداً هائلاً من المتخصصين في العلوم الإنسانية أو الإسلامية ، من حملة الماجستير والدكتوراه ، بل وحتى من الحاصلين على درجة (الأستاذية) ، تسمع لهم جعجعة ولا ترى لهم طحيناً. فهم يعانون من الضمور وعدم القدرة على الاكتشاف والإبداع والإضافة في الاثنين معاً : تخصصهم الدقيق وثقافتهم العامة ، فهم أشبه بالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. وانك إذا أخرجتهم من دائرة تخصصهم الدقيق باتجاه هذا الحقل المعرفي الموازي أو ذاك ، ضاعوا وضلّوا الطريق لأنهم لا يكادون يملكون من خرائطه شيئاً ... بل إنك – حتى في مجال تخصصهم الدقيق هذا – إذا سحبت من بين أيديهم النصوص الحرفية المستمدة من المراجع والمصادر ، فقدوا القدرة على كتابة سطرين.

كسر جدران الزنزانة ، وتحرير المختصين من الاعتقال في سراديبها الضيقة ، تلك هي – أغلب الظن – المهمة الأساسية لمبدأ التكامل المعرفي ، ومطالب الاشتغال عليه.

اتجاهات التكامل المعرفي :

يتحرك التكامل المعرفي في اتجاهات ثلاثة ، أولها التكامل بين نمطين متغايرين من المعرفة وهما الإنسانية والإسلامية. وثانيهما التكامل بين علوم كل معرفة على حدة (بأن يكون المؤرخ – على سبيل المثال – ملّماً على الأقل ، بالمطالب الضرورية من العلوم الإنسانية : الجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والإدارة والسياسة والآداب والفنون ... الخ ، وأن يكون المحدّث – على سبيل المثال – ملّماً ، على الأقل ، بالمطالب الضرورية من العلوم الإسلامية : علوم القرآن والفقه وأصوله والعقيدة ... الخ). وأما ثالثتها فهو ذلك التكامل بين مفردات التخصص الدقيق. فالمختص بالتفسير – مثلاً – يتحتم أن يكون ملّماً بعلوم القرآن الأخرى كأسباب النزول ، والإعجاز البياني ، والإعجاز العلمي ... ، والمختص بالعصور العباسية المتأخرة يتحتم أن يكون ملّماً بعصور ما قبل الإسلام ، وعصر الرسالة ، والراشدين والأمويين ، والعصور العباسية المبكرة ، وعصر الدويلات الإسلامية ، والعصور المتأخرة ، والعصر العثماني ... الخ.

وكلما كان التكامل المعرفي في اتجاهاته الثلاثة أكثر إحكاماً ، وجدنا أنفسنا أمام " علماء " بمعنى الكلمة ... علماء يملكون القدرة على الإضافة النوعية في حقل تخصّصهم الدقيق ، ويسهمون في الوقت نفسه في مصطرع الحياة الثقافية العام ، وذلك هو الحصاد الذي يتحتّم أن تعد به المعاهد والجامعات ، وإلاّ فهو العقم الذي لا يضيف جديداً ، ولا يحرّك ساكناً ، ولا يملك

القدرة على التجديد والابتكار ، كالذي يحدث عبر العقود الأخيرة في معظم الأقسام العلمية لمعاهدنا وجامعاتنا العربية والإسلامية.

التكامل المعرفي وأسلمة المعرفة :

إن المختصين يتكاثرون بصيغة متوالية هندسية ، وإذا بالقسم العلمي الواحد يتلقى السبعين والثمانين من المنتمين إليه من حملة الشهادات العليا ، والحاصلين – ربما – على (الأستاذية)، لكن النتاج العلمي ، والمشاركة الثقافية ، تكاد تكون صفراً. أو انهم – في أفضل الأحوال – ينجزون العدد المطلوب والمفروض عليهم من البحوث التي يسمونها (علمية) والتي تؤهلهم للترقية العلمية. ولكن أية بحوث هذه ؟ إنك لا تكاد تقرأ فيها سطراً أو سطرين حتى تكتشف عوارها وبوارها ، وتضحّل أصحابها حتى على مستوى القدرة على التعبير وصياغة الأفكار.

فما لم تتدارك جامعاتنا هذا السرطان الخبيث ، فانه سيمضي لافتراس الأخضر واليابس ، ولن يكون بعدها عطاء علمي مشحون بالإبداع والابتكار ، ولا جدل ثقافي محتدم يملأ الساحات بعصفه الفكري ، وعطائه الخصب الأصيل.

في ضوء هذا كله يجيء التكامل المعرفي لكي يعالج خللاً ملحاً ، ويعيد الأمور إلى نصابها الحق ، ويمنح المعاهد والجامعات الفرصة لأن تعود مرة أخرى فتمدّ الحياة العلمية والثقافية معاً ، بعطائها الموصول.

ليس هذا فحسب ، بل إن التكامل المعرفي يعد ضرورة من ضرورات التأصيل الإسلامي للمعرفة ، أو أسلمتها بعبارة أخرى. إذ كيف تتم إعادة بناء المعرفة الإنسانية في ضوء تصورات وقيم ومبادئ المعرفة الإسلامية ، وكيف يتم تحريرها من هيمنة المؤثرات العلمانية ، وأحياناً المادية ، التي انحرفت بمعطياتها ونتائجها فيما يتعارض وأسس التصوّر الإسلامي للكون والعالم والحياة والإنسان والوجود والمصير ، وكيف يعود الالتحام بين الحقائق والتأسيسات المتشكلة بقوة (الوحي) ، وبين كشوف العقل البشري وخبراته المتنامية في هذا الحقل أو ذاك ؟

إن علمي النفس والاجتماع ، وعلوم الإدارة والسياسة والاقتصاد ، والتاريخ والحضارة ، والآداب والفنون ، لبأمس الحاجة إلى التعامل معها ، بدءً وصيرورة ونتائج ومعطيات ، وفق أسس وضوابط المعرفة الإسلامية التي لا تبخل بتقديم تأسيساتها وثوابتها ومعاييرها لأداء هذه المهمة من أجل الوصول – وبالطرائق العلمية الصارمة – إلى نتائج أكثر دقة وإحكاماً. وهكذا يجيء تزويد أطالب الجامعي بالمعرفتين معاً ، في ضوء رؤية تكاملية ، فرصة ضرورية لتمكينه من هضم وتمثل مفاهيم التأصيل الإسلامي للمعرفة ، والإعانة على تحقيق أهدافها ، فيما ينقلنا

إلى الخطوة التالية وهي البدء بنسج المشروع الحضاري الذي يستهدف انبعاث الحضارة الإسلامية ، ومشاركتها في إعادة صياغة المصير البشري ، وفق معادلتها المتميزة التي يلتقي فيها الوحي بالوجود ، والتعليم الديني بالكشف العقلي ، ويتحقق التوازن الضائع في الحضارة الغربية الراهنة ، فيما نبه إليه وأكده كبار فلاسفة وعلماء ومؤرخي ومفكري الغرب أنفسهم.

وهكذا ، وحيثما تلفتنا ، وجدنا كيف يصير (التكامل المعرفي) ضرورة " إسلامية " و " حضارية " في الوقت نفسه ، لا تخص نتائجه عالم الإسلام وحده بل يمضي لكي يسهم في إعادة بناء العالم الذي جنحت به ريح التشريق والتغريب.

قلق المعرفة الإنسانية وعدم يقينيتها :

إن ظاهرة التكامل المعرفي ترتبط في جذورها بثنائية العلاقة بين الوحي والعقل ، بين المعرفة الإسلامية المستمدة من الوحي ، والمعرفة الإنسانية المستمدة من العقل ، وبما أن الأخير لا يمكنه بحال من الأحوال ، أن يتجاوز نسبيته واحتماليته وقصوره ، فلابدّ له من نقاط ارتكاز يستند إليها فيزداد انضباطاً ومقاربة للحقائق المطلقة.

العلم الديني علم يقيني في أصوله وثوابته ، والعلم العقلي علم احتمالي في كشوفه ، ونتائجه ، فلابدّ – إذن – من التحقق بالتكامل بين العلمين ، إذا أردنا أن نصل إلى نتائج أكثر انضباطاً. فهي – إذن – الضرورة التي لا خيار فيها ، لأنها ترتبط أساساً بتحقيق المنفعة البشرية ، وحماية الإنسان من غوائل الخطأ والانحراف.

لنقف طويلاً عند ظاهرة احتمالية المعرفة الإنسانية وعدم انضباطها Not Exact Sciences قدر ما يسمح به المجال ، وضرورة اتكائها – إذا صح التعبير – على ثوابت المعرفة الدينية التي يحمل مصدرها الموحى به مصداقيته المطلقة.

سوليفان في (حدود العلم) Limitation of Science ، على سبيل المثال ، يؤكد ، بعد سبر عميق لجوانب من هذه المعرفة ، قلقها وظنيّتها ، وعدم قدرتها على الوصول إلى حافات اليقين المطلق ، وهو أمرٌ يكاد أن يكون مستحيلاً : " إنه ليس في نظريات علم النفس كافة شيء من شأنه أن يغيّر جدّياً من قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن. وللمعارف الأخرى أيضاً ، مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك ، بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية. والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي. أما مقولاته في المواضيع الأخرى فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلجلجة "[1].

---

(١) ص ٦٠-٦١.

وهي النتيجة نفسها التي ينتهي إليها (الكسيس كاريل) في (الإنسان ذلك المجهول) Man The Unknown : إن السيطرة على عينة من العالم المادي لغرض فهمها ممكنة إلى حدّ ما ، أما السيطرة على عينة يدخل فيها الإنسان ، والعقل ، والحياة ، طرفاً ، فتكاد تكون مستحيلة. والنتيجة التي نصل إليها في هذا المجال " ضعيفة ومتلجلجة "[١] ، الأمر الذي يذكرنا بما سبق وأن قاله الاقتصادي البولندي المعروف (أوسكار لانكه) ، أحد أكبر اخصائيي الدول النامية ، لدى استعراضه جهود الكتاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية ، منذ عصر (ماركس) وحتى عصر (بورشييف) وهو " أن هذه الدراسات جميعها مفككة ، لذلك فان الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لم يخرج بعد إلى حيّز الوجود باعتباره فرعاً منظماً من فروع الاقتصاد السياسي "[٢].

واضع أسس الفلسفة الوضعية : (أوغست كونت) يتخذ ، بسبب من دوافعه الذاتية التي لا تقوم على أي أساس موضوعي ، موقفين متناقضين من المرأة ، وهو عالم الاجتماع المعروف ! ففي بحث بعنوان : (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) يبعث فيه كونت " إلى محبوبته (كلوتيلددي فو) ، يغيّر رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييراً تاماً ! " فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستيوارت مل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير ، أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه "[٣].

والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض ، هو أنه في الأولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه ، ولكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حيناً من الدهر ، وفي الثانية أحب فتاة لم يتح له الزواج بها ، لكنها منحته نفسها وأحبته حباً صادقاً[٤].

ونقارن هذا التأرجح الفكري بالموقف الديني من المرأة ... الموقف الثابت الواضح المنبثق عن علم إلهي محيط بتكوين هذا الجنس وخصائصه ووظائفه المناسبة ، فنراه شاسعاً ، ونرى الذين يتجاوزونه صوب الأحكام النسبية المتغيرة ، كأحكام كونت ، ويريدون أن يتعاملوا على أساسها المتقلب مع المرأة ، يستحقون الرثاء وعدم التسليم بمقولاتهم.

---

(١) ينظر بالتفصيل : خليل ، عماد الدين. تهافت العلمانية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، (١٩٧٥م) ، هامش ٥ ، ص ٥٤-٥٥.

(٢) الاقتصاد السياسي : ترجمة : محمد سلمان الحسن. عن : محمد علي نصر الله. أضواء على نمط الإنتاج الآسيوي ، مجلة آفاق عربية ، بغداد ، السنة الثانية ، عدد ٦.

(٣) حسين ، طه. ألوان ، القاهرة : دار المعارف ، (١٩٥٨م) ، ص ١٥٤.

(٤) المرجع السابق. ص ١٥٤.

وإذا كان موقف كونت مؤسس واحدة من أشد الفلسفات أهمية وانتشاراً في أوربا ، يغيّر رأيه بسبب دوافع ذاتية صرفة ، وفي إحدى المسائل الأساسية في الحياة البشرية : المرأة ، فكيف يرجى لفلسفته أن تمنح اليقين لتلامذتها والمعجبين بها ، بل كيف نفسّر تحولها ، وغيرها كثير من الفلسفات البشرية العاجزة ، إلى ما يشبه الدين الذي ينحني الغربيون لمسلمّاته ، ويعتقدون أنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ن ألا ينسحب الأمر على معظم الفلسفات والعقائد الوضعية ؟

فالصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها (هيغل) قد علمت الناس عبادة القوة. وقد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى عرش السلطان " فحين حاول (نابليون) بحراب جيشه أن يدخل العلاقات البورجوازية إلى ألمانيا ، كان (هيغل) ، الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ، ورحّب بدخول جيش (بونابرت) إلى (يّنا) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة. ثم سمّى (نابليون) : (الروح المطلقة على جواد اشهب). ولكن بعد عشرين سنة من ذلك ، حين قوي الحكم الملكي الإقطاعي في ألمانيا ، والذي كان على رأسه فردريك وليم الثالث ، كان (هيغل) قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا "[1].

وكان الدكتور (وليم رايخ) ، وهو رجل ماركسي من اتباع (فرويد) ، ومؤسس معهد (السياسة الجنسية) ، قد أصدر تحت تأثير (مالينوفسكي) كتاباً أسماه (وظيفة الشهوة الجنسية) ، شرح فيه النظرية التي تزعم أن الفشل الجنسي يسبب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة ، وأن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق امكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية ، إلاّ بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود ، وطرح نظريته التي أسماها (نظرية كأس الماء) ، وخلاصتها أن على المواطن السوفياتي إفراغ شهوته في أية امرأة تصادفه من أجل التحرّر من العطش الجنسي وما يقود إليه من كبت مدّمر. ولكن وبعد مضي أقل من سنتين أعلن (لينين) حملته ضد هذه النظرية التي كانت ستؤول إلى تحوّل الجيل الجديد في الاتحاد السوفياتي إلى أولاد حرام ، ودعا – بدلاً من ذلك – إلى الاحتشام والتعفّف واحترام الأسرة والإقبال على الزواج ، رغم أن مؤسسي النظرية الماركسية (ماركس وانغلز) أعلنا في المنشور الشيوعي حربهما ضد فكرة الأسرة واعتبراها عرضاً بورجوازياً زائلاً[2].

---

(١) صديق ، عبد الحميد ، تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادي ، الكويت ، : الدار الكويتية للطباعة والنشر ، د.ت : ص ٧٨-٧٩.

(٢) كوستلر ، آرثر ورفاقه ، الصنم الذي هوى ، ترجمة فؤاد حمودة ، دمشق : د.ت : (١٩٦٠م) ، ص ٥٧-٥٨.

ثم ها هو (جان بول سارتر) ، زعيم الفلسفة الوجودية الملحدة ، في محاورته الأخيرة مع (سيمون دي بوفوار) ، قبيل أسبوعين من وفاته يعترف : " أنا لا أشعر بأني مجرد ذرة غبار ظهرت في هذا الكون ، وانما أنا ككائن حساس تم التحضير لظهوره وأحسن تكوينه. أي بإيجاز ككائن لم يستطع المجيء إلاّ من خالق "[1].

وقد تكفي هذه الشواهد – وهناك غيرها الكثير – للتأكيد على قلق المعرفة الإنسانية الغربية ، ونسبيّتها ، وضرورة ألاّ نجعلها الحكم الفصل في مناهجنا التعليمية ، وأن نتولى – بدلاً من ذلك – إعادة صياغتها وفق ثوابت التصوّر الإسلامي الذي لا يخضع للتقلبات والنسبيات والأهواء التي أدانها القرآن الكريم بالحسم الواضح : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (سورة النجم ، (الآية ٢٣).

شيء عن العمق الغيبي :

ونستطيع أن نذهب خطوات أبعد من هذا ، بعدما أكدت الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية الأكثر حداثة ، العمق الغيبي للظواهر الطبيعية الكبرى ، وكيف أن العالم المادي لا يعدو أن يكون مجرد قشرة سريعة الانكسار. فبعد تفجير القنبلة الذرية ، ومن بعدها الهيدروجينية والنيوترونية ، تأكدت هذه الحقيقة ، وأن ما وراء القشرة الهشّة ، تحتها تماماً ، على بعد خطوات منها ، مخفية عن العيان ، ومنطوية في عالم الغيب ، قوى هائلة تفوق التصوّر ، وتؤكد الحقيقة القرآنية التي طالما أشار إليها كتاب الله مراراً وتكراراً ، من أن عالم الغيب أشد ثقلاً وحضوراً من العالم المشهود.

والظاهرة لا تقتصر على الغيب الفيزيائي وحده – إذا صح التعبير – ولكنها تمتد لكي تشمل الخلائق كافة ، والقوى والطاقات الهائلة التي ينطوي عليها الكون ، مروراً بالملائكة والجان ، ووصولاً إلى كلمة الله التي إذا أرادت شيئاً فانما تقول له **(كن فيكون)**.

أية قوة هائلة ، مطلقة الإسار ، غير محدودة ، تنطوي عليها كلمة (كن) هذه ؟ أية فاعلية جبارة لا يقف أمامها شيء ، تملك هذه القدرة اللامحدودة على الخلق والإنشاء ؟ ﴿ قُل لَّوْ

---

(١) الأنصاري ، محمد جابر. المحاورة الأخيرة بين سارتر ودي بوفوار ، مجلة الدوحة ، عدد ٧٧ ، (مايو ١٩٨٢م).

﴿ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (سورة الكهف ، (الآية ١٠٩) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة لقمان ، (الآية ٢٧).

والعقل البشري الذي لا يزال ، رغم كشوفه المدهشة ، طفلاً يحبو عند حافات الكون ، لن يكون بمقدوره إدراك ما تعنيه كلمة (الغيب) ، وما تنطوي عليه من قوى خلاّقة هائلة ، غير محدودة.

هايزنبرغ وشرودنجر واينشتاين وماكس بلانك ، والفيزيائيون والكوزمولوجيون الذين جاءوا بعدهم ، فتحوا في القشرة المنظورة ثغرات ضيقة جداً ، فرأوا الأعاجيب ، وكانت القنبلة الذرية واحدة من ثمار هذه الأعاجيب ... ترى ماذا لو رفع الغطاء كلّه ؟ وما الذي سنراه ؟

الشاهد القرآني :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۞ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (سورة التكوير ، (الآيات ١-٦) ، ﴿ إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ (سورة الانفطار ، (الآيات ١-٤)[1].

" وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه ، وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال أنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها. وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض. وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها ، كما قال في موضع آخر ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ ، فتجير عناصرها ، وانفصال الايدروجين عن الأوكسجين فيها ، او تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة ، وهو أشد هولاً. أو على أي نحو آخر. وحين يقع هذا فان نيراناً هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار. فان تفجير قدر

---

(١) وللمزيد تنظر الآيات التالية : النازعات : (الآيات ٦-٩) ، الزلزلة : (الآيات ١-٥) ، القارعة : (الآيات ١-٥) ، الطور : (الآيات ٦-١٠) ، الرحمن : (الآيتان ٣٧-٣٨) ، الواقعة : (الآيات ١-٦) ، الحاقة : (الآيات ١٣-١٦) ، المعارج : (الآيات ٨-١٠) ، القيامة : (الآيات ٧-١٠) ، المرسلات : (الآيات ٨-١٥).

محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الايدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ، فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فان الإدراك البشري يعجز عن تصوّر هذا الهول ، وتصوّر جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة "[1].

محدودية عالم الشهود :

هذا عن العالم والكون ، فماذا عن الإنسان ؟

(الكسيس كاريل) في (الإنسان ذلك المجهول) ، ومن أجل تأكيد عجز الإنسان ، ونسبية معرفته عن معجزة العقل ، وطرائق عمل الدماغ البشري ، يؤكد بأن العلم الطبيعي إذا كان قد أوغل في كشوفه ، وقطع المسافات الطوال بخصوص الظواهر الطبيعية ، فانه يكاد يحبو ويتعثر في فهمه لخبايا النفس البشرية ... يقول : " اننا بتعلمنا سرّ تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر البسيطة ، فيما عدا أنفسنا ... ان علم الكائنات الحية بصفة عامة – والإنسان بصفة خاصة – لم يصب مثل هذا التقدم ... انه لا يزال في المرحلة الوصفية ... فالإنسان كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد ، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد ... فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ! وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب. ان هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ، ما زالت غير معروفة ... ونحن لا نملك أي فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه ، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه ... وعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعاً "[2].

بل إن الفيزيائيين الكبار الذين أشرنا إليهم كشفوا عن حقيقة أخرى : أنه حتى الكشوف الفيزيائية المتعاملة مع المادة والطاقة والضوء والكتلة ... لم تبلغ حافات اليقين ، وأن نسبة الاحتمال فيها كبيرة وكبيرة جداً ، وأنها تنطوي على أعماق غائرة مغيّبة عن الأنظار ، وعن أكثر الأجهزة التقنية قدرة على الكشف والايغال.

ومن الواضح ، كما يقول (سوليفان) ، أن حقيقة كون العلم مقصوراً على معرفة البنى ، وليس الماهيات ، هي حقيقة ذات أهمية إنسانية عظيمة لأنها تعني أن مشكلة طبيعة الحقيقة لم

---

(١) قطب ، سيد في ظلال القرآن ، ط ٣٧ ، دار الشروق ، (٢٠٠٨م) ، ٦/٣٨٣٩.

(٢) كاريل ، الكسيس ، الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد فريد ، بيروت : مكتبة المعارف ، د.ت : مقتطفات من الكتاب المذكور.

يبت فيها بعد ، ولم يعد يطلب إلينا الآن أن نعتقد بعدم وجود مقابل موضوعي لاستجابتنا للجمال ... إن تطلعاتنا الدينية وحسّنا الجمالي ليسا بالضرورة ظواهر وهمية ، كما جرى الافتراض في السابق[1].

ما الذي نخلص إليه من هذا العرض الموجز سوى أن عالم الشهود لا يعدو أن يكون بقعاً صغيرة ومنحسرة في البنية الكونية ، وهو كذلك في النفس البشرية ، بتقلباتها التي لا حدود لها ، وبطرائق عمل الدماغ البشري ، حيث لا يبدو في معظم الأحيان سوى الخمس من كتلة الجليد العائمة ، بينما تظل الأخماس الأربعة الأخرى مغيبة عن الأنظار باعتبارها عالماً غيبياً.

ثنائية الغيب والشهود :

في ضوء ذلك كلّه ألا يتحتم أن نرجع إلى القرآن الكريم لمتابعة ما الذي يريد أن يقوله بخصوص ثنائية الظاهرتين الكونية والإنسانية ، ما بين الشهود والغيب ؟

أربع وخمسون مرة ترد كلمة (الغيب) باشتقاقاتها المختلفة ، في كتاب الله ، مما يدّل على الثقل الكبير والحضور المؤكد اللذين أولاهما القرآن الكريم لعالم الغيب ، بل ان نقطة الارتكاز الأساسية في الايمان ، والتي وردت في الآية الثالثة من سورة البقرة ، هي الايمان بالغيب : ﴿ الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآيات ١-٣).

بعدها تتوالى الآيات لكي تعرض الحقيقة الغيبية وتتعامل معها ، من أكثر من زاوية ، وعلى أكثر من مستوى[2].

اننا – على سبيل المثال – عندما نقرأ : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ... ﴾ (سورة الأنعام ، (الآية ٥٩) ، ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الفرقان ، (الآية ٦) ، يتجه فكرنا على الأغلب إلى العالم اللا منظور ، الكائنات اللا مرئية ، الوجود المغيّب عن الأنظار : الملائكة ، الجان ، الشياطين ، الجنة ، النار ... الخ أو – حتّى – الأرزاق المقدّرة من السماء ، ولكنه نادراً ما يتجه إلى ما ينطوي عليه الكون من

---

(١) حدود العلم ، د.م ، بيروت : الدار العلمية ، ص ٣٩-٤٠.

(٢) تنظر الآيات التالية : البقرة : (الآية ٣٣) ، آل عمران : (الآية ١٧٩) ، الأنعام : (الآية ٥٩ ، ٧٣) ، يونس : (الآية ٢٠) ، هود : (الآية ١٢٣) ، النحل : (الآية ٦٥) ، فاطر : (الآية ٣٨) ، الطور : (الآية ٤١) ، الجن : (الآية ٢٦) ، المائدة : (الآية ١٠٩) ، النمل : (الآية ٧٥).

طاقات وأسرار مغيبّة ، فيزيائية هائلة لا يتصورها عقل. ولقد قدّر للإنسان أن يطلع على جانب ضئيل منها عندما فجّر الذرة ، ولكن ماذا بخصوص الذي لم يكتشف ، أو يفجّر بعد من طاقات وأسرار الكون التي يمسك الله سبحانه وتعالى بمفاتيحها ، أو ينزّلها بقدر معلوم ؟

إن الانقلاب الكوني الكبير يوم القيامة ، والذي أشرنا إلى بعض شواهده ، قد يقرّبنا بعض الشيء. تلك الآيات التي تحدّثنا عن انفطار السماء ، وانتشار النجوم ، وتكوير الشمس ، ودك الجبال ، وتسجير البحار.

إن علينا أن نقف طويلاً عند عبارة ﴿ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ وعبارة ﴿ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، ونتجاوز تسطيح التفاسير القديمة ، ونستدعي أكثر الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية جدّة وحداثة ، لكي ندرك أبعادهما المدهشة والمذهلة ، ولكي يتبيّن لنا – بحق – أن كتاب الله سبحانه وتعالى ، وكما حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد).

" إن حقيقة الغيب من مقوّمات التصوّر الإسلامي الأساسية ، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية ، ومن قواعد الايمان الرئيسية ، وذلك أن كلمات (الغيب) و (الغيبية) تلاك في هذه الأيام كثيراً – بعد ظهور المذهب المادي – وتوضع في مقابل (العلم) و (العلمية) والقرآن الكريم يقرر أن هناك (غيباً) لا يعلم (مفاتحه) إلا الله ، ويقرر أن ما أوتيه الإنسان من العلم قليل ، وهذا القليل انما آتاه الله به بقدر ما يعلم هو – سبحانه وتعالى – من طاقته ومن حاجته وأن الناس لا يعلمون – فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه – إلاّ ظناً ، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً. كما يقرر (سبحانه وتعالى) أن الله قد خلق هذا الكون ، وجعل له سنناً لا تتبدل ، وأنه علّم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ، ويتعامل معها في حدود طاقته وحاجته وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقيناً وتأكداً أن الذي جاءه من عند ربّه هو الحق ، دون أن يخلّ هذا بسنن الله التي لا تبديل لها ، بحقيقة

(الغيب) المجهول للإنسان ، والذي سيظل كذلك مجهولاً ... "[1].

---

(١) قطب ، سيد. في ظلال القرآن : ١١١٣/٧-١١١٤.

شهادات كبار العلماء :

لن يتسع البحث لإيراد الشواهد الكثيرة على تداخل ظاهرتي الغيب والشهود في البنية الكونية، وعلى المساحة الواسعة التي يحتلها (الغيب) في نسيج هذه البنية ، لذا سيتم الاكتفاء بثلاثة منها قد تغني عن المزيد :

(سوليفان) : " لقد أصبح العلم شديد الحساسية ومتواضعاً نسبياً ، ولم نعد نلقّن الآن أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجح لاكتساب المعرفة عن الحقيقة. إن عدداً من رجال العلم البارزين يصروّن بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة ، وأن علينا لذلك ، ان لا نعتبر أو يطلب إلينا أن نعتبر كل شيء يستطيع العلم تجاهله مجرد وهم من الأوهام "(١).

(اينشتين) : " إني أدين بالتبجيل كله لتلك القدرة العجيبة التي تكشف عن نفسها في أضأل جزيء من جزيئات الكون "(٢).

(الفرد كاستلر) : " إننا كلما أوغلنا في دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئاً ... فسوف يظل دائماً شيء مخفياً عنا " ، فلما سألوه : " مخفي بمن ؟ " أجاب " بالله ! " ، ثم وصف متاعبه في استمرار البحث بالقوانين المعروفة ، إذ اكتشف أنه بعد التوغل إلى أمد بعيد ، توقفت القوانين عن العمل ، وأنه دخل مرحلة لم تعد تسري فيها هذه القوانين الطبيعية المعروفة في الأرض ، مما جعله يسأل نفسه : " أترى علم الفيزياء الذي نمارسه في الحقيقة ليس علماً واحداً ؟ أي أنه يوجد علمان كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر : علم للمرئيات وعلم للمخفيات ... أو بعبارة أخرى : علم للمحسوسات أو لهذه الدنيا ، وعلم فيزياء آخر لغير المحسوسات ، أي لغير دنيا البشر ، أي للآخرة ... وكل منهما له قوانينه الخاصة التي لا تسري إلاّ على عالمه ؟! "(٣).

هذه الحقائق تقودنا مرة أخرى إلى ضرورة التكامل المعرفي في أكثر صيغه انفساحاً ، والذي يتساند فيه عالم الغيب وعالم الشهادة ، أو الوحي والوجود ، أو بعبارة أدق : المعرفة المنبثقة عن عالم الغيب وتلك التي تتعامل مع عالم الشهادة.

فنحن – إذن – أمام ضرورات التكامل عبر حلقات تنداح فيعقب بعضها بعضاً ، وهي في انديا‌حها تزداد اتساعاً ، بدءً من الحلقة التربوية في المدرسة ، مروراً بالحلقة الأكاديمية في

---

(١) حدود العلم ، ص ٣٢–٣٣.

(٢) ينظر : الحكيم ، توفيق. الأحاديث الأربعة ، القاهرة : مكتبة الآداب ، (١٩٨٣م) ، ص ٢٧.

(٣) ينظر : المرجع السابق ، ص ٢٨ ، نقلاً عن كتاب كاستلر : المادة هذا المجهول.

الجامعة ، وبالحلقة المعرفية في دائرتها الأشمل ، وانتهاء بحلقة الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية.

فلا يخطرن على البال أن الدعوة إلى التكامل المعرفي ، عبر هذا المؤتمر أو ذاك ، تنصب فقط على علاج مشكلة تربوية ، أو أكاديمية ، أو حتى معرفية صرفة ، وانما تمضي لعلاج أزمة الإنسان في كون يتطلب منه البحث عن إضاءة فوقية تعينه على بناء معرفة أكثر قدرة على مقاربة الحقائق ، واستجابة لمطالب الإنسان.

عزلة المائتي عام بين المعرفتين الإنسانية والإسلامية :

سواء كان هناك قصدية مسبقة ، أم هو الجهل بالمطالب والضرورات التعليمية والتربوية ، فاننا منذ ما يقرب من القرنين من الزمن ، أنشأنا نمطين من المؤسسات التعليمية ، وأقمنا بينهما جداراً كونكريتياً صلباً يصعب تخطّيه.

المؤسسات المعنية بالعلوم أو المعارف الإنسانية ، وتلك المعنية بالعلوم أو المعارف الإسلامية ، حيث لم يتح لخرّيجي الأولى أن يتلقوا شيئاً ذا بال من العلوم الإسلامية التي تمكنهم من التأصيل الضروري لما يتلقونه من علوم إنسانية ، قدمت إليهم جاهزة من الغرب ، بكل ما تنطوي عليه من تضادّ – في بعض حلقاتها – مع أسس التصوّر الإسلامي ومقوّماته. كما أنه لم يتح لخرّيجي الثانية أن يتلقوا شيئاً ذا بال من العلوم الإنسانية التي تمكنهم من أن يكونوا في قلب العصر ، ملمّين بالحدّ الضروري من معارفه ، قديرين على المشاركة في إعادة صياغته برؤية معاصرة ، تملك في الوقت نفسه معاييرها التصوّرية التي تحفظ لها شخصيتها وتحمي خصوصياتها.

على مدى أربعين عاماً وأنا أمارس تدريس عدد من العلوم الإنسانية في العديد من الجامعات : التاريخ وفلسفته ، الحضارة ، مناهج البحث ، التربية ، الاجتماع ، الأدب ، الاقتصاد ... إلى آخره ... فكنت الحظ هذا الفراغ المحزن في عقل الطالب الجامعي إزاء العلوم الإسلامية. إنهم وهم يدلفون إلى مرحلة الدكتوراه لا يحسنون حتى قراءة الآيات القرآنية ، ولا يعرفون شيئاً عن مصطلح الحديث ، أو العقيدة ، أو أصول الفقه ، ناهيك عن علوم القرآن الكريم.

رؤية العالم بعين عوراء ، بل بعيون الآخرين ، دون أن تضبط الرؤية ، ولو بالحدود الدنيا من المعرفة الإسلامية. ولنا أن نتصوّر كيف سيكون هؤلاء الخرّيجون أرقاماً هجينة مضافة إلى الساحة الثقافية التي تعجّ بأنصاف المتعلمين ... وكيف أن تعاملهم مع مطالب مجتمعاتهم

وتحدياتها ، سيزيدها فوضى واضطراباً. وهم في نهاية الأمر سيكونون ممن ينطبق عليهم مضمون الحديث الشريف عن ذلك المسافر المنبت الجذور ، الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى !

فماذا عن خريجي علوم الشريعة ، أو العلوم الإسلامية ؟ إنهم – بالتأكيد – ليسوا بأفضل حالاً من زملائهم (الإنسانيين) ! لأنهم غادروا معاهدهم دون أن يملكوا مقومات التعامل الفاعل مع الحياة ، أو القدرة على صياغتها ، بل وقيادتها كذلك ! وأنى لهم ذلك وهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن معارفها الإنسانية التي بدونها لن يكونوا قادرين على الإلمام بمطالبها ، والاستجابة لتحدياتها ، لأنهم لم يسبروا غورها العميق ، بل لم يبلغوا – حتى – شواطئها.

لم يعقد جسر بين المعرفتين يعين كلاً منهما على التفاعل والأخذ والعطاء وتبادل الخبرات. وزاد الأمر سوءً أن معاهدنا وجامعاتنا قبلت المعرفة الإنسانية على عواهنها ، وكما تشكلت في ديار الغرب بمنطلقاتها ، وفلسفتها ، وأهدافها ، ومعطياتها وتأسيساتها ونتائجها ... تقبّل كامل لعلم الاجتماع الغربي ، ولعلم النفس الغربي ، ولعلوم الإدارة والاقتصاد الغربية ، وللقانون والسياسة الغربيين ، وللآداب والفنون الغربية ، وللتاريخ وفلسفته ، والدراسات الحضارية ، وفق نموذجها الغربي.

عملية تنزيل للقوالب المعرفية الجاهزة ، وباستسلام تام لمعطياتها ، ليس فقط في معاهدنا وجامعاتنا ، بل وحتى في مدارسنا الابتدائية ومتوسطاتنا واعدادياتنا. وبما أن تلك المعرفة كانت تنبثق – في الأعم الأغلب – عن رؤية علمانية ، وأحياناً ، بل وفي كثير من الأحيان ، مادية ذرائعية ، ترفض الايمان بالغيب ، وتتنكر لله واليوم الآخر ، وتلتصق بالمنفعي والمنظور ، فيما يتناقض – ابتداء – مع تأسيسات المعرفة الإسلامية المبنية على الايمان بالغيب ، وعلى منظومة القيم الأخلاقية ، فلنا أن نتصوّر ، وقد عزلت هذه المعرفة عن معادلها الإسلامي ، كيف سيكون الحصاد مريراً ، وكيف ستخرج أجيال الطلبة وقد فكت ارتباطها بكل ما هو إسلامي أصيل.

والحق أنه " لا يوجد عربي مسلم مخلص يقف ضد تعلّم الجوهر الحقيقي في الحضارة الحديثة واستيعابه ، من اكتشافات ومخترعات وعلوم نافعة وكل جديد مفيد يتفق مع جوهر عقيدتنا السمحاء. ولكن الذي حدث بالنسبة لحملة (التعليم العصري) في العالم الإسلامي أنها لم تبدأ البداية الصحيحة ، ولم تتخذ شكل القرار الذاتي الحضاري المستقل والنابع من إرادة عربية مسلمة حرة ، ومن تخطيط يمتلك الرؤية والوعي ويعرف مواقع أقدامه. لقد بدأ ما سمي بالتعليم العصري على أنقاض نظام التعليم الأهلي الذي كان سائداً في العالم الإسلامي ، ولم

يأتي انبثاقاً منه وتطويراً له ، كما كان يجب أن يبدأ ويكون ، وكما حدث في الغرب ذاته في مطلع نهضته "[1].

وزاد الأمر سوءً أن هذه المعرفة المستوردة ، التي فعلت فعل السمّ في التكوين الثقافي للأمة (كما يقول محمد أسد : ليوبولد فايس)[2] ، لم تتقبل في مناهجها التربوية والتعليمية ، أي شيء عن المعرفة الإسلامية ، لكي تكون بمثابة الضابط والمرشد ، ولو في حدوده الدنيا ، لمأساة الإبحار في خضم المعارف الأجنبية ، اللهم إلاّ فيما يسمى دروس الدين. وأحياناً الثقافة الإسلامية ، والتي تعمد – لسبب أو آخر – في أن تنطوي على قدر كبير من الهزال ، والتهميش ، بل والتنفير ، فيما يزيد من حالة التقبل النفسي للمعطى الغربي ، والجهل المطبق بالمعطى المعرفي الإسلامي.

صحيح أن محاولات عديدة سعت عبر العقود الأخيرة ، لتجاوز الأزمة وتحقيق اللقاء المنشود بين المعرفتين ، لكنها في نهاية الأمر لم تشكل سوى بقع محدودة ومبعثرة على مساحة واسعة ، تعاني فيها المعرفتان من قطيعة غير مبرّرة على الاطلاق.

شيء عن الحصاد المرير :

لنقف لحظات عند جانب من الحصاد المرير لعزلة المائتي عام مع هؤلاء الخرّيجين : الحالة النفسية والاجتماعية والوظيفية التي عانوا منها ولا يزالون ، مقارنة بالحالة نفسها في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ، يوم أن كان المعنى بالعلوم الشرعية ، أو الفقيه ، يقود الحياة ، ثم ما لبث أن انسحب إلى هامش الحياة ، فأصبحت تقوده بضغط الضرورات النفسية والاجتماعية والوظيفية. وكان يملك عقلاً ابتكارياً متوقداً ، يقدر في لحظة على تكييف هذه المفردة أو تلك وفق مقاصد الشريعة ، فيعين على تمكين الخبرة الإسلامية من التواصل والاستمرار بالالتحام بالحياة ، ثم ما لبث أن فقد هذا التألق ، أو تعمد أن يطفئه استجابة لحالة اجتماعية يحكمها تقليد السابقين ، واتباع خطى الآباء والأجداد ، وتعين على نسخ خيوطها الكالحة ضغوط السلطة الاستعمارية (الخارجية) تارة ، والمحلية (الداخلية) تارة أخرى ، وهي الضغوط التي استهدفت عزل الشريعة عن الحياة ، ونسف الجسور المقامة بين الطرفين ، بما فيها " الفقيه " الذي أريد له ألاّ يشارك في عملية التغيير ، أو الصياغة ، أو إعادة تعديل

---

(١) الأنصاري ، محمد جابر : تحديد النهضة ، بيروت : المؤسسة العربية ، (١٩٩٢م) ، ص ٤٩.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق : ترجمة عمر فروخ ، ط ٦ ، بيروت : دار العلم للملايين ، (١٩٦٥م) ، ص ١٨.

الوقفة ، وأن يتحول إلى واعظ ، أو خطيب جمعة تقليدي ، أو مدّرس دين أو لغة عربية ، يتلقى في معظم الأحوال أجره الشهري من الحكومات. وإذ تعمّد أن يكون الأجر زهيداً لا يكاد يسدّ الرمق ، وكان العالم أو الفقيه غير قادر على أية حرفة إضافية تعينه على الارتقاء بمستواه المعيشي صوب الحدّ الأدنى من سويته المعقولة ، انعكس ذلك كله عليه : فأصبح مسحوقاً ، ممتهناً ، ضعيفاً ، لا يملك في معظم الأحيان " الشخصية " الآسرة القوية المؤثرة التي تمكنه من أداء دوره المطلوب.

لقد رأينا جميعاً هذا بأم أعيننا ... ثمة حالات استثنائية بكل تأكيد ، ولكنه الاستثناء الذي يعزز القاعدة ولا ينفيها.

في محاضرة عن " قيمة التاريخ " ألقيتها على طلبة كلية آداب جامعة الموصل ، أشرت إلى ما يمكن اعتباره إحساساً بالنقص " مركب نقص " يعاني منه طلبة أقسام التاريخ تجاه الفروع المعرفية الأخرى : إنسانية وصرفة وتطبيقية ، بينما هؤلاء الطلبة في جامعات العالم المتقدم يتمتعون بأعلى وتائر الثقة والطموح ، والاعتقاد بأنهم يمضون للتخصّص في واحد من أكثر فروع المعرفة الإنسانية أهمية وفاعلية ، ونحن نعرف جيداً كيف أن العديد من قادة الغرب وساسته ومفكريه ، والمهيمنين على مفاصل الحياة الحسّاسة فيه هم من خريجي أقسام التاريخ.

الحالة نفسها تنطبق – بدرجة أو أخرى – على طلبة العلوم الإسلامية ، بل اننا قد نجد بعضهم ينحدر باتجاه وضعية من الإحساس بالامتهان النفسي والاجتماعي لم يأذن بهما الله ورسوله لعلماء هذه الأمة ودارسي علومها الشرعية.

نحن– إذن – قبالة حالة نفسية – اجتماعية – وظيفية تتطلب العلاج والتجاوز ، وإيجاد البدائل المناسبة لعالم متغيّر يدخل قرنه الحادي والعشرين ... عالم تشاء إرادة الله سبحانه وتعالى أن تشتعل فيه على مدى البصر ، في مشارق الأرض ومغاربها ، صحوة إسلامية تتطلب ترشيداً ، من أجل ألاّ تنعطف بها السبل وتضل الطريق بين الإفراط والتفريط ... بين تشدّد لا يشكمه ويعيده إلى الجادة إلاّ العلم الشرعي المنضبط الصحيح ، وتسيّب لا يكفه عن الترهل والارتجال الكيفي إلاّ العلم الشرعي المنضبط الصحيح. وفي الحالتين لابدّ من عودة الفقيه ، أو العالم ، إلى قلب الحياة ، وتسلّمه كرة أخرى مواقع الريادة والقيادة ... لابدّ من التحقّق بأقصى وتائر الفاعلية والتألّق من أجل تحقيق الهدف الملّح ، قبل أن يفلت الزمام ، وتتشرذم الصحوة ، ونفقد جميعاً القدرة على توظيفها تاريخياً من أجل الإعانة على البدء بنسج خيوط المشروع الحضاري الإسلامي الذي آن له أن ينزل إلى الحياة لكي يجيب – كما يقول كارودي – على كل الأسئلة الكبيرة التي تؤرق الإنسان في العصر الراهن ، ويقدم البديل المناسب بعد انهيار جلّ النظم والايديولوجيات الشمولية والوضعية التي لم تعرف الله.

وإذا كان الاستعمار يوماً ، قد مارس دوره الماكر في لعبة تجهيل العلم وإفقاره وتعجيزه وتغريبه ، ومضى أكثر لكي يعزله تماماً عن الحياة ، و (يفصلّه) على الصورة التي يريد ، فما يلبث أن يصير " حالة " يتندّر بها المتندّرون ، فان هذا " المؤثر " السيء قد غادر بلادنا في نهاية الأمر ، فلسنا ملزمين بالاستمرار على تقاليده ، ولابدّ من التداعي لتعديل الوقفة الجانحة التي صنعناها بأيدينا – أولاً – ما في هذا شك ، ثم جاء الاستعمار لكي يزيدها انحرافاً وجنوحاً.

مقترحات تطبيقية لتجاوز الازدواجية :

ابتداءً لابدّ من إعادة النظر في مسألة وجود كليات أو معاهد للعلوم الإسلامية منعزلة عن تلك المعنية بالعلوم الإنسانية. ألاّ يمكن – مثلاً – أن تخترق " موضوعات " أو " مفردات " العلوم الإسلامية سائر الكليات والمعاهد المعنية بالعلوم الإنسانية أو أن تؤسس أقساماً أو فروعاً لها في تلك الكليات والمعاهد لكسر العزلة وتحقيق التحام أكثر بين مقاصد الشريعة وبين سائر المعارف الإنسانية ، كالإدارة والاقتصاد ، والقانون والسياسة ، والنفس والاجتماع ، والجغرافيا والتاريخ ، واللغة والآداب والفنون ، فيكون هذا فرصة مناسبة للتحقق أكثر فأكثر بالتأصيل الإسلامي للمعرفة ، أو على الأقل ، تنفيذ بداية صحيحة قد تؤول ، مهما طال الوقت ، إلى نتائجها المنطقية المتوخاة في التعامل مع سائر المفردات المعرفية في شتى التخصّصات من خلال الثوابت الإسلامية نفسها ؟

قد يعترض على هذا بضرورة أن يكون هناك – في نسيج الأنشطة الجامعية – مؤسسات أكاديمية مستقلة لعلوم الشريعة ، من أجل تخريج المتخصصين في هذا الفرع المعرفي بالذات ، الذي قد تلحق به ، قدر ما يسمح به المجال ، موضوعات معرفية أخرى ، في هذا الحقل أو ذاك ، ولكن تبقى مهمة هذه المؤسسات منح الشهادة في علوم الشريعة وليس في آية علوم أخرى.

وهذا حق ، وهو ضرورة من ضرورات التخصّص العلمي ، ولكن هل يمنع هذا من تنفيذ صيغة مضافة تتمثل في مغادرة العلوم الشرعية لمؤسساتها التخصصية ، والتحامها مع الفروع والأقسام والمعاهد والكليات الإنسانية ، بل وحتى العلمية الصرفة والتطبيقية ، لتحقيق هدفين ملّحين : أوّلهما ذلك الذي سبق وأن أشرنا إليه بخصوص محاولة وضع التأسيسات الأولى لإسلامية المعرفة التي لن تتحقق ما لم يتم اللقاء بين النمطين المعرفيين ، فيصير الوحي والوجود معاً ، أو الدين والعلم ، مصدرين لصياغة المفردات ؟

وثانيهما كسر جدار العزلة بين علوم الشريعة والحياة ، وإعادة الدم إلى شرايينها المتصلبة ، ومنحها الحيوية والمرونة التي تمكنها من التموضع في قلب العصر لا بعيداً عنه.

قد يعترض – أيضاً – بالقول في أن ساعات الفروع والأقسام الإنسانية لا تسمح باستضافة العلوم الشرعية ، أو بأن مادة (الثقافة الإسلامية) أصبحت البديل المناسب للقاء بين الطرفين.

وهذا حق كذلك ، لكن تبقى هنالك تساؤلات في هذا السياق قد تخطيء وقد تصيب : إن " ساعات " الفروع والأقسام الإنسانية ليست قدراً نهائياً لا فكاك منه ، ولطالما جرى تكييفها واستبدالها وإعادة جدولتها في العديد من الكليات لتحقيق غرض أشد إلحاحاً. ومن ثم فانه ليس مستحيلاً إذا كنا جادين في إيجاد مواقع مناسبة لعلوم الشريعة في الكليات الإنسانية أن نعيد الترتيب فيما يعطي لهذه العلوم الفرصة المناسبة في خارطة الموضوعات المقررة على مدى سنوات الدراسة الجامعية.

وبالنسبة للثقافة الإسلامية ، فانها حققت ولا ريب قدراً طيباً لدى استضافتها في المعاهد والكليات المختلفة ، ولكنه – على أية حال – ليس القدر المطلوب لأنها لم تتجاوز – في معظم الأحيان – ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً في الأسبوع ، لا تكاد تغطي سوى جوانب محدودة من فكر الإسلام وثقافته ، فضلاً عن معارفه الشرعية ، ويتم فيها التعامل ركضاً على سطح الظواهر والمفردات ، دونما أي قدر من التعّمق والايغال. ويتخرج طالب القانون أو السياسة أو الإدارة أو الاقتصاد أو الآداب ... إلى آخره ، وهو لا يملك عن الإسلام سوى شذرات وقطوف وخطوط عامة في أحسن الأحوال.

إن مادة " الثقافة الإسلامية " ضرورية لتكوين بعض الأطر الفكرية الأصيلة في عقل الطالب الجامعي ، لكن هذا وحده لا يكفي إذا أردنا أن يكون القانوني والاقتصادي والإداري والمؤرخ والأديب ، متوافقين في نبضهم ومعرفتهم وأنشطتهم التخصصية مع مطالب هذا الدين ومقاصد شريعته.

قد يكون هذا حلماً ، أو هدفاً بعيد المنال ، ولكن الأعمال الكبيرة تبدأ دائماً بالحلم ، بالطموح للوصول إلى الأهداف البعيدة ... ورحلة الألف ميل – كما يقول المثل – تبدأ بخطوة واحدة.

من ناحية أخرى ، فان على المعاهد والكليات المعنية بعلوم الشريعة ، أن تتقبل بدورها استضافة أكبر قدر ممكن من موضوعات المعرفة الإنسانية المذكورة ، من أجل تمكين طلبة هذه المعاهد والكليات من المعارف المعاصرة ، في أحدث كشوفها ومعطياتها ، ومنحهم الخلفيات الكافية عنها ، الأمر الذي يتمخّض ولا ريب عن جملة نتائج منها – على سبيل المثال – الإعانة على إزالة حواجز العزلة والتغريب بين الشريعة والمعرفة الإنسانية ، وبينها وبين الحياة.

ومنها جعل خريجي هذه المؤسسات أكثر حيوية وقدرة على الخطاب ، ووضعهم ، بتمكينهم من معارف العصر ، في قلب العصر قديرين على النقد والمقارنة والتمحيص ، قديرين – أيضاً – على إيصال مطالب المعرفة الشرعية ، والتحقق بمقاصدها في ضوء تناقضات واحباطات المعرفة الوضعية ، وعلى إسهام أكثر فعالية في صياغة المشروع الحضاري الإسلامي البديل.

إن هذا سيقدم – بدوره – ثمرة أخرى هي تجاوز الإحساس بالنقص الذي سبق وأن اشرنا إليه ، والذي هيمن على أجيال المعنيين بالعلوم الشرعية عبر القرنين الأخيرين ، والتحقق بالثقة والاعتزاز بالذات ، في وتائرها المعقولة التي تتجاوز بهؤلاء الخريجين حالات العقم والشلل ، وعدم القدرة على الإبداع والإحسان والابتكار والإضافة والتجديد ...

إن علينا أن نتجاوز الاستسلام لتقاليد منهجية قادمة من عصور عتيقة هي غير عصرنا ، محملة بموضوعات ومفردات لم تعد تصلح للقرن الجديد ، واستبدالها بمناهج أكثر مرونة ، تملك القدرة على استضافة واستيعاب المعارف الحديثة ، وتمكّن المتعاملين معها على تجاوز العزلة ، والتغرّب والانقطاع ، إلى تنفيذ حوار فعال مع تحديات العصر وهمومه المعرفية والثقافية ، والإعانة – بالتالي – على بلورة وصياغة المشروع الحضاري المرتجى.

وفي السياق نفسه يستحسن أن نكون حذرين من الانسياق وراء التقسيمات التقليدية لأجدادنا أنفسهم وهم يتحدثون عن علوم " نقلية " وأخرى " عقلية " ، وكأن هناك جداراً فاصلاً بين العلمين.

ويتساءل المرء : ألم يدخل الإسلام لكي يصوغ العلوم العقلية ويتوغل في جزئياتها ومسالكها ، برؤيته المتميزة وتحليله الخاص ؟ ويتساءل – كذلك – ألم تكن العلوم النقلية نفسها عقلية بمعنى من المعاني ؟ أي بكونها استجابة ناجحة متفردة لمطالب العقل البشري في هذا الفرع المعرفي أو ذاك ؟

إننا بحاجة إلى التريّث قليلاً ، ونحن نتعامل مع التقسيمات والمصطلحات ، وأن نتجاوز الكثير منها – إذا اقتضى الأمر – لكي ننحت ونصوغ مفرداتنا المنسجمة ورؤيتنا العقدية المتميزة.

إن الحلقات الإسلامية لا تزال تعاني – إلاّ في حالات استثنائية – من ثنائية يمكن لمؤسسات علوم الشريعة ، أن تعين على تجاوزها : ففي أحد الطرفين يقف إسلاميون متمرسون بالمعرفة المعاصرة ، ولا يكادون يعرفون شيئاً عن علوم الشريعة. وفي الطرف الآخر يقف إسلاميون متمرسون بعلوم الشريعة ، ولكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن العلوم الإنسانية والمعارف الحديثة.

والخندق عميق ، والهوّة محزنة ولا ريب ، والنتائج السيّئة لهذا الانفصال ، أو الثنائية ، تنسحب على مساحات واسعة من الجهد الإسلامي المعاصر الذي يلتحم بالحياة الثقافية والمعرفية دونما عمق فقهي ، أو يمضي بالإيغال في هذا العمق حيناً آخر ، بعيداً عن مجرى الصراع الفكري المحتدم قبالته صباح مساء.

ولقد أوقعت هذه الثنائية ، الطرفين ، في مشاكل عديدة ، قد يقود تراكمها إلى تشكل إرث من الأخطاء التي يصعب تداركها ما لم نسارع بإيجاد الحلّ المناسب ، بالتحقق بتقارب بين الطرفين من خلال بذل جهود استثنائية ، والاتفاق على منهج أكثر توازناً يضع في حساباته قطبي المسألة ، حيث يصير التعامل الأكاديمي مع علوم الشريعة ، فرصة طيبة لتحقيق الوفاق.

وما من ريب في أن فقه الحياة التي أراد لنا هذا الدين أن نعيد صياغتها وفق مقاصده ، وأن نمسك بزمام قيادتها كي لا يعبث بمقدّراتها المضلّون عن سبيل الله ، ويميل بها الذين يتبعون الشهوات والأهواء والظنون ، الميل العظيم الذي حذّر منه كتاب الله : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾(سورة النساء ، (الآية ٢٧) ... إن فقه الحياة هذا ليس حالة بسيطة ذات وجه واحد ، وانما هو حالة مركبة ذات وجوه شتى. فهناك الفقه الشرعي الذي يتعامل مع الجزئيات والكليات ، أي مع مفردات الشريعة في هذا الجانب أو ذاك ، ومع مقاصدها الكبرى التي تجعل المعطيات الفقهية تصّب في هدفها الكبير ذي الفضاء الواسع سعة الحياة نفسها.

هناك الفقه الدعوي الذي يمنح الناس في كل زمن ومكان القناعة بأحقية هذه الشريعة في حكم الحياة وقيادتها.

وهناك ، فضلاً عن هذا وذاك ، الفقه الحضاري الذي يعيد تشكيل الحياة وفق مقاصد الشريعة في ضوء إدراكه لقوانين الحركة التاريخية ، وسنن الله في الخلق والعالم والوجود ، وعلى هدى رؤية مقارنة نافذة لخرائط العالم الحضارية ومن أجل صياغة المشروع الحضاري المتميز ، والتحقق – في الوقت نفسه – بصيغ مناسبة في التعامل مع الحضارات الأخرى أخذاً وعطاءً ...

إن الفقه الحضاري ، كما أنه عمل في التاريخ للبحث عن أصول وقوانين التشكل الحضاري ، فهو عمل في صميم العصر ، وتطلع للمشاركة في المصير البشري من خلال صياغة المشروع الحضاري البديل الذي يستمد حيثياته ويتلقى توجيهاته من مقاصد الشريعة وآلياتها الفقهية ، والذي يجاهد من أجل التجذّر في الأرض والانتشار فيها بقوة الفقه الدعوي وآلياته الفاعلة.

والآن ، فان إحدى مشاكل المناهج الجامعية بصدد علوم الشريعة أنها تعطي طلابها الفقه الشرعي ، وتمضي معهم في الفقه الدعوي إلى منتصف الطريق ، ولكنها لا تكاد تعطيهم شيئاً عن الفقه الحضاري. فها هي ذي الحلقة الضعيفة في " عقل " خريجي المعاهد الشرعية ، والتي تساعد بدورها على حفر الخنادق وتعميق الهوّة بين الشريعة والحياة ، وتعين على تأكيد تلك الثنائية المقيتة التي عزلت ولا تزال حشود الخرّيجين عن الدخول في نسيج الحياة ، وإعادة صياغتها ، فضلاً عن تسنّم مراكز القيادة فيها ، والشهادة عليها.

إن الفقه الحضاري يستدعي دراسة علمية منهجية لتاريخنا الحضاري ، من أجل استمداد مؤشرات العمل في الحاضر والمستقبل ، وهي – كما هو واضح – ليست مسألة ترفيهية ، ولا حتى أكاديمية صرفة ، وانما هي مسألة حيوية ترتبط أشد الارتباط بالاشتغال التربوي ، لأن حلقة كهذه معنية باستخلاص البدائل التي يمكن أن نتقدم بها إلى ذوات أنفسنا كأمة ، وإلى العالم على امتداده ، في سياق مشروع حضاري يشارك في صياغة المستقبل. فضلاً عن أن فقهاً كهذا يمنحنا صورة عن مصداقية تحوّل الشريعة بمقاصدها وتأسيساتها التصورية والاعتقادية ، إلى واقع تاريخي متحقق في الزمن والمكان ، أي في التاريخ ، كما أنه سيعرّفنا على عوامل الانهيار الحضاري التي ساقتنا إلى المواقع المتخلفة في خرائط العالم.

هناك – بكل تأكيد – نقص في محاولة توظيف بعض الحلقات الجامعية للارتفاع بوتائر العمل إلى مستويات أعلى.

بعض هذه الحلقات قد وظف بالفعل ولكن في حدوده الدنيا ، وبصيغ مترعة بالشروخ والأخطاء (وربما الكسل العقلي) ، وحلقات أخرى لم تمسها يد في هذه الجامعة أو تلك. وفي كلتا الحالتين فان المطلوب ، هو الإفادة من كل الفرص المتاحة لتخريج عالم الشريعة الأقدر أكاديمياً والأكثر فاعلية وقدرة على الابتكار والعطاء.

هناك – على سبيل المثال – (البحث الخاص) أو (بحث التخرج) الذي يكلف به طلبة المرحلة الأخيرة من البكالوريوس (الليسانس) على مدى عام دراسي بأكمله ، ويشرف عليه – في الغالب – أستاذ المادة الأقرب في تخصصه الدقيق ، إلى الموضوع مجال البحث.

إن البحث الخاص هذا ، فرصة جيدة ، في حالة الاختيار المدروس لموضوعاته ، لتحقيق تلاحم أكثر مع المعرفة المعاصرة والحياة ، ولجعل علوم الشريعة تغادر رفوف المكتبات العتيقة وتنفض عنها التراب ، تتحرك وتنبض وتتنفس في قلب العصر ، مقدمة الشاهد (العلمي) على قدرتها التي لا يأسرها زمن أو مكان ، على متابعة المتغيرات والشهادة عليها.

والمسألة قد لا تكلف كثيراً ، فبمجرد أن يبذل الأستاذ جهداً مخلصاً لترتيب منظومة من موضوعات البحث الخاص ، في بدء كل عام دراسي ، وتوزيعها على طلبة المرحلة المنتهية وفق

توجهاتهم ورغباتهم وقدراتهم المعرفية قدر الإمكان ، ثم متابعة عملهم أوّلاً بأول ، من أجل أن تأتي بحوثهم بشكل أكثر إحكاماً وإبداعاً.

وبمجرد أن يتحقق هذا وذاك فان حصيلة طيبة قد تتمخض عنه متمثلة بحشود من البحوث التي تمرّن الطالب على البحث ، وتمنحه الدربة المنهجية الكافية ، والتي تقدم – في الوقت نفسه – نوّيات أو مشاريع بحوث قد ترفد المكتبة الإسلامية أو تعدها بالمزيد من العطاء.

والذي يحدث – في كثير من الأحيان – اعتبار البحث الخاص ، مفردة اعتيادية في مناهج المعاهد والكليات ، كأية مفردة أخرى ، قد لا تقتضي وقفة خاصة أو جهداً مضافاً أو اهتماماً كبيراً ، وبالتالي فان التعامل معها سيتحرك عند السفوح الدنيا ، فلا يبدع ولا يعلّم ولا يبتكر ولا يضيف جديداً. بل قد تنعكس الحالة أحياناً لما هو أسوأ من هذا ، وهي تأكيد عقلية التقليد والاجترار ، والتعلّق بتقاليد عصور تجاوزها التاريخ ، بل – ربما – تعميق " النفرة " في نفسية الطالب إزاء كل ما يتعلق بعلوم الشريعة ، واندفاعه – في المقابل – صوب ما يعتبره تحققاً أكثر مع الحياة التي يعيشها بعقله ووجدانه ، بعيداً عن مطالب الشريعة ومقتضياتها.

وبموازاة هذا ، وفي حلقة تالية ، أكثر أهمية ، لم يحسن التعامل مع مرحلة الدراسات العليا: (الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه) ولم توظف هذه الفرصة الفريدة للتعامل مع موضوعات غير تقليدية ، تعين على تحقيق الهدف المنشود. وها هنا أيضاً ، يتحتم " الإحسان " في اختيار الموضوعات المناسبة لهذه الرسائل والأطاريح وتوضيح مبرراتها ، وترتيب خططها ، بما يجعل الطالب أقدر على التعامل معها وفق منهج أكثر دقة وإحكاماً.

ويتذكر المرء في هذا السياق ما فعلته وتفعله مؤسسة (كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي) من وضع منظومة بحوث للدراسات العليا : بعناوينها ، ومفرداتها ، وخططها ، ومسوّغاتها ، ومستوياتها الأكاديمية ، بين أيدي الباحثين ، ليس هذا فحسب ، بل الإعانة – أحياناً – على اختيارها وتنفيذها ، ونشرها في نهاية الأمر ، من أجل دعم أهداف المعهد وتوجهاته الأساسية في التأصيل الإسلامي للمعرفة.

فلا يكفي – في هذه المرحلة – أن نترك الطالب يختار موضوعه ، فقد يكون هذا الموضوع تكراراً لما سبق وأن عولج أكثر من مرة ، وقد يكون غير مناسب ، كمشروع عمل لمرحلة الماجستير أو الدكتوراه ، وقد يأتي – وهذا هو الأهم – بنتائج معاكسة قد تدفع الطالب ، والقارئ معاً ، إلى تأكيد العزلة والانفصام بين الشريعة والحياة.

ولا يتطلب الأمر أكثر من بذل اهتمام أكبر في مسألة الاختيار ، وأن يدخل الأساتذة المشرفون ، الذين يفترض فيهم الإخلاص والعلم والجدية ، في مجال تخصصهم ، بشكل اكثر

فاعلية في إعانة الطالب على العثور على الموضوع المناسب ، والأخذ بيده بقدر الإمكان ، من أجل تنفيذ رسالة أو أطروحة ذات مستوى عالٍ منهجاً ومضموناً وتوثيقاً.

هناك ضرورة تنمية الخبرات التدريسية لطلبة الشريعة ، قبيل تخرّجهم ، وتعميق قدرتهم على الخطاب الإسلامي من خلال الدورات التدريبية ، والاستفادة من علوم النفس والتربية وأصول التدريس ، ومنحهم الفرصة " التطبيقية " المناسبة في التدريس في المتوسطات والاعداديات أسوةً بما تفعله كليات التربية التي تبذل جهداً مضافاً على المطالب الأكاديمية ، من خلال منح طلبتها المعرفة والخبرة والآليات التي تمكنهم من أن يكونوا " مدّرسين " أكفاء. وقد ينضاف إلى الخبرة التدريسية بالنسبة لطلبة العلوم الشرعية ، الخبرة الخطابية التي يمكن أن تحفز وتمنح الدربة الكافية من خلال فرص التطبيق عبر سني الدراسة الجامعية.

هناك – أيضاً – ضرورة تحفيز كليات الشريعة ومعاهدها على صياغة وتنفيذ برامج عمل مؤسسية تضعها في قلب العصر ، وتزيد من فاعليتها ، وتدفعها ، إدارة وأساتذة ، وخرّيجين ، إلى المواقع القيادية المؤثرة في المجتمع.

لقد أخذ هذا التقليد ، الذي يعمل تحت شعار " الجامعة والمجتمع " ينتشر أكثر فأكثر على مستوى العديد من الكليات والأقسام العلمية عبر العقود الأخيرة ، فصرنا نجد مكاتب أو مؤسسات استشارية في هذا القسم أو ذاك من كليات الهندسة ، أو العلوم ، أو الطب ، أو الزراعة، أو القانون ، أو الإدارة ، أو الاقتصاد ، أو السياسة ، أو – حتى – التربية والآداب. وأصبحت هذه المكاتب تحقق – بمرور الوقت – أكثر من هدف ، ففضلاً عن الالتحام أكثر بالمجتمع والحياة ، وفضلاً عن منح الفرصة للكفاءات الميدانية للتنفيذ ، والإضافة ، والاكتشاف والإبداع ، فان هذه المؤسسات تجيء بمثابة فرصة مضافة لتعميق القدرات التخصصية والمعرفية للتدريسيين ، وربما لطلبتهم كذلك. هذا إلى أن ممارسات كهذه تدّر دخلاً موفوراً يعين الأقسام والكليات ، والإدارة الجامعية في نهاية الأمر ، على توظيف هذا المردود لمزيد من العطاء والإبداع.

لماذا تظل معاهد الشريعة وكلياتها – في معظم الأحيان – بمعزل عن هذا كله ؟ في الوقت الذي يتحتم أن تكون أكثر إفادة من هذه التجربة بسبب من كثرة القنوات التي تصل بينها وبين المجتمع الذي طالما انتظر الإشارة من علمائه وفقهائه لكي يعدلوا وقفته هنا ، ويعينوه على المضي هناك وفق أكثر الصيغ التزاماً بمطالب هذا الدين ؟

لا يسمح المجال في الاستفاضة ، فلابدّ – إذن – من الاكتفاء بالتأشير على بعض الحلقات الممكنة في ممارسة كهذه من مثل : النشر ، مشاريع التأليف المشترك ، التحقيق والفهرسة ، الأعمال الموسوعية ، الحلقات الدراسية ، الندوات والمؤتمرات ، الإنتاج الفني والإعلامي ، إقامة الجسور وتوسيع التعامل مع المؤسسات المعنية بالمعرفة الإسلامية ،

المشاركة الفعالة في أنشطة التأصيل الإسلامي للمعرفة وصياغة حيثيات المشروع الحضاري ، البحوث والدراسات والمقترحات الاستشارية.

سأقف لحظات عند إحدى هذه الحلقات كمقترح للعمل يمنح كليات الشريعة فرصة ميدانية أخرى للتحقق ، ويدفعها باتجاه مزيد من الالتحام بالحياة الاجتماعية ، وبالواقع اليومي لجماهير المسلمين.

يتضمن المقترح إصدار دورية ، أو سلسلة كتب ميّسرة في الفقه ، تعالج المسائل المعاصرة والمستجدة ، فضلاً عن القضايا الثابتة ، وتعتمد أسلوباً حديثاً في اللغة ، ومنهجاً يسعى لتوحيد المواقف في الحالات الخلافية الحادة التي تحّير المسلم وتربكه.

يمكن تسمية المحاولة المقترحة بالمورد ، أو الدليل الفقهي للمسلم المعاصر ، أو المنهاج الفقهي ، أو كتاب الجيب الفقهي لمفردات المسلم اليومية ... أو غيرها من التسميات ... والمهم أن يبذل المشروع جهداً حيوياً في تقديم البدائل الفقهية الواضحة المحددة لعدد من مفردات الحياة والسلوك ، وبخاصة تلك القضايا الملحة من مثل (شروط الزكاة في زمن تحوّل النشاط المالي والاقتصادي ، إلى شبكة معقدة من المعطيات التي تنطوي على عشرات الحالات وهي جميعاً تنتظر الجواب الفقهي ... ومن مثل قضايا الزواج والأحوال الشخصية والتعليم والعمل الوظيفي ، وعمل المرأة والمساحة المتاحة لها للتحرك في الحياة العامة ، وشروط الحجاب ، ومعضلات الجاليات الإسلامية في الديار غير الإسلامية ، ووسائل الترفيه ... إلى آخره).

إن المحاولة ترتبط ولاشك بمسألة فتح باب الاجتهاد أو توسيع قنواته ، فلابدّ – أولاً – من تنفيذ جهد عملي وآخر دراسي لإضاءة هذه المسألة ، وقد يجيء الدليل المقترح محاولة عملية لاختبار إمكان تحقيق تغطية فقهية لأهم المستجدات.

ويستحسن من أجل نجاح المحاولة ، أن يقتصر الدليل ، أول الأمر ، على مسائل محددة وربما مسألة واحدة ، كالزكاة ، لكي تكون أشبه بجهد تجريبي لغرض اختبار مدى نجاحه وانتشاره ، وبعدها يمكن التحول لإصدار جزء آخر يعالج مسألة أخرى كقضية الزواج ، أو العمل الوظيفي ، أو دور المرأة أو التوظيف الإعلامي ... الخ.

على المستوى الفني يمكن أن ينفذ المشروع بصيغة دورية أو مجلة فصلية تمضي أعدادها لتغطية المفردات الملحة واحدة إثر أخرى ، أو بصيغة كتاب ذي أجزاء متتالية يختص كل جزء بموضوعة ما ، ويتم توزيع المفردات على عدد من خيرة الفقهاء الذين يجمعون بين الإلمام بالعلوم الشرعية وبين الانفتاح على الثقافة المعاصرة وتحدياتها.

ويمكن – كذلك – من أجل كسب الوقت ولأغراض إعلامية ، فتح ملف في واحدة أو أكثر من المجلات الإسلامية المعنية بالموضوع ، تطرح فيه المسائل المنهجية والفكرية والفنية التي

يتطلبها المشروع ، وقد تمضي المجلة للبدء في معالجة إحدى المفردات ووضع الحلول الفقهية لجوانبها كافة ثم التحول إلى مفردة أخرى ، لكي تتشكل في نهاية الأمر بدايات جادة للدليل المقترح.

وقد يكون في سياق جهد كهذا القيام بمحاولة ببليوغرافية لحصر وفهرسة جل الجهود الدراسية التي عالجت المسائل الفقهية من خلال رسائل وأطاريح الدراسات العليا ، أو في المؤلفات المستقلة ، أو على صفحات الدوريات المتخصصة ، أو في إصدارات المؤسسات الشرعية والفقهية والقضائية والتشريعية.

وقد يكون مهماً – كذلك – وضع منظومة من الموضوعات الملحة ، مع المسوّغات والخطط البحثية التفصيلية المرسومة بعناية ، لكي تكون بمثابة حقل للاختبارات بالنسبة لطلبة الدراسات العليا ، ويستحسن توزيع كراريس مستقلة بهذه الموضوعات ومسوّغاتها وخططها على المعاهد والجامعات والمؤسسات المعنية بالدراسات العليا في مجال الفقه والعلوم الشرعية.

إن معضلات العصر الحديث ومستجداته تمثل تحدياً ملحاً للعقل المسلم ، وهي بمثابة اختبار لقدرته على الفاعلية في صميم العصر من خلال اعتماد وتحكيم الأصول الإسلامية : القرآن والسنة والسوابق الفقهية ، وان الاستجابة لهذا التحدي لا تحقق فقط إجابة على العديد من الأسئلة الملحة في معترك الحياة ، وانما تؤكد – على المستويين العقدي والحضاري – قدرة هذا الدين على إعادة صياغة الحياة في كل زمن ومكان وفق تصوراته المتميزة ، وهي مسألة ترتبط – مرة أخرى – أشد الارتباط بالمشروع الحضاري الذي يتوخاه المسلم الجاد بمواجهة ، أو كبديل ، عن كل الإخفاقات التي شهدتها القرون الأخيرة بسبب الممارسات الإسلامية الخاطئة نفسها ، أو بتأثير من ضغوط الآخر ، وغزوه الفكري ، والحضاري بوجه عام.

ثمة – فضلاً عن هذا وذاك – ضرورة إغناء الخبرات المعرفية والتخصصية لأساتذة الشريعة وطلبتها من خلال التوسع في تنفيذ نظام الأساتذة الزائرين ذهاباً وإياباً (أي استدعاء أساتذة من أقسام وكليات وتخصصات أخرى لإلقاء محاضرات في أروقة الشريعة ، وإرسال أساتذة الشريعة إلى الأقسام والكليات الإنسانية للاحتكاك ببيئات تدريسية ومعرفية متنوعة). وهذا سيمنح التدريسيين والطلبة معاً خبرات أكثر تنوعاً وخصباً على مستوى الأداء التدريسي من جهة ، وإغناء التخصص وتعميقه من جهة أخرى ، ويحقق حواراً فعالاً بين علوم الشريعة والعلوم الإنسانية لتحقيق التحام أكثر بمطالب العصر ومقتضياته ، واستجابة أشد فاعلية وتنوعاً وخصباً لمشاكله وتحدياته.

ولابدّ – أخيراً – من الإشارة إلى تجربة عدد من المعاهد والجامعات الإسلامية التي بدأت منذ عدة عقود ، في هذا البلد أو ذاك ، في تنفيذ مناهج أكثر حداثة في التعامل مع علوم

الشريعة وتدريسها ، فكسرت طوق العزلة ، والتحمت أكثر بمطالب العصر ، وقدرت على توظيف معارفه وتقنياته لتقريب أهدافها ، وحققت الوفاق الضائع بين المعرفتين الإسلامية والإنسانية ، وسعت – ولا تزال – لإقامة الجسور المقطوعة بين الفقيه والمفكر ، من أجل أن تضع الفقيه في قلب الحياة ، وتمنح المفكر خبرة بالعرفة الإسلامية ، تعينه على التأصيل ، وتحميه من غوائل الارتجال والجنوح.

لا يستطيع المرء أن يكون مبالغاً في التفاؤل ، ولكن رحلة الألف ميل تبدأ – كما يقول المثل – بخطوة واحدة ، ويكفي هذه المعاهد والجامعات أنها وضعت خطواتها الأولى على الطريق ، ونفذّت شيئاً من المأمول ، وهو كثير ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه.

ومهما يكن من أمر فان معاهد وجامعات كهذه تمثل فرصة جيدة للاستفادة من خبرتها ، وإقامة الجسور معها ، والمضي لإغناء مطالب اللقاء والالتحام بين المعرفتين الإسلامية والإنسانية بالمزيد من المعطيات.

خاتمة :

تنطلق هذه المحاضرة من إضاءة جذور الإشكالية التي تتطلب – بالضرورة – تكاملاً معرفياً ، والتي تقودنا إلى اهتمامات فلسفة المعرفة ، حيث في التصوّر الإسلامي – تحديداً – لا يكفي أن يعمل العقل (والحواس بطبيعة الحال) الجهد للوصول إلى (الحقيقة) ، إذ لابدّ من إعانة ، أو إضاءة (فوقية) تأخذ بيد العقل وتمكنه من تحقيق المطلوب ، وهكذا يصبح الوحي ضرورة ملازمة للعقل إذا أريد اكتناه أسرار الوجود ، وإعادة صياغته بما ينسجم ومهمة الإنسان الاستخلافية والعمرانية في هذا العالم. وسيقودنا هذا إلى التحقق بمفاهيم " أسلمة المعرفة " أو " التأصيل الإسلامي للمعرفة " ، بمعنى اعتماد ثوابت العلم الديني المتشكل بقوة الوحي معياراً لبناء ما يتمخض عن الكشف العقلي الذي طالما انتهى – إذا عمل بمعزل عن ضوابط الوحي – إلى الوصول إلى نتائج احتمالية ، ظنية ، بعيدة – بدرجة أو أخرى – عن حافات اليقين ، بشهادة كبار فلاسفة العلم وعلماء النفس والفيزياء والكوزمولوجي ، وبمتابعة شواهد أخرى من كشوف العقل النسبية والقلقة في علمي النفس والاجتماع وفلسفة التاريخ.

أكدت المحاضرة – في موازاة هذا – على عمق الظاهرة الغيبية في البنية الكونية والإنسانية ، وتغطيتها المساحات الأوسع بالمقارنة مع عالم الشهود ، والاهتمام البالغ الذي أولاه التصوّر الإسلامي للغيب ، فيما يجيء مطابقاً لاستنتاجات العديد من فلاسفة العلم ، وعلماء الفيزياء والكوزمولوجي والنفس.

هذه الحقائق تقودنا – بالضرورة – إلى التحقق بمفاهيم التكامل المعرفي ، ليس فقط لخدمة وتأكيد المطالب الدينية والايمانية عموماً ، وانما وبموازاتها تماماً : إعانة المطالب العلمية على الوصول إلى أهدافها بأكبر قدر ممكن من الانضباط المنهجي ، إذا صحّ التعبير.

بالانتقال من العام إلى الخاص نجد كيف أن التكامل المعرفي يعد ضرورة أكاديمية ، تحديداً ، بسبب ما فعلته ظاهرة الاعتقال في زنزانات التخصّص الدقيق من تضحّل معرفي وتسطّح ثقافي ، وغياب في القدرة على الإبداع والإضافة والاكتشاف ، بل حتى في " اللغة " لتي يفترض أن تمارس وظيفتها في الخطاب بأكثر صيغه فاعلية وقدرة على التوصيل.

الجامعات ، بسبب من غياب التكامل المعرفي ، تخرّج أجيالاً من أنصاف المتعلمين ، وتعين الأمية المقنّعة على التزايد والانتشار ، ولابدّ – إذن – من تدارك الموقف بكسر أقفال زنزانات التخصّص الضيّقة والانفتاح المعرفي في فضائه الواسع.

أكدت المحاضرة على مسألة أن التكامل المعرفي لا يأخذ مساراً نمطياً واحداً وانما يتحرك وفق اتجاهات ثلاثة : تكامل بين نمطين متغايرين من المعرفة ، وتكامل بين علوم كل معرفة على حدة ، وتكامل بين مفردات التخصّص الدقيق نفسه.

حتى إذا ما جئنا إلى ثنائية المعرفتين الإنسانية والإسلامية تحديداً ، باعتبارهما الموضوع الأساس للمحاضرة ، وجدنا كيف كانتا ولا تزالان تعانيان من القطيعة – بدرجة أو أخرى – فرضت نفسها على معاهدنا وجامعاتنا منذ بدايات تشكلها الأولى قبل أكثر من قرن ونصف القرن.

المؤسسات المعنية بالعلوم والمعارف الإنسانية ، وتلك المعنية بالعلوم والمعارف الإسلامية، حيث لم يتح لخرّيجي الأولى أن يتلقوا شيئاً ذا بال من العلوم الإسلامية التي تمكنهم من التأصيل الضروري لما يتلقونه من علوم إنسانية ، قدمت إليهم جاهزة من الغرب ، بكل ما تنطوي عليه من تضاد – في بعض حلقاتها – مع أسس التصوّر الإسلامي ومقوّماته. كما أنه لم يتح لخرّيجي الثانية أن يتلقوا شيئاً ذا بال من العلوم الإنسانية التي تمكنهم من أن يكونوا في قلب العصر ، ملمّين بالحد الضروري من معارفه ، قديرين على المشاركة في إعادة صياغته برؤية معاصرة ، تملك في الوقت نفسه معاييرها التصورّية التي تحفظ لها شخصيتها وتحمي خصوصياتها.

صحيح أن محاولات عديدة سعت عبر العقود الأخيرة ، لتجاوز الأزمة وتحقيق اللقاء المنشود بين المعرفتين ، لكنها – في نهاية الأمر – لم تشكل سوى بقع محدودة ومبعثرة على مساحة واسعة تعاني فيها المعرفتان من قطيعة غير مبرّرة على الاطلاق.

يعرض البحث لجملة من مخرجات الحصاد المرير لعزلة المائتي عام بين المعرفتين وللوضع السيء الذي لا يحسد عليه خرّيجوها ، ثم يخلص إلى جملة من المقترحات للخروج من الأزمة ، وللتحقق بالتكامل المعرفي المنشود. وقد أريد لهذه المقترحات أن تكون (عملية) قابلة للتطبيق ، من أجل الإعانة على تحقيق المطلوب ، وتخريج النخب المتميزة ، القديرة على الإبداع والعطاء ، والإسهام الفاعل في إعادة صياغة الحياة الإسلامية في ضوء مطالب مشروعها الحضاري ، وفي تسنّم المراكز القيادية التي تعينها على ذلك.

وهذه المقترحات ليست نهاية المطاف ، بطبيعة الحال ، إذ ترك الباب مفتوحاً لتقديم المزيد من أجل تحقيق هذا الهدف العزيز. ولعلّ هذه بالذات هي التوصية الأكثر أهمية والتي تخلص إليها هذه المحاضرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مفهوم الأعمار وعلاقته بالنهضة في ضوء القرآن الكريم

" محاضرة مقدمة إلى المؤتمر القرآني الثالث الذي عقدته جمعية المحافظة على القرآن الكريم في عمان في (٢٥-٢٦/٩/٢٠١٠م) "

أيها الحضور الكرام ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قدم القرآن الكريم شبكة من الشروط الفاعلة لبناء المشروع الحضاري الإسلامي ، الذي يتميز عن سائر المشاريع الحضارية باستناده إلى ركيزتي الوحي والوجود ... الكلمات ، أو المنهج القادم من السماء بواسطة النبوة ، وإعمار العالم والقيمومة عليه والشهادة على البشرية في ضوء ضوابطه ومعطياته.

يوم أن التزمت الأمة بمطالب هذا المشروع ، نهضت من كبوتها وقدرت على تشكيل حضارتها المتألقة التي غدت لمدى قرون ثلاثة سيدة الحضارات في هذا العالم ... ثم جاءت عوامل الانكسار الحضاري عندما فك المسلمون ارتباطهم بالخطاب القرآني ... ولن يكون بمقدورهم النهوض كرة أخرى إلاّ بالعودة للالتحام بهذا الخطاب وتنفيذ مقتضياته على أرض الواقع.

ستتابع المحاضرة شروط التكوين العمراني أو الحضاري في ضوء التصوّر الإسلامي ، وما تنطوي عليه هذه الشروط من قدرات فاعلة للتحقق بالانبعاث والنهوض ... ولسوف يتم الوقوف عند الدلالات العمرانية كما قدمها القرآن بخصوص بدايات الخلْق من جهة ، وبدايات الانبعاث الديني من جهة أخرى ... ولما يعنيه مثلث الاستخلاف والتسخير والاستعمار (بمفهومه اللغوي لا الاصطلاحي) ، فضلاً عن جملة الشروط المساندة التي شكلت المناخ المناسب للنهوض الحضاري ، وهي قديرة إذا أحسنت الأمة التعامل معها بالجدّ المطلوب على أن تخرجها من تخلّفها وتمكنها من المشاركة الفاعلة في مصير البشرية.

شيء عن وضع الأمة

ليس بمقدور أحد أن ينكر كون الأمة الإسلامية في العصر الراهن ، تعاني من حالة انهيار حضاري يعبّر عن نفسه بصيغ شتى ، ليس أقلّها خطراً ما يلحظه المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) في دراسته للتاريخ بخصوص الحضارات الست المتبقية في العصر الراهن ، بعد غياب ما يزيد عن العشرين ، وأن هذه الحضارات المتبقية ، بما فيها الحضارة الإسلامية ، تلفظ أنفاسها وتدور في فلك الحضارة الغربية الغالبة ، وهي معرّضة في أية لحظة للتفكك والتلاشي في مدارات هذه الحضارة.

ونحن نلحظ كيف أن التعامل مع الحضارة الغربية الغالبة أخذ – منذ أخريات القرن الثامن عشر – صيغة الانبهار الذي دفع الكثير من قيادات الأمة الإسلامية ونخبها وعلمائها ، وأبنائها

عموماً ، إلى الأخذ غير المتبصّر عن هذه الحضارة ، أو ما سمّاه (مالك بن نبي) التكديس الذي يستورد ويركم الخبرات والأشياء ، ولكنه لا يصنع حضارة أو يعيد نهوضها من جديد.

ومكمن الخطورة في هذا الأخذ أنه لم يميّز بين الأشياء والأفكار ، فإذا كان في الحالة الأولى يمارس عملاً مشروعاً ، فانه في الثانية يقتحم عقل الأمة ، وعقيدتها ، وثوابتها التصوّرية ، وخصائصها الأساسية بجملة من المفردات التي تلحق الدمار بمقومات الشخصية الإسلامية ، وتقودها إلى الخروج من ساحة الاحتكاك الحضاري وقد فقدت ذاتها وأصبحت – في نهاية الأمر – تابعاً يدور في فلك الآخر.

اننا محمّلون بوقر التاريخ ... تراكم أخطاء الآباء والأجداد التي تمحورت عند خطيئة عدم الإنصات جيداً لنداءات القرآن ، وتعاليم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما تنطويان عليه من كشف وإضاءة لقوانين الحركة التاريخية وشروط الفعالية العمرانية.

لقد دعانا كتاب الله إلى منظومة من الممارسات والقيم الفاعلة في صميم العصر ، فيما ستكون مدار هذه المحاضرة ، ولكنا فككنا ارتباطنا بها منذ زمن انكسارنا الحضاري. وعندما استيقظنا وبدأنا فاعليتنا في مواجهة تفوّق الآخر ، كنا قد غيبّنا الدين في معظم مساحات حياتنا ، فأصبح الفعل لا برنامج له ، وضاعت البؤرة التي تستقطب الأفعال ففقدت قدرتها على التأثير ، وأفلتت من بين أيدينا فرصة الحضور الفاعل في قلب العالم ، والمشاركة في صياغة خرائطه.

إن ظاهرة الانهيار الحضاري ، وفشل معظم محاولات التغيير والإصلاح منذ منتصف القرن التاسع عشر وطيلة العقود الأولى من القرن العشرين ، على مستوى الفكر والتنظيم والحركة ، وتزايد ضغوط وتحديات الحضارة الغربية المتفوقة وقياداتها السياسية والمذهبية ، دفعت المعنيين بواقع الأمة الإسلامية ومصيرها إلى إعادة النظر في المعطيات السابقة ، والبحث عن بدائل أكثر قدرة على الفعل ، والخروج بالأمة من حالة الانكسار ، ومحاولة استعادة الدور الحضاري الضائع.

ولقد شهدت الساحة الإسلامية عبر العقود الأخيرة جهوداً مباركة جادة لتحقيق هذا الهدف الملّح ، أو – في الأقل – وضع الخطوات الأولى على طريقه الصعب الطويل.

وليس من مهمة محاضرة موجزة كهذه استعراض وتحليل هذه الجهود وتقويم النتائج التي حققتها ، وانما تقديم عرض مركز لمشروع الاعمار القرآني ، أو بعبارة موازية (المشروع الحضاري الإسلامي) الذي يمكن أن يأخذ بيد الأمة ثانية وينهض بها من كبوتها التي طال عليها الأمد.

القرآن والتحضّر والاعمار

رغم أننا في زمن كثر فيه الحديث عن الحضارة والدراسة الحضارية والفعل الحضاري وفلسفة الحضارة وصراع الحضارات وحوار الحضارات والحضارات المقارنة ... إلى آخره ، إلاّ أن ما نقوله ليس من قبيل ملاحقة الموجة السائدة وجعل النصّ القرآني يقول ما لم يقله في الأساس ... وحاشاه ...

على العكس تماماً ، فان القرآن الكريم كان سابقاً على هذا كله ، ورائداً لهذا كلّه ، وهو ينطوي على أول محاولة شهدها العالم على مستوى الكشف عن سنن الله العاملة في التاريخ ، أو بالتعبير المعاصر : قوانين الحركة التاريخية. هذا إلى أن البنية الأساسية في كتاب الله تستهدف تكوين أمة متحضرة قديرة على أداء وظيفتها الكبرى في إعمار العالم وجعله بيئة صالحة لعبادة الله (سبحانه وتعالى) ، ليس بالمفهوم الطقوسي الشعائري ، وانما بالمفهوم التشريعي الحضاري الذي تصير فيه كل فاعلية وإنجاز عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله.

إن القرآن الكريم نفسه يحدثنا كيف أن بدايات الخليقة ارتبطت بالعلم والمعرفة اللتين هما أداتا الإعمار والتحضّر : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ٣١).

وكيف أن بدايات التنزيل القرآني وبناء العقيدة الإسلامية ، ارتبطت هي الأخرى بالعلم والمعرفة وأدواتهما : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق ، (الآيات ١-٥).

ليس هذا فحسب ، بل ان القرآن الكريم يضع الأمة في قلب الفعالية العمرانية والحضارية من خلال المثلث الذي يحتل مساحات مؤكدة في هذا الكتاب المعجز : الاستخلاف والتسخير والاستعمار (بدلالته اللغوية وليست الاصطلاحية).

لقد استخلف الله (سبحانه وتعالى) الإنسان في هذا العالم وأناط به مهمة تطويره وإعماره وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته ، من أجل تسوية أرضيته كي تكون أكثر ملائمة لحياة مطمئنة تعلو على الضرورات ، بعد أن تتحرر منها ، ونكون أكثر قدرة على التوجه إلى السماء ... إلى خالقها جل وعلا ... دون أن يحني ظهورها ثقل الجاذبية وضرورات المادة الصلبة.

إن مبدأ الاستخلاف يتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ

الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (سورة فاطر ، (الآية ٣٩) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام ، (الآية ١٦٥) ، ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ٦٩) ، ﴿ . . . قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ١٢٩) ، ﴿ . . . وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النمل ، (الآية ٦٢).

ومسألة الاستخلاف تبدو من خلال هذه الآيات مرتبطة بالخيط العادل من طرفيه : العمل والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض من جهة ، وتلّقي القيم والتعاليم والشرائع عن الله سبحانه وتعالى ، والالتزام الجاد بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم من جهة أخرى.

والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة ، بحيث أن افتقاد أي منهما سيؤول إلى الخراب والتخلّف والضياع في الدنيا والآخرة ، وقد يقود إلى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه : العمل والجهد والإبداع ، والتلقي الدائم عن الله لضبط وتوجيه هذا العمل والجهد في مسالكه الصحيحة ، التي تجعل الإنسان يقف دائماً في قلب مهمته ، خليفة مفوضاً لإعمار العالم : ﴿ . . . قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾ (سورة هود ، (الآية ٦١).

ولن يكون بمقدور المسلم تنفيذ مطالب مهمته الاستخلافية ، ومنحها الضمانات الكافية ، وإعانتها على تحقيق أهدافها ، ما لم يضع خطواته على البداية الصحيحة " للتحضّر " فيكشف عن سنن العالم والطبيعة ، ونواميس الكون القريب من أجل الإفادة من طاقاتها المذخورة وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان وبين محيطه. وبدون هذا فان مبدأ الاستخلاف لن يكون بأكثر من نظرية أو عقيدة تسبح في الفراغ.

ويرتبط مبدأ (التسخير) بسابقه أشد الارتباط ، ويعد بدوره ملمحاً أساسياً من ملامح التصوّر الإسلامي للكون والعالم والحياة والإنسان ، ويتطلب اعتماد مناهج العلم وآلياته لتحويله إلى أرض الواقع ، والتحقق بعطائه السخي.

إن العالم والطبيعة ، وفق المنظور الإسلامي ، قد سخّرا للإنسان تسخيراً ، وان الله سبحانه وتعالى قد حدّد أبعادهما وقوانينهما ونظمهما وأحجامهما بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم وقدرته على التعامل معه تعاملاً إيجابياً فاعلاً. وهناك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا التسخير ، وتمنحنا التصوّر الإيجابي لدور الإنسان العمراني ، ينأى عن التصوّرات السلبية للعديد من المذاهب والفلسفات الوضعية التي جرّدت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة العالم ، وتطرّف بعضها فأخضعه لمشيئة هذه الكتلة وإرادة قوانينها الدينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لا رادّ له ، وليس بمقدور الإنسان إلاّ أن يخضع لهذا الذي تأمر به.

اننا نشهد في كتاب الله صيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف في أساسها ... صيغة السيد الفاعل الذي سخرّت له وأخضعت مسبقاً كتلة العالم لتلبية متطلبات خلافته في الأرض وإعماره للعالم على عين الله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة النحل ، (الآية ١٢) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً . . . ﴾ (سورة النحل ، (الآية ١٤) ، ﴿ . . . وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (سورة إبراهيم ، (الآيتان ٣٢-٣٣) ، ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (سورة ص ، (الآية ٣٦) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . . ﴾ (سورة لقمان ، (الآية ٢٠) ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة العنكبوت ، (الآية ٦١) ، ﴿ . . . وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحديد ، (الآية ٢٥).

إن (التسخير) هو الموقف الوسطي الفعال الذي يقدمه القرآن الكريم بصدد التعامل مع العالم بدلاً من الخضوع والتعبّد ، أو الغزو والانشقاق اللذين هيمنا على المذاهب الأخرى.

أما (الاستعمار) الذي يرد في الآية الكريمة بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية :

﴿ . . . هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾ (سورة هود ، (الآية ٦١) ، فيقود هو الآخر – وبالضرورة – إلى الفعالية العمرانية التي أنيطت بالأمم المؤمنة في هذا العالم.

فها نحن إذن من خلال عالم سخّر لنا ، واستخلفنا عليه ، لكي نبنيه ونعمره وننهض به ، نجد أنفسنا قبالة برنامج عمل مكن الأمة الإسلامية زمن انبعاثها من أن تصوغ حضارة كانت سيدة الحضارات في هذا العالم لمدى قرون عديدة ، وهو البرنامج نفسه الذي يمكن أن يخرج بالأمة من ورطتها وتخلّفها ، وينهض بها ، مانحاً إياها الدور الفاعل الذي أنيط بها عندما رفع القرآن الكريم خطابه الحاسم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ١٤٣).

العبادة والمعرفة والعمل

وبموازاة هذا المثلث ثمة مثلث آخر يحتل مساحات واسعة في كتاب الله ، ولابدّ من الأخذ بحدوده الثلاثة إذا أرادت الأمة أن تفعّل جهدها العمراني وأن تمضي به إلى غاياته القصوى : إنه العبادة والعلم والعمل.

إن القرآن الكريم من خلال هذا المثلث يضع الجماعة المؤمنة في برنامج نشاط موصول ذي ثلاثة أبعاد : البعد التعبدي ، والبعد المعرفي ، والبعد العملي.

وللوهلة الأولى يبدو أن البعد الأول معني بالجانب الروحي ، والبعد الثاني بالجانب العقلي ، والبعد الثالث بالجانب الجسدي. ولكن المسلم – على وجه الخصوص – يعرف ، من خلال خبرته اليومية ، وفقهه بكتاب الله (سبحانه وتعالى) ، أنه ليس ثمة فواصل في التجربة الإسلامية بين الروحي والعقلي والجسدي ، وأن الممارسة التعبدية – مثلاً – تنطوي على بطانة عقلية وأخرى جسدية ، وكذلك الأمر بالنسبة للممارستين المعرفية والعملية.

إن كل ممارسة في المنظور الإسلامي إنما هي عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث جعلت الأرض كلها ، كما يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (طهوراً ومسجداً)[1]. وإذا كان الذكر هو لب العبادة ، والشعائر الخمس هي الالتزامات التعبدية في

---

(١) رواه مسلم ، كتاب المساجد : ٦٤/٢ ورواه البخاري بلفظ آخر ، محمد علي صبيح ، القاهرة.

حدودها الدنيا ، فان الفضاء يظل مفتوحاً للمزيد من التعبد ، ليس فقط بالممارسة الروحية ، وانما أيضاً بالعمل والمعرفة ، وليصبح أي جهد عقلي أو جسدي ، إذا أريد به وجه الله تعالى ، تعبداً لله وتقرباً إليه ، كما تصير العبادة نفسها مشروعاً عملياً ومعرفياً لترقية الحياة وإغنائها.

ومهما يكن من أمر فاننا ، إذا جئنا إلى كل واحد من هذه السياقات الثلاثة ، فانا سنلحظ بوضوح ، ودون أية محاولة للإقحام ، كيف أنه يمارس دوره في شحذ مهمة الإنسان العمرانية في العالم وحمايتها من التآكل أو السكون.

فالعبادة تمضي بالإنسان والجماعة ، صعداً عبر مواقع الإسلام والايمان والتقوى فالإحسان ، لكي تجعلهما إزاء الحضور الإلهي في أقصى حالات التوتر الفعال والأداء في وتائره العليا. وهي مسألة ذات ارتباط أكيد بالمعطى الحضاري. هذا إلى أنها تمارس دوراً تحريرياً للإنسان إزاء كل الطاغوتيات والصنميات والحتميات وصيغ الاستلاب ، وعوامل الشدّ والإعاقة التي تكبله عن التعبير عن طاقاته. ولنا أن نتذكر – مرة أخرى – كيف أن العبادة في المنظور الإسلامي لا تقتصر على الشعائر المحدودة في الزمن والمكان فحسب ، وانما تمضي إلى كل جهد بنّاء ، أو إضافة ذات غناء يبتغي بها المرء وجه الله سبحانه وتعالى.

إن عبادة الله وحده ، بالمفهوم الشامل ، هي الهدف الذي يتحتم على الإنسان فرداً وجماعة ، أن يصعّد إليه أوجه أنشطته كافة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (سورة الذاريات ، (الآيتان ٥٦–٥٧). وفي الوقت الذي ترسم المذاهب الوضعية – هي الأخرى – أهدافاً لحركتها الحضارية ، تتميز – حيناً – بالغموض والمثالية ، كما هو الحال عند (هيغل) ، وتتميز – حيناً آخر – بالتحديدات المادية الصارمة والصراع الطبقي ، كما هو الحال عند ماركس وانغلز ، الأمر الذي قاد الأول – وهو يتحدث عن تجلّي المتوحد من خلال الدولة – إلى أن يعطيها المبررات الفلسفية لسياستها العدوانية التي قد تقود إلى الظلم البشري والدمار العمراني ، وقاد الآخرين إلى تبني مبدأ دكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتاريا) وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق أهدافها ، ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل المحتوم في وسائل الإنتاج والبنى الفوقية التي تقوم عليه ، الأمر الذي قادها إلى تنفيذ عدد لا يحصى من المجازر الجماعية تجاه القوى المعارضة فيما هو نقيض التحضّر والعمران.

في الوقت الذي ترسم المذاهب الوضعية أهدافاً كهذه ، نجد الموقف الإسلامي يحدد هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب الفاعليات والمعطيات كافة : عبادة الله ، والتوجّه إليه ، والتلّقي عنه ، لكي تتوحد في ممارساتها مع النواميس الكونية الشاملة ، والنظام الإلهي الملزم ،

والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان إلاّ لكي يعتمدها باختياره في التساوق مع هذا النظم الكوني ، والتناغم مع المجرى العام للخلائق جميعاً ، تمييزاً له – بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ، ومكانته كسيد للعالمين – عن سائر خلق الله.

وثمة فرق شاسع ، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية ، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الوجود ، متناغم مع مسيره ومصيره ، أو وهو منشق على هذه النواميس متنافر معها بدءً ومصيراً.

أما الجهد العقلي ، أو المعرفي ، فقد أريد له ابتداء أن يكتشف سرّ الأشياء ، وينقب عن السنن والنواميس ، ويتعرف على العالم الذي سخّر له من أجل ابتكار وتقديم التيسيرات الضرورية في حياة المؤمن ، فيتمكن – بذلك – من التحرّر من شد الضرورات وضغوطها ، والتمحّض أكثر فأكثر لله.

إننا نجد ، من بدء القرآن إلى منتهاه ، خطاباً معرفياً يرفع نداءه بالمفردات التي تتردّد في جنبات كتاب الله : اسمعوا ، أبصروا ، سيروا ، تفكروا ، أنظروا ، تدبروا ، تفقهوا ، اعلموا ... إلى آخره ... عبر عشرات المواضع ومئاتها ، وهو هنا لا يريد المعرفة لذاتها ، وانما لتحويلها إلى أداة صالحة لتحقيق المهمة العمرانية في العالم وتمكين الجهد التعبدي من مواصلة الطريق.

فأما (العمل) ، وما يرتبط به من دعوة مؤكدة في عشرات المواضع ، للإصلاح ووقف الإفساد والتخريب ، فيكفي أنه ورد في كتاب الله ، بتصريفاته المختلفة ، أكثر من ثلاثمائة مرة ، كأنه يريد تذكير المؤمن بأن عليه أن يعمل على مدار السنة ذات الثلاثمائة والستين يوماً ، لا يكل ولا يتكاسل (فمن استوى يوماه فهو مغبون)[1] ، كما يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إننا نقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الشاملة للعمل : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة التوبة ، (الآية ١٠٥) ، ونتذكر حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر "[2] ، فنعرف كيف أن الدور العمراني للإنسان والجماعة المؤمنة يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة

---

(١) رواه السخاوي بسند ضعيف في (المقاصد الحسنة) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، صفحة ٤٠٢.

(٢) ذكره علي بن عبد العزيز في (المنتخب) بإسناد حسن عن أنس (عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري) لبدر الدين العيني ، باب الحرث والزراعة.

الوعي الأولى حتى ساعة الحساب ، ونعلم كيف أن الحياة الإسلامية يجب أن تكون فعلاً إبداعياً موصولاً.

إن العمل – على ذلك – هو المحور الأساس لوجود الإنسان فرداً وجماعة على الأرض ، وبمعياره يتحدّد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو موقف ينسجم تماماً مع مبدأي " الاستخلاف " و" الاستعمار " اللذين أشرنا إليهما.

والعمل في المنظور القرآني لا يتشكل بمعزل عن الايمان ، ولكنه مشروط به ، وطالما أكدت المعطيات القرآنية على حقيقة أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين : الايمان والعمل الصالح : ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر ، (الآيات ١–٣) ، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ١١٠).

والايمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء بمثابة " معامل حضاري " يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ويوجهها في مسالكها الصحيحة ، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها فيزيدها عطاءً وقوة وإيجابية وتناسقاً ، كما أنه يمتد في العمق ليبعث في الإنسان الإحساس الدائم بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، ويدفعه في سباق زمني لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته ، ويعبر عن قدراته التي منحه الله إياها ، على طريق (القيم) التي يؤمن بها و(الأهداف) التي يسعى لبلوغها ، فيما يعتبر جميعاً – في المنظور الإسلامي – عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله.

شروط قرآنية أخرى للفاعلية العمرانية

ومع مثلثي الاستخلاف والتسخير والاستعمار من جهة ، والعبادة والمعرفة والعمل من جهة ثانية ، يرسم القرآن الكريم شبكة أخرى مضافة من شروط الفاعلية العمرانية ، تجد الأمة نفسها إزاءها ، إذا أحسنت التعامل معها ، في صميم الفاعلية التي يمكن أن تنهض بها من كبوتها مرة أخرى.

فلقد تضمن القرآن الكريم دعوة واضحة إلى أن ننظر إلى الأمام وألاّ نلتفت للوراء. إن هذا الالتفات له ضرورات محددة في حالة التلقي عن الآباء والأجداد معطيات تشريعية أو تراثاً معرفياً ، قد تستهدي به الأمم لتبين مواقع الخطأ والصواب. وكذلك الحال في قراءة تاريخ النبوات

وصراع الحق والباطل ، والتوحيد والشرك والتي يمكن أن نتعلم منها الكثير. أما أن يكون الالتفات إلى الماضي عملاً لا وعيياً يقوم على التقليد الأعمى ، فسيجعلنا في حالة تعارض مع ما يريده القرآن الذي نعى على المشركين والمتخلفين أنهم كانوا يتشبثون بما فعله الآباء والأجداد ، بغض النظر عن مدى سلامة هذا الفعل ومنطقيته : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ؟ ﴾(سورة يونس ، (الآية ٧٨) ، ﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(سورة الزخرف ، (الآية ٢٣) ، وهي هداية معكوسة يرفضها الإسلام أشد الرفض.

إن (توينبي) ، المؤرخ البريطاني المعروف ، يشير إلى نمطين من التعامل مع معطيات الآباء ، نمط التقليد الأعمى في مرحلة السقوط الحضاري ، ونمط الاقتداء بالنخب المبدعة وخبراتها الحيوية في مرحلة النهوض الحضاري ، والقرآن الكريم يرفض الأولى لأنها تقود إلى التخلّف والسكون بينما يؤكد على الثانية ويوليها اهتماماً كبيراً.

إن القرآن الكريم يضعنا – عبر مساحات واسعة منه – في قلب التاريخ بحثاً عن المغزى ... عن صيغ العمل في الحاضر والمستقبل : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(سورة يوسف ، (الآية ١١١) ، ولكنه – في الوقت نفسه – يحرّرنا من التاريخ لكي نتمحض للحاضر ونتحرك صوب المستقبل دون أن تعيقنا وتثقل كواهلنا أعمال الأجيال الماضية : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآية ١٣٤ ، ١٤١).

ولطالما أكدت المعطيات القرآنية والنبوية على رفضها لهدر الطاقة التي تعمل أحياناً في غير مجالاتها المرسومة. إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله)[1]. إنه ها هنا يدعونا للتفكير في الخلق الذي يقود إلى العلم والتطبيق العلمي (التكنولوجيا) ، بموازاة تأكيد إبداعية الله في العالم ، والايمان بوحدانيته سبحانه وتعالى ، ويحذرنا من التفكير في الذات الإلهية التي تعلو على الأفهام ، وتستعصي على

(١) رواه ابن عمر مرفوعاً ، كما رواه بلفظ آخر كل من أبي نعيم في الحلية ، والأصفهاني في الترغيب ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في شعب الايمان ، والديلمي في الفردوس. ورغم ضعف الأسانيد فان اجتماعها يكسب الحديث قوة ، ومعناه صحيح.

القدرات البشرية ، وهو التفكير الذي يقود إلى الماورائيات والتعامل التجريدي مع " واجب الوجود " و" متناهي الأول " والميتافيزيقيا ، وما يتمخض عن هذا كله من هدر للطاقات العقلية.

إنه يريدنا أن نتعامل مع الكتلة ، أن نلتحم بها ، وأن نكشف عن طاقاتها المذخورة وقوانينها الفاعلة ، من أجل تنمية الحياة التي سخّرت إمكاناتها للإنسان للتحقّق باستخلافه العمراني في العالم ، بدلاً من هدر الطاقة فيما هو خارج عن حدودها وامكاناتها وضرورات صيرورتها الحضارية في الأرض.

ويجب – ها هنا – أن نلحظ المغزى الذي تنطوي عليه المفارقة القرآنية التي تدعونا إلى اعمال النظر في خلق السماوات والأرض ، في مئات الآيات بينما تكتفي في الحديث عن الروح بآية واحدة تتضمن تحذيراً للإنسان من هدر طاقته فيما لم يهيأ للكشف عن سرّه المغيّب المجهول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (سورة الإسراء ، (الآية ٨٥).

رفض للإفساد والتخريب ودعوة للإصلاح

ومع تأكيد القرآن على العمل والإعمار والبناء ، تنديد – في المقابل – بكل ما من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض ، وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة ، وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان العمرانية ، ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموّها ، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها تحت أي شعار كانت.

وهذه الحماية العمرانية لا تنصّب على الجوانب المادية (المدنية) من الإنجاز البشري فقط ، بل تتجه إلى ما هو أكثر أهمية ، وما يعد أساساً للإنجاز المادي نفسه ، تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية و" الثقافية " بمفهومها الشامل ، من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم ، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله (سبحانه وتعالى) إلى بني آدم.

إن الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية ، مادية وأخلاقية وروحية ، وان أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس – بشكل أو بآخر – على الجوانب الأخرى : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ... ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ٥٦) ، ﴿ ... وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة الأعراف ،

(الآية ١٤٢) ، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم ، (الآية ٤١) ، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (سورة الشعراء ، (الآيتان ٥١-٥٢) ، ﴿ . . . وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (سورة هود ، (الآية ٨٨)[1].

والقرآن الكريم لا يكتفي بالتنديد بهذه الأمور ذات الطابع السلبي ، وما تؤول إليه من افساد روحي ومادي ، ومن دمار لحضارة الإنسان ورقيه وسعادته وتقدمه ، ومن إعاقة لدوره في العالم ، كخليفة مستعمر فيه ، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن " تتحرك " لوقفه بأسرع ما تستطيع ، وبأقصى ما تطيق ، لئلا يتحول "الفساد " إلى فتنة عمياء لا ترحم أحداً ، ولا تبقي ، وهي تدوم فوق رؤوس الجماعة كلها ، ظالماً أو مظلوماً : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سورة الأنفال ، (الآية ٢٥) ، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (سورة هود ، (الآيتان ١١٦-١١٧).

إن التصور الإسلامي يرفض في موقفه من الحضارة ، أشد ما يرفض ، صيغ التجزئة والفصل وإقامة الجدران العازلة بين مساحات التجربة البشرية ، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة ، ذلك أن تجزئتها وعزل بعض جوانبها – خلال العمل – عن بعض ، ليس خطأ فحسب ، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة إذا أردنا – مسبقاً – أن نصل إلى نتائج صحيحة.

التوازن بين الثنائيات

ثمة مسألة أخرى سنطيل الوقوف عندها بعض الشيء لأنها تكاد تمثل أكثر الملامح الإسلامية أهمية في التصوّر الإسلامي للنشاط العمراني. تلك هي ظاهرة التوازن بين الثنائيات وتوحّدها.

---

(١) وتنظر الآيات : التوبة (١٠٩-١١٠) ، الرعد (٢٥) ، المائدة (٦٤) ، هود (١٩).

فلقد أكد الإسلام موقفه من النشاط العمراني من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها على كل ما هو روحي أخلاقي ومادي جسدي في الوقت نفسه. ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله أو نقرأ سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) بإزاء تأكيدات عديدة تضع الجماعة المؤمنة في قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة ، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات ... اننا بإزاء حركة حضارية شاملة ، تربط وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض ، بين مسألة الايمان ومسألة الإبداع ، بين التلقي عن الله سبحانه وتعالى والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها ، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض ، وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء وعلوم الأرض والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلو الحضاري على المستوى المادي " المدني " ، ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك. إنه يقف دائماً موقفاً شمولياً مترابطاً ويرفض التقطيع والتجزيئ في تقييم الموقف " الحيوي " أو الدعوة إليه ، ولقد انعكس هذا " التوحد " بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت القرون المتطاولة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، وأنجزت وابتكرت وكشفت ونفذت الكثير الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانباً من الجوانب المرتبطة جميعاً ، ارتباطاً وثيقاً ، بخلافة الإنسان على الأرض ودوره العمراني في العالم. وما كان لها إلاّ أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن ، نتلّمسه بوضوح من خلال آيات عديدة هذه بعض نماذجها :

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ ...﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ١٨٥) ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ۞ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ۞ وَعِنَباً وَقَضْباً ۞ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ۞ وَحَدَائِقَ غُلْباً ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ (سورة عبس ، (الآيات ٢٤-٣١) ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (سورة الطارق ، (الآيات ٥-٧) ، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ (سورة ق ، (الآيات ٦-١٠) ،

﴿ . . . انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . . . ﴾(سورة الأنعام ، (الآية ٩٩) ، ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . ﴾(سورة الروم ، (الآية ٥٠) ، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ . . . ﴾(سورة العنكبوت ، (الآية ٢٠).

إن القرآن من خلال هذه الآيات وغيرها كثير – يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة ، على مستوى الكون والعالم ، وأن يختار لنا موقعاً" تجريبياً " يعتمد النظر والتمعن والفحص والاختبار من أجل الكشف والابتكار والإبداع ، ومن أجل ألاّ نفقد توازننا الحضاري فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأساسي للوجود الإنساني على الأرض ، وهو عبادة الله والتوجه إليه أخذاً وعطاء.

ان هنالك بداهة من أشد بداهات الايمان أهمية ، تلك هي أن الله (سبحانه وتعالى) ما دام قد عبر عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة ، والإنسان والطبيعة ، فليس ثمة معنى أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء. ان موقفاً كهذا مهما كانت درجته غير مبرر في بداهات الايمان ، ولا في مقتضيات الاستخلاف. ليس هذا فحسب ، بل انه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات ، ومن ثم فهو مرفوض في التصوّر الإسلامي ابتداء.

إن كتاب الله (سبحانه وتعالى) يوجه أنظارنا في حشود آياته إلى أشد الأمور مادية وثقلاً : الطعام ، النطفة الأولى ، الأرض والسماء والجبال ، وإلى دنيا النبات والحيوان ، ويدعونا لأن نتحرك بحثاً عن سنن هذه العوالم ، وإدراكاً لأبعاد خلقها المعجزة التي لا تتحقق إلاّ بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء. ان القرآن يدعو إلى حضارة تنمو وتزدهر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية ، وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للإبداع الحضاري في مستواه الطبيعي ، المادي ، ولكن شرط أن تضبطه القيم والمعايير الآتية من عند الله (عز وجل).

إن كل آية أو مقطع قرآني يتناول مسألة طبيعية ، أو حيوية ، أو مادية ينتهي بأفعال التقوى والايمان ، والدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح. إن منطق " التوازن الحركي " الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلّمسها في القرآن بوضوح من خلال عدد كبير من آياته البيّنات ، والتي تكفل نمواً سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة ، ولا تنحرف باتجاه إحداهما مهملة الأخرى أو ضاغطة عليها ، مستخدمة ازاءها أساليب القمع والكبت ... التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدّها أفق ، ولا يقف

في طريقها تحديد صارم. انها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة وتتقدم – بعد هذا – صوب إعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه ، أو في أطراف الكون لإدراك سرّه المعجز ... هذه الفاعلية التي ما لها من حدود تقف عندها. ومن ثم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية وايصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى السماء ، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود.

إن القرآن الكريم يبيّن لنا – أكثر من مرة – أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية الجسدية علاقة صميمة ، وأن حبه لإشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تماماً كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ١٤). إلاّ أن الخطوة الحاسمة التي يخطوها الإسلام متميّزاً بها عن سائر المذاهب والنظريات ، أنه يضع أهدافاً أعلى ، وقيماً أوسع وأكثر شمولاً من مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن إشباع الحاجات الجسدية ، على ثقلها ، لأن تركيز الهدف النهائي للإنسان في الإشباع وحده ، يشدّه إلى الأرض ويلصقه بترابها ، ويبعده عن مواقع الاستشراف الايماني الشاملة الرحبة.

وفي مقابل منطق " التوازن الحركي " الذي يؤكده الإسلام ، ويدعو المؤمنين إلى التشبث به والتحرك وفق مقاييسه الموضوعية العادلة ، تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية ، مهملة الروح ، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية ، شذوذاً وانحرافاً لأنها تزوير وتزييف للموقف البشري في العالم ، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين قيم الروح وقيم المادة على السواء. ولن تكون نتيجة ها الانحراف الذي يأخذ في الحالة الأولى اتجاهاً مادياً صرفاً ، أو علمانياً يفصل بين شؤون الدين والدنيا ، ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهاً مثالياً هروبياً يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض. لن تكون نتيجة هذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي والنفسي ، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي فيصيبه هو الآخر بالتشتت ، وفقدان الهدف ، والإحساس المدمر بالعبثية وباللاجدوى وبزيادة نزعات التشاؤم والعدمية ، وهي مسائل تبلغ – بتصاعدها المستمر – درجة من الحدة تجعل الفعل الحضاري عاجزاً عن الإبداع والانجاز وتقوده إلى التدهور والانهيار.

الوفاق مع العالم

إن هذه المسألة تنقلنا إلى ملمح آخر لا يقل أهمية ، ذلك أن الإسلام في تصوّره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطاً جديداً ، يقوم على الوئام والانسجام والتكامل والوفاق ، والتجانس والالتحام ، ين الإنسان والطبيعة ، بين الجماعة المؤمنة والعالم. فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخّرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم ، فان العلاقة بينهما ليست – بالضرورة – علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء ، انما علاقة انسجام وتقابل وتواصل وتعاون ، وتكامل وكشف وتنقيب ، انها علاقة الخادم المطيع بالسيّد القدير. انه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه ، او يستفزه ، أو يرفع السلاح في وجهه ، انما " يستخدمه " بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعاً في أجواء تسودها علائق الطاعة والإبداع.

إن الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية صرفة ، وهي مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة ، فاننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها ، سنعثر على منطق الصراع الذي تقوم عليه معطياتها. صراع يضعه (هيغل) في عالم الفكر ويبرّر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوربي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة. ويضعه (ماركس) في ميدان التبدلات المادية لوسائل الإنتاج والبنى الطبقية التي تنشأ عنها ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة. أكثر من هذا ، انه يجرد الإنسان في قلب هذا الصراع من حريته وإرادته ، ويجعله تابعاً مطيعاً لمنطق الصراع المادي هذا ، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده حتى في أشد ممارساته بعداً عن المادية : الدين والفن والأخلاق ...

التصوّر الإسلامي يرى أنه ما دامت قوى العالم قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً ، فان علاقتنا بها ليست – بالضرورة – علاقة صراع وتناقض ، انما هي محاولة الكشف والتنقيب للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان والعالم.

رؤية القرآن التحريرية ودورها العمراني

وثمة أخيراً وليس آخراً الميزة التحريرية للإسلام ، بما أنها واحدة من أكثر الميزات أهمية في مجال الفاعلية العمرانية ... فلقد كان الإسلام منذ اللحظة الأولى عملاً تحريرياً ، وعلى المستويات كافة ... تحرير الإنسان من الضلالات والأوهام والطواغيت والأرباب ، ومن الخوف والجهل والأمية ، ومن الخضوع للفوضى والانحناء للصدفة العمياء ، والاستسلام للظنون والأهواء ... إنه دعوة ملحة لتحرير رغبات الإنسان وحاجاته الجسدية وأشواقه الروحية ، وفتح

الطريق أمام دوافعه الإيجابية كافة. وهذا التوجه يمثل ولا ريب امتداداً لرؤية الإسلام التوازنية الأصيلة التي مرّت بنا خطوطها العريضة قبل قليل.

إن إحدى الآيات القرآنية تتحدث بصراحة عن " الزينة " آمرة بني آدم أن يمارسوها ، وأين ؟ عند كل مسجد حيث يتجرّد الإنسان وينسلخ عن زخرف الحياة الدنيا : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ٣١) ، تعقب ذلك دعوة صريحة – أيضاً – إلى الأكل والشرب شريطة ألاّ يبلغ ذلك حد الإسراف : ﴿ . . . وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ٣١). ثم ما تلبث الآية التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ٣٢).

إن المحرم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة ، أياً كان مصدرها ، الجسد أم الروح ، وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار موجّه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد ، وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح !! اننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك ، وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ٣٣).

وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض اتباع الديانات المنحرفة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلّها الله ، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى التمتع بالطيبات دون إفراط أو تفريط ، وإلاّ لم كان خلق الله سبحانه وتعالى لها ، وتفجير خيراتها ، وتنويعها في أنحاء الأرض ؟ ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ . . . ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ٩٣) ، ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا . . . ﴾ (سورة الأنعام ، (الآية ١٥٠) ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ ﴾ (سورة يونس ، (الآية ٥٩).

بل اننا نجد في الآية التي تقول : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . . ﴾(سورة النساء ، (الآية ١٦٠) أن كبت بعض جوانب الغريزة ، أو الحدّ من إشباعها القائم على ضرورة التنويع ، يجيء بمثابة " عقاب " وليس – كما قد يتصوّر البعض – قاعدة من قواعد الدين ، بل على العكس إن إحدى أساسيات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم ، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعاً : طعاماً وشراباً وجنساً ومسكناً وملبساً ، وأن التحريم مسألة استثنائية محدودة المساحة ضيقتّها ، حتى أن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كذباً وافتراءً على الله : ﴿ . . . وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ . . . ﴾(سورة الأنعام ، (الآية ١٤٠) ، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ . . . ﴾(سورة النحل ، (الآية ١١٦).

ويحذّر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله سبحانه وتعالى وهو أدرى به : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ . . . ﴾ (سورة المائدة ، (الآية ٨٧) ويبين لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية أن يجيئوا لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها ، ويقفوا بمواجهة التزوير. وها هنا في مجال الحاجات الغريزية يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى لكي يمضي الإنسان المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضرورات : ﴿ . . . وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ (سورة آل عمران ، (الآية ٥٠) ، ﴿ . . . وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ . . . . ﴾ (سورة الأعراف ، (الآية ١٥٧).

وثمة نداء يرفعه القرآن الكريم لبني آدم في مواضع كثيرة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا . . . ﴾(سورة البقرة ، (الآية ١٦٨) يقودنا إلى بديهية أخرى ، كثيراً ما غفلنا عنها ، لشدة وضوحها وظهورها. تلك هي ان الله (سبحانه وتعالى) قد " سخر " لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي من أجل أن نواصل مسيرتنا لإعمار العالم وعبادة الله وحده ، وإنه لمن التناقض المكشوف ، المرفوض في المنطوق القرآني ، أن يركب الإنسان – من قبل خالقه – تركيباً معيناً ، وان تسخر الأرض – بإرادة الله جل في علاه – لتلبية متطلبات هذا التركيب ، ثم

تجيء الأديان – من عند الله أيضاً – لكي تنصب الحواجز ، وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة ونعمها التي لا تعد ولا تحصى.

إن هذا التناقض انما يجيء على أيدي طبقات " رجال الدين " الدين يقوم دورهم على التزييف ، ووضع الحواجز ، ونصب العراقيل في دروب الاتباع من أجل أن تضطرهم للجوء إليها ، وطلب معونتها ، قبل السماح لهم بالتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، وهنالك يبدأ الاستغلال والابتزاز الأكل بآيات الله ثمناً قليلاً. وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه بتأكيده على تحقيق الانسجام والوفاق بين الإنسان والعالم ، وعلى مبدأ الطريق المفتوح إلى الله سبحانه وتعالى.

خاتمة

هنالك مقولة معروفة لدى دارسي الحضارات ، وهي أن أية حضارة مرهونة بشروطها التي تشكلت بها أوّل مرة ، فإذا غابت هذه الشروط ، أو تعرّضت للتآكل ، انهارت معها الحضارة ، ولن يكون بمقدورها النهوض كرة أخرى.

ولحسن الحظ ، فان شروط انبعاث الحضارة الإسلامية حاضرة دوماً في أي زمن أو مكان ، لم تتعرض لتآكل أو غياب ، لأنها قائمة في كتاب الله (عز وجل) الذي وعد (سبحانه وتعالى) بحفظه ، وفي سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) التي سهر الأجداد على تمحيصها وحمايتها.

ويدهش المرء وهو يرى العديد من دعاة الإصلاح والنهوض يغمضون أعينهم عن هذه الحقيقة ، ويلجأون إلى " وصفات " أخرى غير الوصفة القرآنية ... وصفات مهجنة لا هي شرقية ولا غربية ، كما أنها ليست عربية ولا إسلامية ... فكان هذا الذي كان من دوران الأمة في الحلقة المفرغة دون أن تجد سبيلها للنهوض من كبوتها التي طال عليها الأمد.

ولسوف تمرّ عقود وربما قرون أخرى ونحن نعاني التخبط في (التيه) ما دمنا قد أغمضنا أعيننا عن طريق الخلاص ... وطريق الخلاص واحدلا يتعدد أو يتشعب : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام ، (الآية ١٥٣).

لعلكم تتقون ... فليس ثمة قبلها أو بعدها أي مجال لمماحكة أو جدل على الاطلاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

مفارقة الإنسان والتقدم : رؤية مقارنة

محاضرة مقدمة إلى المؤتمر العالمي التاسع الذي عقد في إسطنبول في الأيام (٣-٥ أكتوبر ٢٠١٠م) تحت عنوان : (العلم والايمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية : مقاربة لرسائل النور)

أيها الحضور الكرام ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من زوايا ثلاث يعالج كل من الكاتب الروماني كونستانتان جيوروجيو في رواية (الساعة الخامسة والعشرون) ، ورجل القانون الفرنسي مارسيل بوازار في (إنسانية الإسلام) ، والنورسي في (رسائله) إشكالية المفارقة المحزنة بين الإنسان والتقدم.

ولطالما تساءل المتسائلون : أما كان يتحتم على التقدم العلمي والمعرفي أن يكون في خدمة الإنسان ، كائناً متفرداً أنيطت به مسؤولية كبرى ، وأن يسير جنباً إلى جنب مع مطالب هذا الكائن المتميز المسؤول ، ويستجيب لأشواقه وحاجاته كافة ... بمعنى ألاّ يقتصر على تلبية مطالب الحسّ ، بل أن يغطي كل ما يهّم الإنسان في هذا العالم من أجل أن يحيا حياة متوازنة ، متوحدة ، آمنة وسعيدة ؟

ما الذي حدث لكي يمضي التقدم ، أبعد من هذا ، فيلحق بالإنسان ، والحياة البشرية المزيد من المنغصات والمتاعب ، ويجرّدها شيئاً فشيئاً من عمقها الحقيقي ، ويضع بينها وبين أهدافها المشروعة الحواجز والأسلاك الشائكة ؟

جيوروجيو وبوازار والنورسي يقفون طويلاً عند هذه الظاهرة غير المبرّرة ، فيسلطون الأضواء عليها ، ويقترحون سبلاً للخروج من الورطة. أحدهم برؤية أديب ، والآخر برؤية قانون دولي ، والثالث برؤية مفكر موسوعي يملك رؤية طائر View of Bird يضع العالم كله تحت المنظور.

ولسوف نجد كيف يلتقي هؤلاء الثلاثة في نقاط الارتكاز الأساسية للمفارقة ، وفي العديد من الحلول والمرئيات.

إنها أزمة تضيّق الخناق على الإنسان ، بينما كان المفروض أن يحدث العكس ، فلماذا ؟ ومن ثم غدت قضية جل فلاسفة العالم المعاصرين ، وحكمائه ومفكريه وكتابه وأدبائه.

ولن يتّسع المجال في محاضرة محددة كهذه أن تلاحق معطيات هؤلاء جميعاً ، ولذا سيتم الاكتفاء بثلاثة فحسب ، وهذا يكفي ، لأن ما قدّموه يضع يده على الجرح ، ويقدم جانباً من أسباب العلاج.

١-كونستانتان جيوروجيو

في رواية الكاتب الروماني كونستانتان جيوروجيو : (الساعة الخامسة والعشرون)[١] ، تبدو أزمة الحضارة الغربية واضحة للعيان ، إن مآسيها تعرض علينا كما لو كنا نشهد مسرحية حاضرة : الإنسان الذي سلبت حريته وأدخل في دوّامة من آلية قاسية أحالته إلى (رقيق) وأفقدته حريته وإرادته الذاتية ، (المواطنون) الذي ملأوا الشوارع ودور الحكومة والمؤسسات في جماعية سحقت كل ما هو فردي ، وتشابهية دمرت كل إمكانية للتنوّع والإبداع ، وتعميمية محقت كل اتجاه شخصي ، ومادية ردمت كل منابع الحب والايمان في وجدان الإنسان.

النظم الصارمة التي أوجدت جحراً خانقاً بات لا يصلح للتنفّس ... الصراع من أجل تأكيد أكثر للآلية ، واستعباد أشد للإنسان ، وتحطيم أعنف للقيم ، وتجفيف لا يرحم لمنابع الوجدان.

كل منكم سيصرخ ، بعد مشاهدة منظرين أو ثلاثة من مسرحية الحضارة المعاصرة هذه " الآن لست أريد متابعة النظر ، لأنني تعبت ولأن المشهد طال أكثر من المعتاد ، انني – إذا استمريت على المشاهدة – فسوف لا أرى إلا الأنقاض. سأرى مدناً متهدمة ، ورجالاً متهدمين ، وبلداناً وكنائس وآمالاً كلها متهدم محطّم "[٢].

صحيح أن جيوروجيو يعالج في روايته هذه مأساة الإنسان الغربي في النظم الشمولية ، أممية كانت أم قومية شوفينية ، إلا أنه – وكما سنرى – لا يغفل عن إدانة النظم الرأسمالية بما تنطوي عليه من آلية وذرائعية ساقت الإنسان هي الأخرى إلى التعاسة والعذاب.

إن جانباً من الأدب الغربي اليوم –وبخاصة الرواية والمسرحية – يشكل أهمية كبرى في أية دراسة جادة للحضارة الغربية المعاصرة ، لأنه يعكس ، بصدق فني مدهش ، الأزمة التي تعانيها هذه الحضارة في جناحيها الجماعي والفردي ، والضغوط القاسية التي تسلطها على الإنسان فتمزقه وتسحقه. إن ردود الفعل التي يجابه بها الإنسان الغربي المعاصر حضارته المتأزمة هذه ، تبدو واضحة للعيان عبر عدد كبير من الروايات والمسرحيات التي كتبها أدباء وفنانون كبار أدركوا جوانب عميقة من الأزمة ، وكلهم بلغ درجاتها الدنيا ، وجاس في سراديبها وكهوفها ، وما أن وصل بعدها الأخير حتى غطاّه الظل وأغرقه الظلام[٣] ، فهل ننتظر نحن منه أن يجد لنا مصدر الضوء ، ويدلنا على طريق الخروج ؟

---

(١) ترجمة : فائز كم نقش ، الطبعة الثالثة ، دار اليقظة العربية ، (دمشق-١٩٦٦م).

(٢) الساعة الخامسة والعشرون ، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٣) عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت-١٩٧٥م) ، ص ١٧٦.

إن ما تقدمه لنا هذه الآداب والفنون يقتصر على الخطوة الأولى : تحديد ملامح المأساة ، أما الخطوة التالية التي ترسم لنا طريق الخلاص ، فما ينتظر من هؤلاء أن يتقدموا إليها ، لأنهم ليسوا (على شريعة من الأمر) ، وهي خطوة تلقي مسؤوليتها العظمى على أعناق أولئك الذين حملوا أمانة (الكتاب) !

لماذا (الساعة الخامسة والعشرون) ؟ جيوروجيو يجيبنا على هذا السؤال " إن الجو بات لا يصلح للتنفّس ... ان الجو بات خانقاً ... الجو الذي يعيش فيه المجتمع الحاضر. إن الكائن البشري لن يستطيع احتماله. إن البيروقراطية والجيش والحكومة والتنظيم الحكومي والإدارة ، كل هذه الأشياء تساهم في تسميم الجو ليخنق الإنسان. ان المجتمع الحاضر يستخدم الآلات والرقيق العنصري. لقد خلق من أجلها. ولكن الإنسان محكوم عليه بالاختناق غير أن بني الإنسان لا يشعرون بذلك ... لقد وضعت في روايتي الطريقة التي يموت بها رجال هذه الأرض الذين يحيون في عذاب مريع وقلق قاتل ، تخنقهم الأجواء غير الصالحة للحياة "[1].

إن التقدم التقني الذي أحرزته الحضارة الغربية ، لم توجهه قيم الدين يوماً ، بل إنه انطلق أساساً وأخذ طريقه يوم أعلن العلم انتصاره على الدين – أو هكذا يتوهمون – فلا تعجب – إذن – إذا ما تضاءل الإنسان يوماً بعد يوم إزاء هذا التضخم الآلي ، لأنه فقد الايمان بكرامته ، وغض بصره عن التطلع إلى قيم علوية ، وسجد للآلة ، ولأوّل مرة يقدم كاتب غربي تحليلاً رائعاً يتميز بالجدة والحيوية لهذه العلاقة غير المتكافئة بين الإنسان والآلة.

إن سيطرة الآلية على الحضارة الغربية قوّض قيماً وأوجد أخرى. سحق مكتسبات قرون طويلة من القيم الخلقية والاجتماعية والنفسية والروحية ، وأحلّ محلها قيماً منتزعة من روح الآلة الصّماء وعلاقاتها الرتيبة وتجريدها المّيت. وها نحن نجد هذا التقابل المحزن بين نوعين من القيم في الحضارة المعاصرة : الجماعية ضد الفردية ، التشابه ضد التنوّع ، التعميم ضد التخصيص ، المادية ضد الروحية ، الرمزية ضد الشخصانية ، القدر ضد الحرية ، التجريد ضد الحياة ، التكرار ضد التطوّر الخلاق ، الموضوعية ضد الذاتية ، والظاهر ضد الباطن " أن ظهور العصر التقني قد حطم كل ما ربحناه وأقمناه خلاق قرون من الحضارة. لقد أدخل العصر التقني من جديد احتقار الكائن الإنساني ... لقد تحول الإنسان اليوم إلى مقياسه الاجتماعي فحسب "[2].

---

(١) الساعة الخامسة والعشرون ، ص ١٨٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢.

والفردية والتنوّع هما جزء أصيل من قدر الله وخطته المعجزة لتكوين الحياة وتحريكها وتطويرها الأبدي الخلاق ، لذا فان ما تشهده الحقبة الحاضرة من التاريخ يمثل انحرافاً كبيراً عن نواميس الكون والبشرية " إن البشر بهذا الشكل يخطئ خطيئات خطيرة ويعتبر مذنباً حيال الله. اننا نعمل بكل قوانا ضد خيرنا الخاص وضد الله (سبحانه وتعالى) وذلك هو آخر منحدر بلغت إليه الكتلة البشرية. وفي يوم من الأيام سوف ينقرض هذا المجتمع كما انقرضت مجتمعات كثيرة خلال حقبات التاريخ "[١].

إن اعتماد الغرب على الأساليب الرياضية والمنطقية والإحصائية في توجيه الحياة وتطويرها لن يحقق إلا كمالاً ظاهرياً ، ولكن هذا سيكون على حساب الحياة الباطنية ، الحياة في مجاريها الحقيقية العميقة التي تصنع الحضارة وتوجّه التاريخ وتسير بالبشرية إلى الأمام. إن ردم هذه المنابع الباطنية سوف يقضي على سر التطور الذي وهبه الله للإنسان ، ومن ثم فان هذا الكمال الاجتماعي السطحي سوف يمتد أفقياً فحسب ، ويفقد – بالتدريج – قدرته على الامتداد العمودي ، صوب البعد الثالث في الإنسان. وهذا يعني أنه تطوّر مأسور بقيود الزمن ، وان المستقبل سوف يشهد تحطماً مريعاً لمجتمع يركن إلى القيم الجماعية الظاهرة في تماسكه " إن حياة الإنسان لن يكون لها وجود في اللحظة التي تنقلب فيها إلى الجماعية والآلية ، وإلى قوانين تتعلق بالآلة. ان هذه القوانين لا يمكن مطلقاً أن تعطي لوناً لحياة البشرية "[٢].

والحضارة المعاصرة ، بعد هذا ، لا تمتلك عناصر البقاء ، انها فضلاً عن ماديتها الطاغية ، وآليتها الرتيبة ، وقياسها التجريدي المّيت ، وفضلاً عن اتاحتها المجال لظهور أبشع وأقسى طبقتين في التاريخ : الرقيق التقني والمواطنون ، سيطرتا على مقدرات الإنسان وعرضتا وجوده للاختناق ، وفضلاً عن اتفاق الغرب والشرق على تحطيم قيم الإنسان ومثله ، وسحق وجدانه وردم منابع عاطفته ووحيه وإلهامه ، فضلاً عن هذا وذاك فهي حضارة التكاثر الذي يحيل الحياة إلى لهاث دائم وتفتيش لا نهائي عن الذهب : " سوف تنتزعون الحياة غداً بحثاً عن الذهب تحتها ، ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثاً عن الذهب ، وبعدئذ تحطمون العظام لتنظروا ما إذا لم يكن فيها شيء من الذهب ، وأخيراً تضغطون على أدمغة الرجال ، وتفتشون في أمعائهم ، وتمزقوهم إرباً بحثاً عن الذهب. ستحطمون القلوب وتجزؤونها بحثاً عن الذهب ...

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٥٢.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥٤–٤٥٥.

الذهب الذهب ! إننا اليوم في البداية : انكم لا زلتم تبحثون فوق الجلد ، لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر "[1].

الحضارة التي ولغ فيها الإنسان في الدماء حتى غدا شيطاناً مريداً : " له وجه إنسان ولكنه ليس إنساناً. إنه الشيطان ، إنه يشبه الإنسان بكليته باستثناء الروح. لقد بلغ الآخرون جميعاً في الدم ، وهم الآن كالعفاريت : انهم ليسوا بشراً ... لم يبق بين كل هؤلاء رجلاً واحداً يمكن أن يكون إنساناً "[2].

هل ثمة من أمل ؟ الغربيون عندما يصلون إلى هذه النقطة يحلمون ، وتمتد رؤاهم إلى مستقبل يخرج فيه الإنسان من المأزق. كيف يتم ذلك ، وفي أي طريق ؟ انهم هم أنفسهم لا يعرفون. وهذا أمر طبيعي لأي إنسان لا يتلقى عن الله. كثيرون هم أصحاب الأحلام ، وكثيرون هم أولئك الذين رسموا لنا أحلامهم في (يوتيوبيات) وعوالم مثالية لم يتح لأي منها أن يجد طريقه إلى التحقّق ... من عهد أوغسطين – حيث فقدت المسيحية روحها وقطع الإنسان صلته الحقيقية بالله – وإلى عهد كاتبنا الروماني هذا ، عبر أحلام (سافونا رولا) و (توماس مور) والاشتراكيين الطوبائيين ، و(نيتشه) و(اشبنغلر) و(توينبي) وغيرهم كثيرون. ذلك أن المصدور لا يشفي الرضى ، والأعمى لا يهب النور للمتخبطين في الظلمات ... إن هنالك طريقاً واحداً للخلاص ذلك الذي جاء الأنبياء (عليهم السلام) ليمهدوه للبشرية ، وجاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليضع معالمه الأخيرة ، ذلك هو طريق التلقي عن الله والإسلام المطلق لألوهيته وحاكميته. هذا إذا كنا نريد خلاصاً حقيقياً وإلاّ فستظل الأحلام تخدرنا عن الرؤية الحقيقية ، وتقعد بنا عن بذل الجهد والتشمير للكفاح.

وثمة سؤال ملح يفرض نفسه هنا وهو أن الحضارة الغربية المعاصرة تمثل قمة ما أحرزته البشرية من تقدم علمي وتقني ، فهل يعني نقد هذه الحضارة رغبة سلبية في التخلّي عن هذه المكتسبات ؟

إن سؤالاً كهذا لا مبرر له على الاطلاق. أولاً لأن هذه المكتسبات هي حصيلة تاريخ طويل من الكد والجهد المضني أسهمت فيه كل الأمم والحضارات وهو ليس حكراً على المجتمع الغربي. ثانياً أن هذه المكتسبات العلمية والتقنية هي في حدّ ذاتها حيادية الطابع ، إذ لا عقل لها ولا إرادة ولا روح لكي تتحكم في مصير البشرية ، وانما الذي يعطيها التوجه صوب هذا الطريق أو ذاك هو عقل الإنسان وإرادته ورؤيته للكون والحياة والإنسان ، بمعنى آخر أن الفلسفة التي

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٧٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤١٤–٤١٥.

تصدر عنها الحضارة المعاصرة هي السبب في هذه الوجهة المدمرة التي تتجه إليها القوة الصناعية في العالم. ثالثاً لأن الإسلام يجعل الحرص على التقدم ، واستغلال قوى الطبيعة ، واحتضان المكتسبات العلمية ، واجباً محتماً على المسلمين : دولاً وجماعات ومؤسسات وأفراداً ، ولكنه لا يسمح أبداً بأن يستعلي (شيء) في الأرض – غير الله سبحانه وتعالى – على الإنسان الذي كرمه خالقه وحمله في البر والبحر ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا. ومن ثم تبدو مأساة الحضارة المعاصرة في أنها أخضعت الإنسان للأشياء فأشعرته بالدونية ، واستعبدته ، وكان لابدّ من العقاب.

٢ –مارسيل بوازار

إن ما يعانيه الإنسان في البيئات التي رفضت الايمان ، أو عزلته عن مجرى الحياة الواقعة من تعاسة وازدواج وتمزق وشقاء نفسي وروحي وعاطفي واجتماعي ، رغم ارتفاع منحنيات الإنجاز المادي ، أمرٌ ملحوظ ينطق به واقع الحال هناك ، وتؤكده شهادات المفكرين وإعلامهم، الذي يمكن للمرء أن يلتقي به صباح مساء في عصر المعلوماتية والتواصل السريع.

ثم ان هذا النشاط العلمي المنشق عن مطالب الايمان اندفع باتجاه اغراءات القوة والتسلّط ، ونداء الأنانيات العرقية والدولية والمذهبية ، ومضى أبعد من هذا باتجاه كل ما هو لا أخلاقي في السلوك البشري لكي يحول المنجزات والكشوف العلمية إلى سلاح يشهر بوجه الإنسان وليس لصالح الإنسان.

إن إنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية ، والأسلحة الكيمياوية والجرثومية ... الخ ... واستعمالها في اللحظات الصعبة ليؤشر بشكل واضح على الكارثة التي يمكن أن يساق إليها الإنسان والبشرية ، إذا أتيح للعلم أن يظل على جموحه ، على خروجه عن مطالب الايمان العليا ، على عدم انضباطه بالقيم والموازين الإلهية العادلة التي تجعل القوة والحكمة – دوما – في كفتي ميزان.

هذا إلى أن المعرفة المؤمنة ، على خلاف المعرفة اللادينية أو الملحدة ، تسعى لأن تمنح أكلها للناس كافة ، لا تحكمها أنانية الحفاظ على السّر ، وحجب الاكتشاف – بدافع براغماتي – عن الآخرين ، إن الإنسان ، مطلق إنسان ، هو المستفيد في نهاية الأمر من المعرفة المؤمنة ، وبالمقابل فان عشرات من الأمم والشعوب لم تحرم بالمعرفة اللادينية من حقها المشروع في الإفادة من ثمار هذه المعرفة فحسب ، وانما وجهت نتائجها وكشوفها إلى أسلحة فتاكة لتدمير هذه المجتمعات واستعبادها والهيمنة على مقدراتها.

والباحثون الغربيون أنفسهم انتبهوا إلى هذا ، وقدموا شهاداتهم بهذا الخصوص ، والتي تجيء كاعتراف حر مدعم بالقناعات العقلية ، وموثق بالرؤية المقارنة لما يتضمنه الإسلام من قيم وخصائص متميزة ، وفعالة ، يمكن أن تمارس دورها في صياغة حاضر الإنسان ومستقبله ، وأن تردم الفجوة في مفارقة العلم والتقدم.

إن هذا الدين ، كما يقول (مارسيل بوازار) رجل القانون الفرنسي المعاصر " يعود إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع "[١] ، ولطالما أعرب عن اقتناعه " بأن في وسع العالم الإسلامي – من بين عوالم أخرى – أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب "[٢] ، وأنه " يبدو أحد العوامل الممكنة الهامة في الإنسانية العالمية الحديثة ... وهو مستمر في البحث عن الأشكال الكفيلة بالتعبير بصورة ملائمة عن تطلعاته "[٣]. والمسلمون ، كما يؤكد الرجل ، " لا يشكون على الاطلاق في أن التعاليم المنزلة والقيم المتراكمة عبر العصور كفيلة بتقديم حل لمعضلات العالم المعاصر "[٤].

ولم يفت (بوازار) أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية ، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان. ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المعرفي المادي يمكن للإسلام " أن يؤدي دوراً حقيقياً في تنظيم العالم المعاصر عندما يتقدم إليه بمفهومه السامي للقيم الخلقية "[٥].

وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضاً في نظر (بوازار) في التوازن الذي يمنحه الإسلام ، بما أنه تعبير عن روح ديني ، لمسيرة المجتمع البشري ، بين التقدم المادي (التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة ... لاسيما وأن " الانخراط في المجتمع التكنولوجي ، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية ، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله سبحانه وتعالى ، متوجباً عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل "[٦].

---

(١) إنسانية الإسلام ، ترجمة : عفيف دمشقية ، الطبعة الأولى ، دار الآداب ، (بيروت–١٩٨٠م) ، ص ٤٣١.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٣٩.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٨٧.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٣٠–٣٣١.

(٥) المرجع نفسه ، ص ٣٦٩.

(٦) المرجع نفسه ، ص ٣٨٧–٣٨٨.

إن (بوازار) يضع يده ها هنا على واحدة من أهم خصائص المنظور الإسلامي للنشاط الحضاري. إنها معادلة التوازن الملّح والمطلوب بين الديني والدنيوي ، بين السماء والأرض ، وبين الروح والجسد. فليس ثمة ايمان متحقق في واقع الحياة إن لم يعبّر عن نفسه في إطار نشاط تتداخل فيه وتتوحد وتتناغم سائر الثنائيات. فالمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية بالتالي ، ليست مواجهة أضداد متقابلة ، بل هي مقاربة واحتواء وتوظيف للقدرات والإمكانات التقنية من أجل تكوين حياة إسلامية أكثر أصالة وتقدماً. إن القناعة الدينية كما يستنتج (بوازار) " تفرض نفسها حكماً مطلقاً على كل المستويات ، ولا يمكن بدونها ، أو بالحري على النقيض منها ، مواجهة أي تغيير اجتماعي ولا أي تجديد مادي "[١].

وهذا الارتباط المحتوم بين الدين والتكنولوجيا في المنظور الإسلامي ، لا يعني البتة أن الحضارة الإسلامية ستقود " تطورها داخل انبيق " ، وبمعزل عن العالم ، بل على العكس تماماً ، فان هذه الحضارة " المتسامحة والمنفتحة بشكل طبيعي ، تتطلع إلى العمل بصفة شريك فعال في الحياة الدولية "[٢]. ويكفي أن نتذكر الجنوح المادي الذي تعانيه حضارة الغرب ، يكفي أن نفكر في احتمالاته المنذرة بالخطر ، المتوعدة لأماني الإنسانية ، وللإنسان ذاته ، لكي نعرف أن دخول الإسلام إلى الساحة ، وإعادته الأمر إلى نصابه بتحقيق التوازن المطلوب ، ليس مجرد مشاركة فعالة ، وانما هو عملية إنقاذ للوضع البشري المنحرف عن الصراط.

وإذ يؤكد (بوازار) ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من " ثقة مطمئنة ، وحافز قوي في وقت معاً " فانه يحذّر من " أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية " لا تجيء به الأماني والأحلام وانما هو " رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم "[٣].

و(بوازار) يشير إلى احتمال قيام نهضة مستقبلية في عالم الإسلام تستمد مقوماتها " من طابع الرسالة الإسلامية الإجمالي وأثره الحاسم في وجدان المسلمين " ولكنه مرة أخرى لا ينسى أن يشير – كذلك – إلى أن نهضة كهذه قد تتضمن اليسر والعسر " في آن معاً " ، ويعتبر هذه المسألة " بديهية " يتحتم أن " يدركها المسلمون تمام الإدراك "[٤].

و(بوازار) محق في هذا لأنه ينظر إلى المسألة من جانبيها ، فلا يسدّ الطريق أمام احتمالات المستقبل ، ولا يمنّي المسلمين بحلم سهل تصير فيه المعجزة أمراً مشهوداً وهم قاعدون. انما لا ينسى (بوازار) أن يعيد تأكيده المرة تلو المرة على أن نهضة كهذه تظل

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٨٨.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٨٩.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٧٤.

مشروطة ببعدها الديني ، ذلك " أن الإسلام الراشد يرفض فصل الروحي عن الزمني "[١] ، وبالتالي فان أية محاولة لبناء نهضة على أساس لا ديني ، سيؤول إلى الفشل لأنه لا يعدو أن يكون تزييفاً على السطح ، عملاً مصطنعاً لا يحاول أن يمدّ جذوره في الأرض فيسهل اقتلاعه ... بينما يظل الإسلام وحده " بداينا ميته كفيل بإقامة مجتمعات جديدة "[٢]. وما يزيد إسلامية الصياغة المستقبلية للنهضة المنشودة تأكيداً ، أن المسلمين ، كما يلحظ (بوازار) " يعون الاضطراب النفساني الذي تعانيه الحضارة الصناعية والمادية ، ويثقون في الإمكانات الاقتصادية المستقبلية للدول الإسلامية " ولذا يجدون أنفسهم في الطريق " للحصول على ضمانة ذاتية تسهل لهم اكتشاف أشكال سياسية واقتصادية أصيلة متوافقة مع روح التنزيل بشأن الجماعة ، ويكون تطبيقها بالتالي أيسر على صعيد الممارسة العملية "[٣].

والمسلمون ، كما يؤكد (بوازار) "لا يشكون على الاطلاق في أن التعاليم المنزلة والقيم المتراكمة عبر العصور كفيلة بتقديم حل لمعضلات المجتمع المعاصر بإعادة بناء مؤسسات الإسلام السياسية وإنعاش أصالته الخلاقة. ويبدو أن (الإسلام) يشكل أفضل الوسائل الممكنة لإعادة بناء مجتمع ما بعد الاستعمار ، وتلك هي دعوته الروحية والسياسية والدولية الحقيقية"[٤].

يواصل (بوازار) تحليله فيشير إلى " أن الإسلام دين حي وداينامي يحاول إيجاد مجلى لقوته الداخلية للاشتراك في الحياة الدولية المعاصرة ، وفي مساهمته أن تكون جوهرية ، لا لأنه فقط تجربة عمرها أربعة عشر قرناً في العلاقات بين الشعوب ، بل لأنه ينقل – كذلك – رؤية أخلاقية للغاية من القانون الدولي ، معتبراً أن الإنسان في التحليل الأخير رعية من رعايا النظام وهدف أخيراً من أهدافه "[٥].

ويؤكد (بوازار) أن ليس ثمة أمام الدول الإسلامية " أي خيار بديل لبناء مستقبلها " وأن ليس على المفكرين المسلمين أن يعدّوا بناء (أيديولوجيا) فهذا أمرٌ حاصل ، انما عليهم " ان يخلصوا الإسلام من ثقل التقاليد المتراكمة فيعود كما كان في البدء : تحرير العقل وثورة الفكر الحر وتوطيد الإنسان "[٦].

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٨.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥٥.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٥) المرجع نفسه ، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٦) المرجع نفسه ، ص ٣٨٥.

العودة إلى النبع ... ذلك هو المطلوب ، دون إنكار – بطبيعة الحال – للخبرات (التاريخية) العقدية والفقهية الأصيلة التي تشرح وتوضح وتلاحق المتغيرات ، وهذه بالتأكيد ليست (التقاليد المتراكمة) التي يعنيها (بوازار). والمهم أن العودة إلى النبع هي القاعدة والمنطلق ، فهناك في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) يمكن أن نجد الإجابة على كل سؤال ، والتخطيط لكل ما هو كائن ، وما يمكن أن يكون ، على مستوى الروح أو المادة ، السماء والأرض ، الدين والسياسة معاً " ... إن الإسلام المعاصر ، بطموحه وداينامیته ، في حالة استعادة كاملة لدعوته ، ديناً منفتحاً يفرض قيماً جوهرية دائمة. وها هو ذا الإسلام الديني يمتد ويشع ، والإسلام السياسي يترسّخ ويتوطد "[١].

يمضي (بوازار) لكي يؤكد النزوع التجاوزي للإسلام الذي لا يقف أو يسكن عندما هو كائن ، بل يمضي نحو الأحسن والأعلى صوب ما يجب أن يكون. إن الإسلام – كما يلحظ الرجل – يخلق " مثالية حقيقية لأنه خضوع لنظام استعلائي ". وعندما يورد (بوازار) كلمة (حقيقية) مضافة إلى المثالية الإسلامية ، فانه يعني ما يقول على وجه التحديد ، فان مثاليات شتى حلم بها مئات الوضعيين واتباع الأديان المحرّفين ، فلم تتحقق ولم تصنع شيئاً لأنها في الواقع لم تكن (حقيقية). ها هنا حيث (الداينامية) التي (يولدها) المناخ الديني في الإسلام ، وحيث النزوع الدائم إلى فوق ، وحيث " التعبير عن المجتمع ليس تبعاً لما هو عليه وانما لما يريد أن يكون "[٢] ، كفيلة بأن تقرّب المثال ، أو تقترب منه ، فتجعل من معطياته متحققة في العالم ، متجذرة في الأرض.

ويلجأ (بوازار) إلى الخبرة التاريخية كي يؤكد ، بل يشدّد " على صلاحية الإسلام للزمن الراهن " ولكل زمن آتٍ بطبيعة الحال ، فان وراء الخبرة وتلك الصلاحية " قناعة دينية " تحمل " ديمومتها " التي تتجاوز نسبيات الزمن والمكان[٣]. وما يلبث (بوازار) أن يلخص الأمر كله بهذه الكلمات : " لسوف يستعيد الإسلام مصيره دون ريب إذا حكمنا عليه من خلال القدرة الخارقة التي أثبتها تاريخياً على التكيّف والانبعاث "[٤].

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٨٨.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٣١.

(٣) ينظر : المرجع نفسه ، ص ٤٢٢.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٤٣٢.

٣-سعيد النورسي

تمثل مفارقة الإنسان والتقدم إحدى نقاط الارتكاز في فكر النورسي ، فهو يرى أن العلم والتقدم ، والمعطى الحضاري في نهاية الأمر ، لن يحقق السعادة المرجوة للإنسان ما لم تضبطه وتوجهه القيم والتعاليم المنزلة من السماء ، حيث يلتقي الوحي والوجود بتناغم وتناسق يمنحان الفعل الحضاري مغزاه الذي يتوافق ووظيفة الإنسان في هذا العالم ، باعتباره كائناً مستخلفاً سخرّ له العالم ، وأريد منه منذ لحظات الخلق الأولى ، أن يتلقى " الكلمات " من السماء للتحقق بأمانة الاستخلاف المنضبط في هذا العالم ، وإلاّ جنحت به الجوائح وانحرفت به عن الصراط ، وساقته صوب الطرق المعوّجة ، والنهايات المسدودة ، وملأت حياته بالتعاسة والآلام والعذاب : ﴿ . . . وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (سورة البقرة ، (الآيات ٣٦-٣٩).

والنورسي في هذا ينطلق من التصورّ القرآني لمهمة الإنسان في الأرض ، ولطبيعة وظيفته الحضارية فيها ، وهو يلتقي ، بشكل من الأشكال ، برؤية (جيوروجيو) حول الإنسان المعذّب الذي ساقته الآلية المجردة عن بعدها الإنساني ، كما دفعته النظم الوضعية الكافرة والقيادات الطاغوتية الضالة إلى التعاسة والضياع. كما أنه يلتقي مع (مارسيل بوازار) في ضرورة أن ينبثق النشاط العلمي ، والحضاري عموماً، من حيثيات رؤية ايمانية تمنح العلم والحضارة مغزاهما الإنساني ، وتدفعهما لكي ينسجا معطياتهما لصالح الإنسان وليس ضد الإنسان.

والنورسي في عروضه لمفارقة الإنسان والتقدم يقف طويلاً عند الثمار التي تمخضت عن مدنية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، ولا ترعى حرمة للإنسان أو حقاً. وتعد الحروب الكبرى واحدة من أبشع هذه الثمار التي جرعت البشرية ويلات وأهوالاً يصعب وصفها ، وكان يمكن أن تتجنبها لو قدّر لها أن تضبط نشاطها العلمي والحضاري بمعايير الايمان ، وأن تلجم إغراء القوة بموازين الحكمة فلا تنفلت من عقالها وتضرب على غير هدى ، وأن تجعل الفردية والجماعية ، أو المواطن والأمة ، كفتي ميزان فلا تفرّط بأحدهما على حساب الآخر : " إن القانون الأساسي لسياسة البشرية [التي لا تستهدي بهدي الله] هو أن يضحى بالأفراد من أجل سلامة الأمة ، ويفدى بالأشخاص حفاظاً على الجماعة ، ويرخص كل شيء في سبيل حماية الوطن. فجميع الجرائم البشعة التي ارتكبت في البشرية إلى الآن انما ترتكب بالاستعمال السيء لهذه القاعدة ...

التي ليس لها حدّ معين ولا ضوابط مخصصة ... إن الحربين العالميتين قد نشبتا من سوء استعمال هذا القانون البشري الأساس فأبادت نهائياً ما توصلت إليه البشرية من رقي منذ ألف سنة ، كما سمح هذا القانون بأخذ تسعين بريئاً بجريرة عشرة من الجناة ، وأفتى بإبادتهم، كما سمح بتدمير مدينة كاملة لجريمة مجرم واحد لأغراض مستترة تحت اسم المصلحة العامة "[1].

وما يلبث النورسي أن يتقدم بالبديل القرآني الذي يضع الأمور – دائماً – في نصابها الحق "وهكذا وجدت عوضاً عن هذا القانون البشري الغادر ، القانون الأساس للقرآن العظيم ... وذلك في الآيتين : ﴿ ... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (سورة الأنعام ، (الآية ١٦٤). ﴿ ... مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ... ﴾ (سورة المائدة ، (الآية ٣٢). فهاتان الآيتان تعلمان القاعدة الجليلة الآتية : لا يؤاخذ أحد بجريرة شخص آخر. ثم أن البريء لا يضحى به – حتى من أجل جميع الناس – دون رضاه. ولكن لو ضحى بنفسه ، بإرادته وبرضاه ، فتلك مرتبة الشهادة. هذه القاعدة الجليلة هي التي ترسي العدالة الحقة في البشرية "[2]. ثم يخلص إلى القول " فما لم يؤخذ هذا الدستور قانوناً أساساً فان المجتمع البشري سيتردى برجعية وحشية إلى أسفل سافلين مثل الدمار الفظيع الذي ولدته الحربان العالميتان "[3].

ودائماً تجيء الحروب نتاجاً محتوماً للدستور الدنيوي الظالم الذي يتشبث به أهل الدنيا : " دستور الجدال والصراع وفي نطاق الحياة الفانية بأبشع صورها وأظلمها ، حتى يضحى في سبيلها بالمقدسات الدينية حصولاً على حطام الدنيا ، لذا يلقيهم القدر الإلهي في عذاب جهنم معنوية من خلال جرائمهم التي يرتكبونها "[4]. تلك هي سنة الله في خلقه فـ ﴿ ... مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ... ﴾ (سورة النساء ، (الآية ١٢٣) : ولقد أقام الغربيون الذين وضعوا بينهم وبين تعاليم السماء سدّاً ، حياتهم على مفاهيم الغلبة والصراع ، دون أن يضبطوها بموازين الحكمة والوفاق ، فكان هذا الذي كان.

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي : كليات رسائل النور ٧ ، الملاحق في فقه دعوة النور ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الأولى ، داغر سوزلر للنشر ، (استانبول–١٩٩٥م) ، ص ٣٧٦–٣٧٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٧٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٧٤.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٤٧.

ومن خلال هذه الرؤية الصائبة التي تردّ الأمور كافة إلى موازين الاستبصار بهدي السماء ، يؤشر النورسي على الأهداف الحقيقية للحرب " فهذه الحرب المدمرة ليست لأجل إحقاق الحق وإرساء الحقيقة ، ولا لأجل إعلاء شأن الدين وإقرار العدالة ، بل تستند إلى العناد والعصبية القومية والمصلحة النوعية وإشباع أنانية النفس ، فترتكب مظالم شنيعة ومآسي أليمة لم ير مثيلها في العالم "[١] ، ويضرب على ذلك مثلاً " افناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم " ... بينما الإسلام بريء بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ، ولا مع الإنسانية ، ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق[٢].

ويرى النورسي ، وهو محق في ذلك ، أن أحوال العالم الحاضرة في جوانبها السياسية والاجتماعية ، وفي حروبها بالأخص ، انما هي تجل من تجليات غضب الله النازل عقاباً لضلالة المدنية الحاضرة وسفاهتها التي مكنت في القلوب الرغبات الفاسدة المضّرة بدلاً من الحقائق الايمانية الرفيعة النافعة[٣]. ليس هذا فحسب بل أن العدالة الإلهية مضت لكي تنزل " بالمدنية الدنيئة التي أهانت الإسلام عذاباً أليماً ومعنوياً أرواها إلى درك الوحوش الجاهلين. فلقد أزالت تلك المخاوف المستمرة ، ملذات وأذواق مدنية أوربا والإنكليز مائة سنة وأذهبت عنهم نشوتهم من الرقي والتسلّط على رقاب الآخرين ونشوة الاستيلاء عليهم. فلقد أذاقتهم العدالة الإلهية ذلك الخوف الرهيب ، وقذفت على رؤوسهم قنابل الرعب والرهب والقلق والاضطراب "[٤].

والذي يقطع صلته بالسماء ، وبكلمات الله ووحيه الذي يضبط ويوجه ويرشد ، لا يمكن إلاّ أن يكون فاسداً ، والذي يزرع الشوك والحسك لن يحصد إلاّ المرّ والعلقم ، فـ : ﴿ ... مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ... ﴾(سورة النساء ، (الآية ١٢٣) ، تلك هي – مرة أخرى – سنة الله في خلقه فلقد قامت الحضارة الأوربية – كما يؤكد النورسي – على أسس فاسدة ، وأدّعت أن كل ما أتاها هو من عندها كادعاء قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ... ﴾(سورة القصص ، (الآية ٧٨) ولم تشكر ربها الذي أحسن إليها بفضله وكرمه تعالى ، ورجحت كفة سيئاتها على

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٠٣.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٩.

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١٤.

حسناتها ، حيث سقطت في الشرك بفكرها المادي الملوث. ان هذه الحضارة تلقت صفعة سماوية قوية بحيث أبادت ثمار مئات السنين من رقيها وتقدمها ودمرتها تدميراً وجعلتها طعمة للنار[١].

ومع أهوال الحروب وخسائرها وويلاتها ، سيل متدفق من التعاسات والعذاب في حضارة لا تعرف سوى اثنتين : اللذة والمنفعة ، وليس ثمة وراءهما أيما ضابط ديني أو أخلاقي على الاطلاق " إن الشباب سيذهب حتماً ، فان كان قد انقضى في سبيل الملذات ونشوة الطيش والغرور ، فسيورث آلاف البلايا والآلام والمصائب الموجعة سواء في الدنيا أو الآخرة. وان كنتم ترومون أن تفهموا بأن أمثال هؤلاء الشباب ستؤول حالهم في غالب الأمر إلى المستشفيات ، بسبب تصرفاتهم الطائشة وإسرافهم وتعرضهم لأمراض نفسية ... أو إلى السجون وأماكن الإهانة والتحقير بسبب نزواتهم وغرورهم ... أو إلى الملاهي والخمارات بسبب ضيق صدورهم بالآلام والاضطرابات المعنوية والنفسية التي تنتابهم ... إن شئتم أن تتيقنوا من هذه النتائج فاسألوا المستشفيات والسجون والمقابر ، فستسمعون بلا شك من لسان حال المستشفيات الانات والآهات والحسرات المنبعثة من أمراض نجمت من نزوات الشباب وإسرافهم في أمرهم ... وستسمعون أيضاً من السجون صيحات الأسى وأصوات الندم وزفرات الحسرات يطلقها أولئك الأشقياء الذين انساقوا وراء طيشهم وغرورهم فتلقوا صفعة التأديب لخروجهم على الأوامر الشرعية ... "[٢].

وفي ضوء المبدأ القرآني : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(سورة الأنفال ، (الآية ٢٥). يمكن أن ندرك ما يذهب إليه النورسي من أن كل إنسان في الوقت الحاضر ، على الكرة الأرضية قاطبة ، يتلقى نصيبه من المصائب الجارية إما قلباً أو روحاً أو عقلاً أو بدناً ، ويعاني من العذاب والرهق ما يعاني ، ولاسيما أهل الضلالة والغافلين عن الرحمة الإلهية الشاملة والحكمة الكاملة ، فمن حيث إنسانيتهم وعلاقتهم بالبشرية يتعذبون بالآلام الرهيبة المفجعة التي تعانيها البشرية في الوقت الحاضر فضلاً عن آلامهم في أنفسهم[٣]. " نعم ! ان هذا العصر قد جعل حتى المسلمين يستحبون الحياة الدنيا ويرجحونها على الآخرة ، على علم منهم ورغبة فيهم ، كما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ... ﴾(سورة ابراهيم ، (الآية ٣) ... "[٤]. وراحت تقاليد العصر وقيمه المادية

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٩.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٧٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٢.

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٤٦.

المنبتة عن أسباب السماء تثقل كاهل الإنسان بمتطلبات الحياة ، وتضيق عليه مواردها ، وتحول حاجاته غير الضرورية إلى ضرورية بقوة التقليد وسلطته القاهرة ، حتى أصبحت الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان الذي أقام بنزواته هذه سدّاً دون الحياة الدينية والأخروية والأبدية ، أو في الأقل جعلها أمراً ثانوياً ، لذا جوزي على خطئه هذا بلطمة قوية شديدة حولت دنياه جحيماً لا يطاق[١]. " نعم ! إن هذا العصر الذي رفعت منه البركة من جرّاء الإسراف المتزايد وعدم مراعاة الاقتصاد ، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد ، فضلاً عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش ، مما سبب جروحاً بليغة في تطلع الإنسان للعيش ، وفي نزوعه لحفظ الحياة علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة ، زد على ذلك استمرار أهل الضلالة بتوجيه كل الأنظار إلى الحياة. كل ذلك عمق تلك الجروح حتى دفع الإنسان إلى تفضيل أدنى حاجة من حاجات الحياة على مسألة ايمانية عظيمة "[٢].

والحق ، كما يؤكد النورسي ، ان الكفر والضلالة تحقير عظيم للكائنات وظلم شنيع للموجودات ، ووسيلة لرفع الرحمة الإلهية ونزول المصائب والبلايا[٣]. ليس هذا فحسب بل ان المدنية الغربية برؤيتها المادية الذرائعية الصرفة ، مارست تمزيقاً قاسياً للعديد من المجتمعات التي تنتمي إليها ما بين بورجوازيين مترفين وفقراء مدقعين ، الأمر الذي هيأ الأجواء لاشتعال صراع قاسٍ بين الطرفين تمخض عن المزيد من المصائب والويلات ، فتحت سطوة المدنية الغربية المستبدة ، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال ، والدفع إلى الإسراف ، وتهييج الشهوات ، وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية ، فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد والإدمان مفتقراً إلى عشرين حاجة بدلاً من أربع منها ضرورية. وقد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخص أن يلبوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بكل مباح ، ويبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء. فهذه المدنية الحاضرة إذا تجعل الإنسان فقيراً جداً ومعوزاً دائماً ، ولقد ساقت البشرية – من جهة تلك الحاجة – إلى مزيد من الكسب الحرام ، وإلى ارتكاب أنواع من الظلم والغبن ، وشجعت طبقة العوام المساكين على الصراع والتخاصم المستمر مع الخواص ، وذلك بهجرها القانون الأساس الذي سنّه القرآن الكريم القاضي بوجوب الزكاة وتحريم الربا والذي يحقق بواسطتهما توقير العامة للخاصة ، ويوفر بهما شفقة الخاصة على العامة. فبهجرها ذلك القانون الأساس أرغمت

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٣.

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٤.

البورجوازيين على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم ، وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرّد في معاملتهم معهم ، فدّمرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها واطمئنانها وجعلتها أثراً بعد عين[١].

باختصار شديد ، فان المدنية الغربية الراهنة ، بسبب من سلوكها طريقاً مناقضاً لأسس دساتير السماء ، وقيامها بمناهضتها ، فقد طفح سيل سيئاتها على حسناتها ، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها. فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم ، وأقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها[٢]. " نعم ! إن المدنية الدنية الظالمة قد عوقبت ، بكفرانها بالنعمة الإلهية وعدم إيفائها الشكر لله تجاه ما أنعم عليها سبحانه وتعالى من الخوارق الحضارية ، لصرفها تلك الخوارق إلى الدمار حتى سلبت سعادة الحياة كلياً ، وأردت الناس الذين يعدون في ذروة الحضارة والمدنية إلى أدنى دركات الوحوش الضالة ، وأذاقتهم عذاب جهنم قبل الذهاب إليها "[٣].

وليس ثمة منفذ للخروج من المأزق سوى (التقوى) بكل ما تنطوي عليه من خشية لله والتزام بمطالب وحيه القادم من السماء ، والتحقق بأقصى درجات الوفاق بين الايمان والتحضّر باعتبار الأخير فعلاً ايمانياً منضبطاً بمعايير العلم الإلهي " ففي هذا الوقت الذي يتّسم بالدمار الأخلاقي والروحي ، وبإثارة هوى النفس الأمارة ، وبإطلاق الشهوات من عقالها ، تصبح التقوى أساساً عظيماً جداً بل ركيزة الأسس ، وتكسب أفضلية عظيمة ، حيث أنها دفع للمفاسد وترك للكبائر ... وحيث أن التيارات المدمرة أخذت تتفاقم في هذا الوقت ، فقد أصبحت التقوى أعظم أساس وأكبر سدّ لصدّ هذا الدمار الرهيب "[٤].

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٨٧-٣٧٩.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٧٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٢.

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٦٩.

المراجع

بوازار : مارسيل : إنسانية الإسلام ، ترجمة : عفيف دمشقية ، الطبعة الأولى ، دار الآداب ، (بيروت–١٩٨٠م).

جيوروجيو : كونستانتان : الساعة الخامسة والعشرون ، ترجمة : فائز كم نقش ، الطبعة الثالثة، دار اليقظة العربية ، (دمشق–١٩٦٦م).

خليل : عماد الدين : تهافت العلمانية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت–١٩٧٥م).

النورسي : بديع الزمان سعيد : كليات رسائل النور ٧ ، الملاحق في فقه دعوة النور ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الأولى ، دار سوزلر ، (استانبول–١٩٩٥م).

قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل
وفق تصنيفها الموضوعي
أولاً : الأعمال التاريخية

محور : <u>المنهج والفلسفة :</u>

١- التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين – بيروت).
٢- حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٣- ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤- في التاريخ الإسلامي :فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٥- المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٦- دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي – عمان).
٧- المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم – بيروت).
٨- التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).
٩- مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي – الرباط).
١٠- مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي – الرباط).

محور : <u>السيرة والتراجم :</u>

١١- دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس – بيروت).
١٢- كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل – عمان).
١٣- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٤- عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٥- نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم – بيروت).

محور : <u>البحوث والدراسات :</u>

١٦- دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

١٧- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

١٨- الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام : أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة – بيروت).

١٩- الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر – دمشق).

٢٠- خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢١- محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

محور : <u>قضايا في التاريخ المعاصر :</u>

٢٢- ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٣- لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٤- أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٥- مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٦- الرؤية الآن : في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٧- أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة – بيروت).

٢٨- مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر – دمشق).

٢٩- أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

ثانياً : الأعمال الفكرية

محور : <u>المنظور الإسلامي للمعرفة :</u>

١- أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٣- العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٤- مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٥- تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

محور : <u>المنظور الغربي للإسلام :</u>

٦- قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٧- القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان – عمان).
٨- المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان – عمان).
٩- الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١٠- نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس – بيروت).
١١- غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).

محور : <u>البحوث والدراسات :</u>

١٢- مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين – بيروت).
١٣- حوار في المعمار الكوني : وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١٤- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٥- مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٦- متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة – لندن).
١٧- كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٨- الله أو الطاغوت : مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
١٩- رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (طبعة واحدة).
٢٠- محاضرات إسلامية (قيد النشر).
٢١- أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).
٢٢- دراسات قرآنية (قيد النشر).

محور : <u>المقالات الإسلامية :</u>

٢٣- آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين – بيروت).
٢٤- مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٢٥- في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٢٦- في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
٢٧- من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
٢٨- العالم ينتظر البديل (طبعة وحدة).
٢٩- آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).
٣٠- أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

ثالثاً : الأعمال الأدبية

محور : <u>الدراسات الأدبية والفنية :</u>

١- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٢- فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣- الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤- قراءة في كتابات النورسي : رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر – القاهرة).

محور : <u>التنظير :</u>

٥- في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٦- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٧- حول ستراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٨- متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٩- من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

محور : <u>النقد التطبيقي :</u>

١٠- محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١١- في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١٢- في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

محور : <u>الإبداع :</u>

<u>المسرحيات :</u>

١٣- المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٤- الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١٥- المغول (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١٦- الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
١٧- التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
١٨- معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
١٩- خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٢٠- العبور (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

<u>الروايات :</u>

٢١- الاعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٢٢- السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي – الرباط).
٢٣- مذكرات جندي في جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم) (طبعة واحدة) (دار وائل – عمان).

<u>القصص :</u>

٢٤- كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٢٥- رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

الشعر :

٢٦- جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٧- ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

أدب الرحلات :

٢٨- من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

أدب الحوار :

٢٩- ريبورتاج : حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة – لندن).

٣٠- الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل – عمان).

٣١- لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).

السيرة الذاتية :

٣٢- السيرة الذاتية :

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد التأليف).

الفهرست

تقديم .....
تأملات في الايمان والتوحيد .....
حول التصوّر الإسلامي للعمل .....
قراءة في الكتابين المسطور والمنظور .....
ماذا يراد لنا ؟ .....
نماذج من العمل القيادي الإسلامي .....
تأشيرات حول التعامل مع الشاشة الصغيرة .....
المرأة المسلمة والعمل السياسي .....
هوامش على ملف العمل الخيري .....
عدالة المشروع الحضاري الإسلامي في المنظور النورسي .....
مرئيات حول العولمة والنظام العالمي الجديد .....
ازدواجية التعليم الجامعي : مرئيات للخروج من الأزمة .....
مفهوم الأعمار وعلاقته بالنهضة في ضوء القرآن الكريم .....
مفارقة الإنسان والتقدم : رؤية مقارنة .....